



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مِيقَاتُ الْحَجِّ

تَكْرِيمٌ مَكْرَمٌ لِقُرْبَانِ الْفَلْحِ وَالْفَتْحِ
وَأَقْبَابِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمِ وَالْحَقِّ وَالْحَقِّ



11

« الطواف من الطائف الأول » « لغة التظليل في الحج » « مسجداً غير لواء
« مكة المكرمة، عاصمة الثقافة الإسلامية
« فلسفة الحج في مدرسة أهل البيت (ع) « من معالم التراث، رسالتان، وصيغة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دو فصلنامه « ميقات الحج »

کاتب:

محمدي ري شهري

نشرت في الطبعه:

مشعر

رقمي الناشر:

مركز القائميہ باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٦	ميقات الحج المجلد ١١
٦	اشارة
٦	كلمة التحرير
١٣	الحج في احاديث الامام الخميني
١٥	الحج في احاديث الامام الخامنئي
١٧	تحفة الكرام
٥٠	معالم الحج وآفاقه في مدرسة اهل البيت عليهم السلام
٦٣	المدينة المنورة فضلها وقداسة ارضها
٧٦	تحديد قرن المنازل
١٠٦	الفور والتراخي في فريضة الحج
١٢٩	الحج في الادب العربي مختارات شعرية
١٣٨	وأزواجه أمهاتهم ام سلمة
١٦٨	الحج عبر الديانات والامم (٢)
٢٠٢	من رحلات الحج الإيرانية (٣) مقتطفات من يوميات مكة لكريمة فرهاد ميرزا
٢٣٠	زعماء مكة
٢٥٨	مهمات مشهبوه في الديار المقدسة (٤)
٢٩٤	معجم ما كتب في الحج والزيارة والمعالم المشرفة في الحجاز (٨)
٣٢٩	تعريف مركز

میقات الحج المجلد ۱۱

اشاره

عنوان و نام پدیدآور : میقات الحج [بیابند: مجله]
 مشخصات نشر : تهران: منظمه الحج و الزیارة، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -
 فاصله انتشار : شش ماه یکبار

یادداشت : عربی

فهرست نویسی براساس سال ۳ شماره ۵ سال ۱۴۱۷ق.

یادداشت : این نشریه در بیروت نیز منتشر می شود

یادداشت : مدیرالمسؤول: محمد محمدی ری شهری

رئیس التحریر: علی قاضی عسکر

یادداشت : کتابنامه

ترجمه عنوان : Mighat al - haj

موضوع : حج -- نشریات ادواری

شناسه افزوده : محمدی ری شهری، محمد، ۱۳۲۵ -، مدیر مسئول

Muhammadi Reyshahri, Muhammad

قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵ -، سردیر

شناسه افزوده : سازمان حج و زیارت

رده بندی کنگره : BP۱۸۸/۸

رده بندی ... : ۲۹۷/۳۵۷۰۵

ص: ۱

کلمه التحریر

ص: ٥

العدد الحادية عشر

كلمة التحرير

ميقاتُ الحجّ - إذ تطوى عامها الخامس - تتمنى أن تكون أدقّ بياناً وأكثر استيعاباً ورؤى لكلّ ما يتعلق بفريضه الحجّ المباركة في أيامها المعلومات وفي مفاصلها المتميزة مناسك وأحكاماً وآداباً وتاريخاً ومفاهيم عبادية واجتماعية وسياسية واقتصادية.. تتجلى فيها كلّ المعاني الجميلة وكلّ القيم المباركة.. في عبودية صادقة لله تعالى، وفي انقياد تام له والتزام أكيد بتعاليمه وأحكامه، وفي رصّصفوفهم عبر وحدة متماسكة ضدّ أعدائهم ومخططاتهم، وفي ثورتهم ضدّ الطغاة والمستبدين، وفي ثروتهم وبما تمدّهم به من قوة واستقلال.. تتجسّد جميعها عبر مؤتمر مليونيّ سنويّ وفّدت إليه النفوس وهوت إليه القلوب من كلّ فجّ عميق تلبيةً لذلك الأذان القديم الجديد وأذن في الناس بالحجّ يأتوك...

وقد شاءت السماء أليقّع هذا التجمّع المثير العظيم المهيب إلّامرّة واحدة في كلّ عام ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات .. ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم على أقدم بقعة عرفتها الدّنيا وألفها الناس أم القرى مكّة

ص: ٦

المكرمة، حيث .. أول بيتٍ وُضِعَ للناسِ للذي ببكةً مباركاً وهدى للعالمين.

وداخل أظھر بيت عند بيتك المحرم، وفي أعظم مسجد المسجد الحرام، ليطوفوا بالبيت العتيق متراصين كأنهم نفس واحدة وبدن واحد وقطعة واحدة تتحرك أشواطاً متواصلة متلاحمة..

راجيةً وهي تعيش سنتها السادسة أن تكون أعمق بحثاً لكل ما يخص البلاد الطيبة الحجاز الحبيب مكة والمدينة ومافيهما وما بينهما ومحولهما مواقيت ومواقع وآثاراً وشخصيات كتبت لها أن تحيا في كنف ذلك البيت، فأمنت وطهرت وتألقت إيماناً وجهاداً وتضحيةً وعلماً.. فخلفت أرقى الذكريات وأجملها عبراً ومواعظ ودروساً تنتفع بها الأجيال.

وأخيراً وليس آخراً تصبو مجلتكم هذه- في عامها الجديد- إلى أن تكون أوسع وأكثر انفتاحاً على كل المثقفين علماء وكتّاباً ومؤلفين وقراء لعلها تحظى بقبولهم واهتمامهم كتابهً ونقداً وإرشاداً وتثبيتاً، مترقبهً أقلاماً ناضجةً وأفكاراً بكرأ وآراءً رصينةً وثقافات جديدةً متنوعةً تمدّها بما خفي عليها طيلة هذه السنين، وتكشف لها كل ما عجزت عن سبر أغواره من معالم بلد الوحي والرسالة والنبوة، وما انطوت عليه هذه الفريضة المقدسة ..

ولا- نجافي الحقيقة إذا قلنا: إن ما قدمته هذه المجلة المختصة- وللاختصاص كما تعلمون ثمنٌ باهظ وجهدٌ مضاعف- والوحيدة- حسب اطلاعنا في المكتبة الإسلامية- من مادة قيمة في نواح متنوعة ومحاور متعددة فقهاً وتفسيراً وتحقيقاً وتاريخاً وترجمةً.. أفادت كثيراً، وجعلتها موضع تقدير، وليس أدل على ذلك من إشارات وصلتنا من الاخوة كتابهً ومشافههً. ولا يسعنا إلا أن نقول: إنها جهودكم الكريمة التي تعانقت وتضافرت مع جهود متواضعة أخرى، فمدتنا بمزيد من الثقة، وإن كنا نطمح لتتراكم هذه الجهود استكمالاً للفائدة واقتراباً من الهدف، الذي رسمته وهي في أول عملها، وتحملته مسؤوليهً كبيرةً. وإن أخفقت، أو لم يسعفها الحظ في

ص: ٧

طرح موارد أكثر نفعاً وفائدة في عمرها المنصرم، فإنها تمدّ يديها لكل من يهّمه هذا الجهد ليسعفه بما تجود به يداه وهو كريم .. فخرين هذه الفريضة بأبوابها ومعالمها لم تستوفِ مجلتكم هذه شيئاً منه، وهو ينوع لا ينضب ورصيد لا ينفد. فعظمته وسعته وشموله من عظمة وسعة وشمول أعظم فريضة شرعتها السماء ورعتها وأرستها جهود تواصلت لأنبياء كبار بدءاً بإبراهيم وإسماعيل... وانتهاءً بخاتمهم محمد بن عبد اللّٰه صلى الله عليه وآله وبأهل بيته عليهم السلام وأصحابه والتابعين لهم ومن سار بهداهم. إنّ منافع ومشاكل وأسئلة كثيرة تنتظر الإجابة عنها في كلّ الميادين، وعلى جميع الأصعدة خاصة الفقهية منها محلّ ابتلاء الملايين من المسلمين. ومنبر المجلة- مع احترامه للمنابر الأخرى- وانطلاقاً من أمانة الاختصاص التي تحملها، باب مفتوح وكتاب ميسور لتلك الحلول وهذه الإجابات ..

من هنا تجدد المجلة دعوتها إلى دراسة علمية واعية مستوعبة لحيثيات هذه الفريضة المقدسة وفلسفتها ومفاهيمها وثمارها وآثارها على مجمل حياتنا؛ لنؤديها ولنعيشها كما خطت لها السماء وأرادتها ذات خير عميم وعطاء دائم ومنافع كثيرة ..

ص: ٨

الحج في أحاديث الإمام الخميني - قدس سره -

الحج في احاديث الامام الخميني

الحج في أحاديث الإمام الخميني

- قدس سره -

أقدم التهاني والتبريكات الخالصة لجميع المسلمين في العالم بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك. هذا العيد الذي يذكر الناس الواعين بمذبح الفداء الإبراهيمي، هذا المذبح الذي قدّم درس الفداء والجهاد في سبيل الله تعالى لأبناء آدم وأصفياء وأولياء الله، هذا العمل بعمق أبعاده التوحيدية والسياسية لا يستطيع إدراكه غير الأنبياء العظام والأولياء الكرام وخاصة عباد الله. هذا أبو التوحيد ومحط أصنام العالم، علمنا والبشرية جمعاء أن التضحية في سبيل الله وقبل أن تكون ذات بُعد توحيدى وعبادى، تمتلك أبعاداً سياسية وقيماً إجتماعية، علمنا وجميع الناس كيف نقدّم أعزّ ثمرات حياتنا في سبيل الله، لذا فإنى اناشدكم: ضحوا بأنفسكم وأعزّائكم وأقيموا دين الله والعدل الإلهي.

لقد عرفنا نحن ذرية آدم أنّ مكّة ومنى أماكن لنشر التوحيد ونفى الشرك، الذى من مصاديقه التعلّق بالنفس والأعزاء.

لقد تعلّم أبناء آدم من هذه الأماكن الجهاد في سبيل الله فعليكم أن تعلموا

ص: ٩

العالم قيمة الفداء والتضحية، وقولوا له، إنَّه في سبيل الله وإقامة العدل الإلهي وقطع أيادي المشركين في هذا الزمان، يجب أن يخلد الحق بتمامه ببذل أى شىء حتى ولو كان مثل إسماعيل. إنَّ إبراهيم وإسماعيل وولده العزيز سيّد الأنبياء محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله محطمو الأصنام ومعلمو البشرية أنَّه يجب تحطيم كل الأصنام والأوثان كيفما تكون. وأنَّ الكعبة، أمّ القرى على امتدادها وسعتها وحتى آخر نقطة من الأرض، وحتى آخر يوم في العالم يجب أن تطهر من دنس الأصنام، أيصنم كان وكيفما كان أكان هياكل أو شمساً أو قمراً أو حيواناً أو إنساناً أو صنماً وهل هناك أسوأ وأخطر من الطواغيت على امتداد التاريخ، من زمن آدمصفي الله حتى ابراهيم خليل الله، إلى محمّد حبيب اللهصلى الله عليه وآله حتى آخر الزمان الذي يظهر فيه إمامنا المهدي الموعود ليحطم آخر الأصنام ويطلق نداء التوحيد من الكعبة. أو ليست القوى الكبرى في زماننا أصناماً كبيرة سيطرت على العالم ودعته لعبادتها وفرضت نفسها عليه بالقوة والتروير؟!... إنَّ الكعبة المعظمة هي المركز الأوحده لتحطيم هذه الأصنام وتطهير هذه البقاع من كل أنواعها.. قال الله تعالى:.... وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود.

ص: ١٠

الحج في احاديث الامام الخامنئي - مد ظله العالى -

الحج في احاديث الامام الخامنئي

الحج في احاديث الامام الخامنئي

- مد ظله العالى -

معرفة عظمة الله ورحمته في الحج تعنى التأمل في رفع قواعد هذا البيت الذى هو بيت الله وهو فى الوقت نفسه بيت الناس أيضاً. إن أول بيت وُضِعَ للناس للذى ببكة مباركاً وهدياً للعالمين (١) إنه البقعة التى يتجه إليها الإنسان الخاشع المتبتل، وإنه أيضاً محل تجلى عظمة الدين الإلهى. خليط من العظمة والصفاء والبساطة، ذكرى أول نداء للتوحيد ومحط لتحقيق وحدة الكلمة، يحمل آثار أقدم المجاهدين فيصدر الإسلام الذين جاهدوا فيه وهم غرباء، وهاجروا منه وهم مظلومون، وعادوا إليه وهم فاتحون أعزاء، وطهروه من رجس جاهلية العرب، ثم هو المعطر بشذى المتجهدين ومحل سجود العابدين، ومهوى قلوب الشاكرين، إن مطلع فجر الإسلام فى البلاد ومشرق طلوع المهدي الموعود فى الخاتمة، هو ملجأ القلوب المضطربة ومحط آمال النفوس المتبرمة. تشريع فريضة الحج وترتيب مناسكه يحمل دلائل العظمة ويحمل آيات

ص: ١١

الرحمة أيضاً. بهذه المعرفة تستيقظ القلوب وبمشاهدة الكعبة المشرفة والمسجد الحرام بوعى يعود التائهون إلى الصراط المستقيم..
معرفة العدو حصيلة كل هذه الألوان من «المعرفة» ومكملة للنفوس.
وبدونها يكون قلب المسلم وذهنه بدون أسوار ضد الغزاة والخونة.
إن أعمال الحج، ومنها رمى الجمار تجسيد للمعرفة ومقارعة العدو. والنبى الأكرم صلى الله عليه وآله رفع الأذان فى الحج، وتليت آيات البراءة فى موسم الحج بلسان أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام. ولو أن الأئمة الإسلامية تخلصت يوماً من وجود جحافل الأعداء وأمكن حدوث ذلك فإن البراءة ستفقد مبررها ولكن مع وجود الأعداء وعدوانهم الحالى فإن الغفلة عن العدو وإهمال البراءة منه خطأ كبير وخسارة فادحة..

الهوامش:

ص: ١٢

تحفة الكرام

تحفة الكرام

تحفة الكرام

تأليف: العلامة السيد محمد مهدي بحر العلوم

تقديم: محمد رضا الأنصاري

«تحفة الكرام في تاريخ مكة والمسجد الحرام» رسالة نافعة، وهي مما أتحفنا بها يراع أحد أعلام المسلمين وأئمة الدين في القرن الثاني عشر للهجرة، صاحب الحسب النبوي الشريف، والنسب العلوي المنيف، ألا وهو العلامة السيد محمد مهدي بن مرتضى بن محمد البروجردى الطباطبائي. ولد رضوان الله تعالى عليه سنة ١١٥٥ هـ (وفي رواية سنة ١١٥٤ هـ) بمدينة كربلاء، عند مشهد السبط الشهيد الحسين بن علي عليه السلام، في اسره علمية دينية، فوالده السيد مرتضى كان يعد من أعلام كربلاء وأفاضل اسرته، وللمترجم له علاقات مصاهرة ونسب باسرة العلامة المجلسي رحمه الله (المتوفى عام ١١١٠ هـ) وكان يعبر عن المجلسي الأول الشيخ محمد تقي بالجد وعن المجلسي الثاني الشيخ محمد باقر بن محمد تقي بالخال. تلقى المترجم له الدروس أولاً في مسقط رأسه عن والده وعن الشيخ يوسف البحراني (صاحب «الحدائق الناضرة» المتوفى ١١٨٤ هـ) ثم هاجر إلى النجف الأشرف، وحضر دروس أعلامها وهم الشيخ مهدي بن محمد الفتوني العاملي (ت ١١٨٣ هـ)،

ص: ١٣

والشيخ محمد تقى الدورقى (ت/ ١١٨٦ هـ)، والشيخ محمد باقر هزارجربى (ت/ ١٢٠٥ هـ)، ثم عاد إلى كربلاء وتلمذ على كبير علماء الشيعة آنذاك وهو الآغا محمد باقر الشهير بالوحيد البهبهانى (ت/ ١٢٠٥ هـ) فلأزمه مدّة وصار من أبرز تلامذته وموضع اعتماده، وحينما عجز الوحيد عن التدريس لكبر سنه أوصى تلميذه النبيه بأن يعود إلى النجف ويؤسس حوزة دراسية لتربية الطلاب، وفعلاً عاد السيد إلى النجف الأشرف فحلّق حوله جماعة استفادوا من نمير علمه، وصاروا أعلاماً ومنارات للعلم والتقوى اهتدى بهم الناس، وكان منهم السيد حيدر العاملى، الشيخ جعفر بن الشيخ خضر الجناجى (صاحب كشف الغطاء) السيد جواد العاملى (صاحب مفتاح الكرامة)، الشيخ أبو على الحائرى (صاحب منتهى المقال فى علم الرجال) والمولى أحمد التراقى، والسيد محمد الطباطبائى المجاهد، السيد محمد الخوانسارى، الشيخ أسد الله التستري (صاحب المقابس)، الميرزا محمد النيسابورى الأخبارى، حجة الإسلام السيد محمد الشفتى الأصفهانى، الشيخ محمد على الأعسم، السيد دلدار على الهندى وآخرون.

سافر السيد سنة ١١٨٦ هـ إلى خراسان فسكن ٨ سنوات بجوار مشهد الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام، فأفاد واستفاد، وخلال هذه الفترة حضر عند الميرزا مهدى الشهيدى الخراسانى ودرس عنده الفلسفة الإسلامية، ولمواهبه العلميّة ونبوغه لقبه شيخه الخراسانى بلقب (بحر العلوم) فصار يعرف بعده، واشتهرت أسرته بهذا اللقب.

توجه بحر العلوم سنة ١١٩٢ هـ صوب الديار المقدسة لأداء فريضة الحجّ، فمكث فى مكّة (زادها الله تشريفاً وتعظيماً) سنتين ودّرس خلالها الفقه على المذاهب السنيّة الأربعة فى المسجد الحرام، ولعلّ هذه الرسالة من ثمرات تلك السفره، كما تنسب له فكرة بناء المآذن الأربع فى أطراف الحرم؛ لتسهيل طواف الطائفين حول البيت.

ص: ١٤

عاد بحر العلوم إلى النجف الأشرف، وتصدى زعامة الإمامية، فصار مرجعها الأول، ومفتيها الأكبر وقد أسدى خلال فترة زعامته خدمات جلية للطائفة المحقة وللدين الإسلامي الحنيف ذكرها المترجمون لسيرته. وقد مدحه كل من تصدى لترجمة حياته وسيرته من المعاصرين له ومن يليهم، ويكفي للدلالة على علو مقامه ما ذكره صاحب (المواهب السنية في شرح الدرء الغروية) في ترجمة السيد حيث يقول: «كان ركناً من أركان هذه الطائفة وعمادها، ومن أروع نساكها وعبادها، وهو بحر العلوم المؤيد بتأييدات الحي القيوم، محيي مدارس الرسوم، لسان المتأخرين، كاشف أسرار المتقدمين، متمم القوانين العقلية، مهذب القواعد والفنون النقلية، علامة العلماء الأعلام، فخر فقهاء الإسلام، وهو الحبر العلام، والبحر القمقام، والأسد الضرغام، مفتى الفرق، الفاروق بالحق، حامى بيضة المذهب والدين، ماحى آثار المفسدين بترويج مراسم أجداده الطاهرين، نور الهداية في الظلم..».

توفى السيد رحمه الله في السابعة والخمسين من عمره الشريف في شهر رجب من سنة ١٢١٢ هـ ودُفن في مقبرة كان قد أعدّها لنفسه في حياته في الزاوية الشمالية الغربية من مسجد الشيخ الطوسي رحمه الله في النجف الأشرف بجوار مرقد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وعلى مسافة أمتار من قبر شيخ الطائفة الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (المتوفى ٤٦٠ هـ) رحمه الله.

مؤلفاته:

كان سيدنا المترجم له على عظمته في العلم والتحقيق، قليل التأليف لعدة أمور: لانشغاله بالتدريس والزعامة الدينية، ولكثرة أسفاره في سبيل أداء رسالته الإسلامية، ولشدة احتياطه ودقة مسلكه، وبالرغم من هذا وذاك فقد احتفظ التأريخ العلمي له بيسير من المؤلفات هي:

١- كتاب المصايح في العبادات والمعاملات في الفقه، وقد أكثر النقل عنه

ص: ١٥

الفقهاء والمحققون منذ عصره.

٢- الدرّة النجفيّة: وهي منظومة في بابي الطهارة والصلاة من الفقه يتجاوز عدد أبياتها الألفين.

٣- مشكاة الهداية: وهي منشور الدرّة النجفيّة، ولم يبرز منها إلّا كتاب الطهارة.

٤- الفوائد الرجاليّة في علم الرجال مطبوع في ٤ مجلدات.

٥- ٢٣- مجموعة رسائل في مواضيع مختلفة من الفقه والاصول والحديث والكلام والأدب والشعر وغيرها.

٢٤- تحفة الكرام في تأريخ مكّة والمسجد الحرام. وهو هذا الذي نحن بين يديه حيث استعرض فيه تأريخ المشاعر المقدسة بدءاً بالكعبة الشريفة، حيث أسهب في تأريخ بنائها منذ هبوط آدم عليه السلام وحتى عصر الرسالة المحمديّة صلى الله عليه وآله مروراً ببناء إبراهيم الخليل عليه السلام ومن بعده، وما يتعلق بها من الأركان والحجر، والحجر الأسود، والباب، والملتم، والميزاب، والمستجار، والكسوة، والحطيم، وغيرها، فالمسجد الحرام، والمطاف، وزمزم، والأبواب، والمآذن، والمسعى، ومقام إبراهيم، والحرم المكي، ومدينة مكّة، وما بها من المواقع الدينيّة الأثريّة كمولد النبيّ صلى الله عليه وآله وبيت خديجة، ومولد السيدة فاطمة الزهراء، والحجون، وشعب أبي طالب عليه السلام وغيرها.

وقد أطال البحث عن كلّ واحدٍ من هذه المشاعر المقدسة والمواقع المباركة، فاستعرض أقوال المؤرخين وأصحاب السير والحديث، فوافق بعضهم وناقش البعض الآخر وأبرز تهافت أقوالهم وفقاً للمنطق التاريخي الصحيح عنده، وهكذا قدّم مجموعة نافعة لمن يحب الوقوف على تأريخ تلك البقعة الشريفة، وما مرّ بها من تطورات خلال عشرات القرون، فشكر الله سعيه وأجزل له الثواب.

استفدنا في تصحيح هذه الرسالة وإبرازها للملاّ العلمي من نسختين:

الاولى: نسخة مكتبة مدرسة الفيضية بمدينة قم المقدسة، وهي برقم ١٩٨٢

ص: ١٦

بقلم نسخى فى ٥٥ ورقة، مجهولة التاريخ، وعلصفحتها الاولى عدة تملكات منها باسم السيد على الطباطبائى يقول فيه: (تصنيف جدنا السيد محمد مهدي الطباطبائى، ولده السيد على الطباطبائى) وهو على بن محمد رضا الطباطبائى آل بحر العلوم (١٢٢٤-١٢٩٨ هـ) ويعد حفيد المصنف ومن أبرز فقهاء هذه الاسرة الكريمة، ومؤلف كتاب (البرهان القاطع فى شرح المختصر النافع) وقد حصلنا على مصورة منها منصديقنا الفاضل السيد محمد على بحر العلوم فشكراً له.

الثانية: نسخة من مكتبة آل كاشف الغطاء فى النجف الأشرف، وهى نسخة حديثة الكتابة بقلم نسخى فى ٤٤ ورقة، ويبدو أن النسخة بخط العلامة السيد محمدصادق بحر العلوم (١٣١٥-١٣٩٩ هـ) وكان رحمه الله يمتلك مكتبة مخطوطة نفيسة قد جمع فيها الأعلام، وكان قد استنسخ عشرات المخطوطات النادرة لنفسه بخطه وأودعها مكتبته، ونسختنا من تلك المجموعة المستنسخة بخطه وجاء فى نهاية هذه النسخة:

(هذا آخر ما وجد بخط المرحوم المبرور، المستقر فى دار الرحمة والسرور، العالم الربانى، والحبر الصمدانى، آية الله فى العالمين، السيد السند، والركن المعتمد، التقى النقى الألمعى اللوذعى، السيد مهدي الطباطبائى الملقب ببحر العلوم، أعلى الله درجته فى الجنان، وألبسه ثوب المغفرة والرضوان- وقد حرر وسطر امتثالاً لأمر العالم العلامة، والفاضل الحبر الفهامة، الكريم ابن الكريم ابن العالم ابن العالم، الذى فضائله لا تعد، وفواضله لا تُحصى، جناب الشيخ عباس نجل الأجل الأكرم الشيخ على، نجل شيخنا الأعظم الأكبر الشيخ جعفر النجفى- طاب ثراه- وقد وقع الفراغ منه يوم الأحد السادس من شهر الله الأصب رجب المرجب من سنة ١٢٩٥ هـ وأسأل الله العفو والغفران والحمد لله أولاً وآخراً).

وقد حصلنا على مصورة من هذه النسخة من الأقراص الكمبيوترية لمخطوطات النجف المشتهر باسم (الذخائر) شكر الله مساعى القائمين بهذا الجهد

ص: ١٧

وجزاهم عن الإسلام خيراً.

مصادر المقدمة:

مقدمة رجال بحر العلوم: الجزء الأول، طبعه النجف الأشرف.

أعيان الشيعة ١٠: ١٦٠-١٥٩

روضات الجنات ٧: ٢٠٤

مكارم الآثار ٢: ٢١٦

الكنى والألقاب ٣: ٦٢

ريحانة الأدب ١: ٢٣٤

الأعلام للزركلي ٧: ١١٣

تنقيح المقال ١: ١٥٦ و ٣: ٢٦١

جنة المأوى: ٢٣٦

دانشنامه جهان اسلام ٦: ٩٥٨

ص: ١٨

صور من النسخ الخطية

ص: ١٩

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله، والصلاة على محمد وآله. اللهم بك أستعين، وبأصفيائك إليك أتوسل وأتشفع الكعبة الشريفة

قال الشيخ قطب الدين الحنفى النهروانى، ثم المكى المتوفى سنة ٩٩٠ فى تاريخه؛ تاريخ مكّة المشرفة، الذى سماه ب «الاعلام بأعلام بيت الله الحرام»، وعمله للسلطان مراد (١) بن السلطان سليم العثمانى، فى الباب الثانى من الكتاب المذكور. قال قاضى القضاة، السيد تقى الدين محمد بن احمد بن على المكى الفاسى فى كتابه «شفاء الغرام»: «لا- شك أن الكعبة المعظمة بنيت مرات، وقد اختلف فى عدد بنائها، ويتحصل من مجموع ما قيل فى ذلك انها بنيت عشر مرات، وهى بناء الملائكة، وبناء آدم عليه السلام، وبناء اولاده وبناء الخليل ابراهيم عليه السلام، وبناء العمالقة، وبناء جرهم، وبناء قصى بن كلاب (جدّ النبي صلى الله عليه وآله)، وبناء قريش (قبل بعث النبي صلى الله عليه وآله وعمره الشريف يومئذ خمس وعشرون سنة) وبناء عبدالله بن الزبير بن العوام الأسدى، وآخرها بناء الحجاج بن يوسف الثقفى». (٢) وفى إطلاق العبارة أنه بناء الكعبة تجوز، فإن بعضها لم يستوعبه البناء، كالبناء الآخر وهو بناء الحجاج، فإنه إنما هدم جانب الميزاب فقط وأعادته، وأبقى

١- ١ هو السلطان مراد بن السلطان سليم بن السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن السلطان محمد بن السلطان مراد بن السلطان محمد بن السلطان يلدزم بايزيد بن السلطان مراد اورخان بن السلطان عثمان. هكذا نسبة القطبى فى تاريخه [منه قدس سره].

٢- ٢ شفاء الغرام ١: ٩١.

ص: ٢٠

الجوانب الثلاث، وهى جهة الباب، وجهة المستجار (الذى هو مقابل الباب) وجهة الصفا (المقابل لجهة الميزاب) فإنها باقية على بناء ابن الزبير.

[البناء الأول]

وقال القطبى: أما البناء الأول فذكره الإمام أبو الوليد احمد بن عبد الله بن أحمد ابن الوليد فى تاريخه قال: «حدّثنا على بن مسلم العجلى عن ابيه، حدّثنا القاسم بن عبد الرحمن الأنصارى، حدّثنا الإمام محمد الباقر، بن الإمام زين العابدين، على ابن الحسين، بن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهم، قال: «كنت مع أبى على بن الحسين عليهما السلام بمكة، فبينما هو يطوف وأنا وراءه إذ جاءه رجل طويل فوضع يده على ظهر أبى، فالتفت أبى إليه.

فقال الرجل: السلام عليك يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، إنى أريد أن أسالك.

فرد عليه السلام، وسكت أبى، وأنا والرجل خلفه حتى فرغ من اسبوعه، فدخل الحجر، فقام تحت الميزاب، فصلّى ركعتى اسبوعه، ثم استوى قاعداً، فالتفت إلى فجلست إلى جانبه.

فقال: يا محمد، اين السائل؟

فأومأت إلى الرجل، فجاء فجلس بين يدى أبى.

فقال له: عمّ تسأل؟

قال: إنى أسالك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت.

فقال له أبى: من أين انت؟

قال: من أهل الشام.

قال: أين سكنت؟ (١) قال: بيت المقدس.

قال: قرأت الكتابين، يعنى التوراة والإنجيل؟

قال: نعم.

ص: ٢١

قال له أبى: يا أخا العرب، احفظ عنى، ولا تحفظ عنى إلّاحقاً. أما بدء هذا الطواف فإنّ الله تعالى قال للملائكة: إني جاعلٌ في الأرض خليفة، (١) فقالت الملائكة أى رب أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون ويتباغضون ويتباغون اجعل ذلك الخليفة (٢) منّا، فنحن لا نفسد فيها ولا نسفك الدماء، ولا نتحاسد، ولا نتباغى، ونحن نسيح بحمدك ونعظمك ولا نغضبك؟ فقال الله تعالى: إني اعلم ما لا تعلمون. (٣) قال: فظنت (٤) الملائكة أن ما قالوا رد على ربهم، وأنه قد غضب عليهم من قولهم، فلاذوا بالعرش، ورفعوا ايديهم يتضرعون ويبكون إشفاقاً من غضبه، فطافوا بالعرش ثلاث ساعات، فنظر الله تعالى إليهم، ونزلت الرّحمة عليهم، ووضع الله سبحانه تحت العرش بيتاً هو البيت المعمور على اربع اساطين من زبرجد تغشاهنّ ياقوتة حمراء. وقال للملائكة: طوفوا بهذا البيت.

فطافت الملائكة بهذا البيت، وصار أهون عليهم من العرش. ثم إنّ الله تبارك وتعالى بعث ملائكة وقال لهم: ابنوا لى بيتاً فى الأرض بمثاله وقدره، وأمر الله تعالى من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. فقال الرجل: صدقت يا ابن بنت رسول الله، هكذا كان» انتهى. قلت: هذا الحديث الشريف يدل على أن بناء الملائكة للكعبة (٥) الشريفه كان قبل خلق الأرض، ولنا أحاديث دالة على أن الكعبة خلقت قبل الأرض باربعين سنه.

فى روايه قال الإمام أبو عبدالله محمد بن اسحاق بن العباس الفاكهى المكى فى اوائل «تاريخ مكة»: حدثنى عبدالله بن أبى سلمه، قال حدثنا الواقدى، حدثننا ابن جرير (٦)، عن

١-١ سورة البقرة: ٣٠.

٢-٢ فى النسخة الثانية: الخلقه.

٣-٣ سورة البقرة: ٣٥.

٤-٤ فى النسخة الثانية: فقالت.

٥-٥ فى النسخة الثانية: الكعبة.

٦-٦ فى النسخة الثانية: جريج.

ص: ٢٢

بُسر، عن عاصم الثقفى، عن سعيد بن المسيب:

قال قال على بن أبى طالب عليه السلام: «خلق الله تعالى البيت قبل الأرض والسموات بأربعين سنة وكان غُشاءً على الماء».

قال الفاكهى: وحدثنى عبد الله بن أبى سلمة قال: حدثنا النضر بن شميل، قال: حدثنا ابن معشر، عن سعيد ونافع مولى آل الزبير، عن أبى هريرة، «قال:

الكعبة خُلقت قبل الأرض بألفى عام.

قيل: وكيف خلقت قبل الأرض وهى من الأرض؟

فقال: لأنه كان عليها ملكان يسبحان بالليل والنهار الفى سنة، فلمّا أراد الله أن يخلق الأرض دحاها من تحتها فجعلها فى وسط الأرضين».

قال: وحدثنى عبد الله بن أبى سلمة، قال: حدثنا الواقدى، قال: حدثنا أحمد ابن يحيى بن طلحة، أنه سمع مجاهدًا يقول:

«إن قواعد البيت خلقت قبل الأرض بألفى سنة، بسطت الأرض من تحته».

أقول: وظهر مما روينا أن موضع البيت الشريف خلق قبل الأرض، لا نفس بناء البيت، فإنه أول من بنته الملائكة بحمد الله تعالى كما سقناه والله سبحانه وتعالى أعلم.

الثانى: بناء آدم عليه السلام.

وقد ذكره الإمام أبو الوليد الأزرقى قال: حدثنى جدى، عن سعيد بن سالم، عن طلحة بن عمرو الحضرمى، قال عطاء بن أبى رباح

(بفتح الراء والموحده، بعدها ألف ثم حاء مهملة)، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «لما اهبط الله آدم إلى الأرض من الجنة، قال يا رب إنى لا أسمع أصوات الملائكة!

قال: خطيتك (١) يا آدم، ولكن اذهب فابن لى بيتاً، فطف به واذكرنى حوله، كنجوما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى.

قال: فأقبل آدم يتخطى الأرض فطويت له، ولم يضع قدمه فى شىء من

ص: ٢٣

الأرض إلأصار عمراناً وبركة، حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام، وأن جبرئيل ضرب بجناحه الصخرة فكشف عن أس ثابت على الأرض السابعة، فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق [حمل] الصخرة منها ثلاثون رجلاً، (١) وأنه بناه من خمسة أجبل، من لبنان، وطور زيتا، وطور سينا، والجودي، وجرء، حتى استوى على وجه الأرض». (٢) وهذا يدل على أن آدم عليه السلام إنما بنى أساس الكعبة حتى ساوى وجه الأرض، ولعل ذلك بعد دثور ما بنته الملائكة بأمر الله تعالى أولاً.

ثم انزل الله تعالى البيت المعمور لآدم عليه السلام ليستأنس به، فوضعه على أساس الكعبة.

ويدل على ذلك ما رواه أبو الوليد الأزرقى فى تاريخه قال: حدثنى أبى، عن جدى، قال حدثننا سالم، عن عثمان بن ساج، قال: بلغنى أن عمر بن الخطاب قال لكعب، يا كعب أخبرنى عن البيت الحرام.

قال كعب: أنزل الله من السماء ياقوته مجوفاً مع آدم عليه السلام، فقال: يا آدم إن هذا بيتى انزلته معك، يطاف حوله كما يطاف حول عرشى، ويصلى حوله كما يصلى حول عرشى، ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعد من حجارة، ثم وضع البيت عليه، وكان آدم عليه السلام يطوف حوله كما يطاف حول العرش، ويصلى عنده كما يصلى عند العرش، ولما أغرق الله قوم نوح رفعه إلى السماء وبقيت قواعد». (٣) وقال الأزرقى أيضاً: حدثنى أبى، قال حدثنى محمد بن يحيى، عن عبدالعزيز ابن عمران، عن عمر بن أبى معروف، عن عبد الله بن أبى زياد، أنه قال:

«لمّا أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة، قال يا آدم ابن لى بيتاً بحذاء بيتى الذى فى السماء تتعبد فيه أنت وولدك، كما تتعبد ملائكتى حول عرشى فهبطت عليه الملائكة، فحفر حتى بلغ الأرض السابعة، فقذفت فيه الملائكة حتى اشرف على وجه الأرض، وهبط آدم عليه السلام بياقوته حمراء مجوفة لها أربعة أركان بيض، فوضعها

١- ١ ذكر ابن ظهيرة بعد قوله ثلاثون رجلاً: قال ابن عباس «فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم، ولم يزل كذلك حتى بعث الله الطوفان فدرس مواضع البيت. ثم قال: اقول هذا ما يشهد بأن بناء الملائكة وبناء آدم عليه السلام بناء واحد» انتهى.

٢- ٢ أخبار مكة ١: ٣٦.

٣- ٣ أخبار مكة ١: ٤٠.

ص: ٢٤

على الأساس، فلم تزل الياقوتة كذلك حتى كان زمن الغرق، فرفعها الله تعالى». (١) وقال الأزرقى أيضاً: حدّثني محمد بن يحيى، عن ابراهيم بن محمد، عن أبي يحيى، عن أبي المليح، أنه قال: «كان أبو هريرة يقول: حَجَّ آدم عليه السلام فقضى المناسك، فلَمَّا حَجَّ قال يا ربَّ إنَّ لكلَّ عاملٍ أجرًا.

قال الله تعالى: أمَّا أنت يا آدم فقد غفرت لك، وأمَّا ذريتك فمن جاء منهم هذا البيت فبَاء بذنبه غفرت له. فاستقبلته الملائكة، فقالوا: برَّ حجك، يا آدم قد حججنا هذا البيت قبلك بالفى عام.

قال: وما كنتم تقولون حوله؟

قالوا: كنا نقول: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر).

قال: فكان آدم عليه السلام إذا طاف يقول هذه الكلمات، وكان طواف آدم عليه السلام سبعة أسابيع بالليل، وخمسة بالنهار». (٢) قال الأزرقى أيضاً: حدّثني محمد بن يحيى، قال حدّثني هشام بن عبدالرحمن، عن سليمان المخزومي، عن عبدالله بن أبي سليمان (مولى بنى مخزوم) أنه قال: «طاف آدم عليه السلام سبعا بالبيت، ثمصلى تجاه باب الكعبة ركعتين، ثم أتى الملتزم وقال: إنك تعلم سريرتى وعلانيتى فاقبل معذرتى، وتعلم ما فى نفسى وما عندى فاغفر لى ذنوبى، وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى، اللهم إنى أسالك إيماناً تباشر به قلبى، و يقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لا يصيبنى إلأما كتبت لى، والرضا بما قضيت لى.

قال: فأوحى الله تعالى إليه، يا آدم قد دعوتنى بدعوات، فاستجبتُ لك، ولن يدعونى بها احد من ولدك إلأا كشفت همومه وغمومه، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلتُ الغنى بين عينيه وتجرتُ له من وراء كل تاجرٍ، وأتته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريد لها.

قال: فمنذ طاف آدم عليه السلام كانت سنَّة الطواف». (٣)

١-١ أخبار مكة ١: ٤٣.

٢-٢ أخبار مكة ١: ٤٤.

٣-٣ أخبار مكة ١: ٤٤.

ص: ٢٥

الثالث: بناء أولاد آدم عليه السلام

روى الازرقى بسنده إلى وهب بن مئبته قال: لما رُفعت الخيمة التي عزي الله بها آدم عليه السلام من حليه الجنة حين وُضعت له بمكة في موضع البيت، ومات آدم عليه السلام فبنوا [فبنى] بنو آدم عليه السلام من بعده مكانها بيتاً بالطين والحجارة، فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام، فنسفه الغرق، وغيّر مكانه حتى بؤاً [بؤى] لإبراهيم عليه السلام». (١) قال الحافظ أبو القاسم الشَّهيلي في الفصل الذي عقده لبنيان الكعبة: «وكان بناؤها الأول حين بنى شيث بن آدم عليه السلام» انتهى.

ولعل مراد الشَّهيلي بالأوليه بالنسبة إلى بناء البشر لا الملائكة، وان بناء آدم عليه السلام هو الأساس إلى ان ساوى وجه الأرض، وانزل الله عليه من الجنة البيت المعمور، فوضعه على ذلك الأساس. والمراد بالخيمة المشار إليها في خبر وهب بن منبه، هو البيت المعمور، أو لعلها خيمة غير البيت المرفوع، لعلها رفعت بعد وفاة آدم عليه السلام، وابقى البيت المعمور إلى أن رُفع زمان الطوفان، وفي ذلك من ارتكاب المجاز مما يصحح (٢) هذه الروايات المتباينة ظواهرها، والله أعلم.

حكى السنجارى قال: «ذكر الفاسى أن أول من بؤب الكعبة أنوش بن شيث ابن آدم عليه السلام، وأنه ذكر عن الفاكهى أن أول من بؤبها وجعل لها غلقاً جرهم، والله اعلم» (٣) انتهى.

الرابع: بناء الخليل عليه السلام

قال السَّيد الإمام الفاسى:

«أما بناء الخليل عليه السلام فهو ثابت بالكتاب والسنة الشريفه، وهو أول من بنى البيت على ما ذكره الفاكهى عن على بن أبى طالب عليه السلام». (٤) وجزم الشيخ عماد الدين بن كثير فى تفسيره قال: «لم يرد عن معصوم أن

١- ١ أخبار مكة ١: ٥١.

٢- ٢ فى النسخة الثانية: مما يصح به.

٣- ٣ شفاء الغرام ١: ٩٠ الباب السابع.

٤- ٤ شفاء الغرام ١: ٩١ أخبار عمارة الكعبة المعظمة.

ص: ٢٦

البيت كان بيتاً قبل الخليل عليه السلام (١) فهو ينكر ما قدمناه من الآثار.

وأما على ما قدمناه من الآثار، فبناء ابراهيم عليه السلام أول اسمى بالنسبة إلى من بنى بعده لا أول حقيقى والله أعلم.

قال ابن ظهير [ابن ظهيرة]: «وجعل الخليل عليه السلام طول البيت فى السماء تسعة أذرع، وعرضه فى الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً من الركن الأسود إلى الركن الشامى (الذى فيه الحجر)، وجعل عرض ما بين الركن الشامى إلى الركن الغربى اثنين وعشرين ذراعاً، وجعل طول ظهرها من الركن الغربى إلى الركن اليمانى احدى وثلاثين ذراعاً، وجعل عرض شقها اليمانى من الركن الأسود إلى الركن اليمانى عشرين ذراعاً، فلذلك سُميت كعبة، لأنها على خلقه الكعب، وكذلك بنى آدم عليه السلام وجعل بابها بالأرض غير مبوب حتى كان تبع الحميرى هو الذى جعل لها باباً وغلقاً فارسياً وجعل الخليل الحجر (بالكسر) إلى جنب البيت عريشاً من أراكى تقتحمه فكان زرباً لغنم اسماعيل، وحفر فى بطن الكعبة جُباً على يمين الداخل يكون خزانه للبيت، وهو الذى نصب عليه عمرو بن اللّحى هُبَل (صنم قريش) ثم عدا على ذلك الجُب قوم من جرهم فسرقوا ما فيه، فبعث الله الحية لحراسته، وهى التى اختطفها العقاب» (٢) نقل باختصاره.

وروى الأزرقي فى تاريخه عن ابن اسحاق: «أن ابراهيم عليه السلام لما بنى البيت جعل طولهُ فى السماء تسعة أذرع، وجعل طولهُ فى الأرض من قبيل وجه البيت الشريف من الحجر الأسود إلى الركن اليمانى اثنين وثلاثين ذراعاً، وجعل عرضه فى الأرض من قبل الميزاب من الركن الشامى إلى الركن الغربى الذى يسمى الآن الركن العراقى اثنين وعشرين ذراعاً، وجعل طولهُ فى الأرض من جانب ظهر البيت الشريف من الركن الغربى المذكور إلى الركن اليمانى احدى وثلاثين ذراعاً، وجعل عرضه فى الأرض من الركن اليمانى إلى الحجر الأسود عشرين ذراعاً، وجعل الباب لاصقاً بالأرض، غير مرتفع عنها، ولا مبوباً، وجعل لها تبع الحميرى باباً وغلقاً بعد ذلك،

١-١ شفاء الغرام ١: ٩٢.

٢-٢ شفاء الغرام ١: ٩١.

ص: ٢٧

وجعل ابراهيم عليه السلام فى بطن البيت على يمين من دخله حفرة لتكون خزانة للبيت، يوضع فيها ما يُهدى إلى البيت، فكان إبراهيم عليه السلام يبنى وإسماعيل عليه السلام ينقل له الأحجار على عاتقه، فلما ارتفع البنيان قرب له المقام، فكان يقوم عليه ويبنى ويحوّله له إسماعيل عليه السلام ينقل له فى نواحي البيت، حتى انتهى إلى موضع الحجر الأسود.

فقال ابراهيم عليه السلام لإسماعيل عليه السلام: يا إسماعيل إئتني بحجر أضعه هنا يكون علماً للناس يتدثون منه الطواف. فذهب إسماعيل فى طلبه، فجاء جبرئيل عليه السلام إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام بالحجر الأسود، وكان الله عزّوجلّ استودعه جبل أبى قُبَيْس حين كان طوفان نوح عليه السلام، فوضعه جبرئيل عليه السلام فى مكانه، وبنى عليه إبراهيم عليه السلام وهو حينئذٍ يتلألاً نوراً، فأضاء بنوره شرقاً وغرباً وشاماً ويمناً إلى منتهى أنصاب الحرم فى كلّ ناحية وإنّما سوّده الجاهليّة وأرجاسها.

قال: ولم يكن إبراهيم عليه السلام سَقَفَ البيت ولا بناه بَمَدْرٍ، وإنّما رَضَهُ رَضاً. (١) قال: وذكر سنده إلى عبد الله بن عمر [عمرو] «أنّ جبرئيل عليه السلام نزل بالحجر [من الجنّة] على إبراهيم عليه السلام من الجنّة وأنه وضعه حيثُ رأيتم، وانتم لا تزالون بخير ما دام بين ظهرانيكم فتمسّكوا به ما استطعتم، فإنّه يوشك أن يجيء جبرئيل فيرجع به من حيثُ جاء به» انتهى. (٢) وقال السيّد الإمام تقى الدين الفاسى: روينا عن قتادة قال: «ذَكَرْنَا أَنَّ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَنَى الْبَيْتَ مِنْ خَمْسَةِ أَجْبَلٍ: مِنْ طُورِ سَيْنَا، وَطُورِ زَيْتَا، وَلِبْنَانَ، وَالْجُودَى وَحِرَاءَ.

قيل وذكر لنا أنّ قواعده من حراء.

قال: ويروى أنّ الخليل أسّس البيت من ستّة أجبل من أبى قبيس، ومن الطّور، ومن القُدس، ومن ورقان، ومن رضوى، ومن أحد. (٣) قال الازرقى: قال أبى، وحدّثنى جدّى، عن سعيد بن سالم، عن ابن جُريح

١- ١ أخبار مكة ١: ٦٦-٦٥.

٢- ٢ أخبار مكة ١: ٦٣.

٣- ٣ شفاء الغرام ١: ٩١ الباب السابع.

ص: ٢٨

[جريح]، عن مُجاهد أنه قال: «كان موضع الكعبة قد خفي ودرس زمن الطوفان فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام. قال: وكان موضعه أكمة حمراء [مدرة] لا تعلوها السيول غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت هنالك، من غير تعيين محله، وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض، ويدعو عنده المكروب، وما دعى [دعا] عنده أحد إلا استجيب له، وكان الناس يحجون إلى موضع البيت، حتى بوأ الله سبحانه وتعالى [مكانه] لإبراهيم عليه السلام لما أراد عماره بيته، واطهار دينه وشعائره [شرائعه]، فلم يزل منذ أهبط الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام إلى الأرض معظماً محترماً عند الأمم والملل». (١) وعن ابن عمر: «كان الأنبياء يحجونه ولا يعلمون مكانه، حتى بوأه الله لخليله واعلمه مكانه».

وروى أن هوداً وصالحاً، ومن آمن بهما، حجوا البيت وهو كذلك.

ونقل العلامة السيوطي في بعض كتبه: «أن جميع الأنبياء حجوا البيت إلا هوداً وصالحاً، اشتغلا بأمر قومهما فلم يحجا، وأن آدم لما حج خلق جبرئيل عليه السلام رأسه بياقوته من الجنة، فلما بوأ الله تعالى لخليله مكان البيت أقبل من الشام وله يومئذ مائة سنة، ولإسماعيل ست وثلاثون سنة، وأرسل الله معه السكينة والصرده والملك دليلاً، حتى تبوأ البيت الحرام.

قال: والسكينة لها رأس كراس الهرة وجناحان.

وفي رواية: كأنها غمامة أو ضبابه تغشى الأرض كالدخان، في وسطها كهيئة الرأس يتكلم، وكانت بمقدار البيت.

فلما انتهى الخليل إلى مكة وقعت في موضع البيت، ونادت يا إبراهيم ابن علي مقدار ظلي، لا يزيد ولا ينقص. (٢) وفي رواية: أنها تطوقت بالأساس الأول كأنها حية.

وفي أخرى أنها لم تزل راكدة تظل إبراهيم وتهديه مكان القواعد، فلما رفع

١-١ أخبار مكة ١: ٥٤-٥٣.

٢-٢ أخبار مكة ١: ٦١-٦٠.

ص: ٢٩

القواعد قدر قامه انكشفت.

قال: وذكر أن الخليل لما حفر القواعد ابرز عن رُبض كأمثال خلف الإبل، لا يُحرك الصخرة إلا ثلاثون رجلاً، وكان يبني كل يوم سافاً وهو المدماك في عرفنا الآن.

قال ابن عباس: أما والله ما بنياه بقصة (وهي النورة وشبهها) ولا مدر، ولا كان معهما ما يسقّفانه، ولكن أعلماه وطافا به. وفي رواية رَحْمَاهُ رَحْمًا.

قال: وروى أن ذا القرنين قَدِمَ مَكَّةَ، والخليل وابنه بينان.

فقال: ما هذا؟ فقالا: نحن عبدان امرنا بالبناء.

فطلب منهما البرهان على ذلك، فشهد بذلك خمسة أكبش.

ثم قال: قال السهيلي: بناه الخليل من خمسة أجبل، كانت الملائكة تأتيه بالحجارة منها وهي طور سينا، وطور زيتا (وهما بالشام) والجودي (وهو بالجزيرة) ولبنان وحراء (هما بالحرم).

قال المجدد: في كون لبنان بالحرم نظر، إذ لا يعرف ذلك.

ثم ذكر القطب قصة مهاجرة الخليل بعد أن نجاه الله من نار نمرود، وولادة اسماعيل واسحاق، وإسكان الخليل واسماعيل وأمه هاجر الحرم، وظهور ماء زمزم، وغير ذلك.

ثم قال، رجوعاً إلى القصة قالوا: ومرت رفقة من جُرهم يريدون الشام، فرأوا طيراً يحوم على جبل أبي قبيس.

فقالوا: إن هذا الطير يحوم على ماء، فتبعوه فأشرفوا على بئر زمزم.

فقالوا لهاجر: إن شئت نزلنا معك وأنسناك والماء مائتك، نشرب منه؟

فأذنت لهم، فنزلوا معها، وهم أول سكان مكة.

وقال بعد ذلك: قال الأزرقى: ثم ولد لإسماعيل من زوجته بنت مضاض بن

ص: ٣٠

عمرو الجرهمي اثنا عشر رجلاً، منهم ثابت بن اسماعيل، وقيدار بن اسماعيل، وكان عمر اسماعيل مائة وثلاثين عاماً، ومات ودفن في الحجر مع امه، فولى البيت بعده ثابت بن اسماعيل، ونشر الله العرب من ثابت وقيدار، فكثروا ونموا، ثم توفى ثابت، ثم ولى البيت بعده جدّه لأمّه مضاض بن عمرو الجرهمي، وضّمّ بنى ثابت بن اسماعيل وصار ملكاً عليهم وعلى جرهم، فنزلوا بقعيقعان بأعلى مكة، وكانوا اصحاب سلاح كثير، وتقعقع فيهم، وصارت العمالقة- وكانوا نازلين باسفل مكة- الى رجل منهم ولّوه ملكاً عليهم، يقال له السّميدع، ونزلوا بأجباد وكانوا اصحاب خيل وغيره، وكان الأمر بمكة لمضاض بن عمرو، ورث السّميدع إلى أن حدث بينهم البغي، واقتتلوا فقتل السّميدع، وتم الأمر لمضاض بن عمرو.

قال: قال: ثم نشر الله بنى اسماعيل وخنولتهم وجرهم، وكانت جرهم ولاة البيت لا ينازعهم بنو اسماعيل لقرابتهم، فلما ضاقت مكة انتشروا فى الأرض، فلا يأتون قوماً ولا ينزلون بلداً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم، وهو يومئذ دين ابراهيم، حتى ملأوا البلاد، ونفوا عنها العماليق، وكانت ولاة مكة، وكانوا ضيعوا حرمها، واستحلوها، واستخفوا بها، فاخرجهم الله من أرض الحرم.

ثم إن جرهماً استخفت بأمر البيت والحرم، فاعتزلهم مضاض بن عمرو وخرج بينى اسماعيل من مكة بجانب خزاعة، فاخرجت خزاعة جرهماً من البلاد، ووليت امر مكة، وصاروا اهلها، فسألهم بنو اسماعيل السكنى معهم فأذنوا لهم، وسألهم فى ذلك مضاض بن عمرو فأبت عليه خزاعة حجة بيت الله، وولاة أمر مكة، وفيهم بنو اسماعيل لا يشاركونهم فى شىء ولا يطلبونه، الى أن كبر شأن قصى بن كلاب بن مرّة، واستولى على حجابة البيت وأمر مكة. (١) وقد نقلنا هذا الفصل من القطبى، من ابتداء قصة جرهم باختصار لا يخلُ بشىء مما نحن بصدده.

ص: ٣١

وقصى تصغيراً اسمه زيد، وإنما لقب قصياً لأنه ابعده عن أهله ووطنه مع أمه، لما توفي أبوه كلاب، وتزوجت أمه بريعة بن حزام، ورحل بها إلى الشام، فلما كبر وقع بينه وبين آل ربيعة شرٌّ فعيزوه بالعربة، فرجع إلى قومه بمكة وعليها خزاعة، وكبيرهم خليل بن خبيسة الخزاعي وهذه [هذا] البيت الشريف، فتزوج ابنته، وهلك وصار مفتاح البيت لأبي غيشان، وكان سكران فأعوز الخمر، فباع مفتاح البيت بزق من خمر! فاشتراه منه قصى، وفي الأمثال «أخسرُ صفقةً من أبي غيشان» اختصر.

الخامس والسادس: بناء العمالقة وجرهم:

ذكر الأزرقى ذلك، وذكر بسنده إلى سيدنا أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام أنه قال في خبر بناء جرهم للكعبة: ثم انهدم فبنته العمالقة، فبنته قبيلة من جرهم. (١) روى الفاكهي بسنده إلى سيدنا على بن أبي طالب عليه السلام، وروى السيد التقى الفاسى قال السنجارى وذكر الفاكهي ما يقتضى أن بناء جرهم قبل العمالقة، وفي هذا نظر، فإن العمالقة قبل جرهم ولم يل إليها بعد جرهم إلخزاعه، (٢) انتهى.

قلت: هذا يقتضى أن جرهما بنت البيت الشريف قبل العمالقة، والخبر الأول يقتضى أن العمالقة بنته قبل جرهم، وبه جزم المحب الطبرى.

وروى المسعودى فى «مروج الذهب»:

«إن الذى بنى الكعبة من جرهم، هو الحارث بن مضااض الأصغر، وأنه زاد فى بناء البيت، وردمه كما كان على بناء ابراهيم عليه السلام، والله اعلم بحقيقته الحال». (٣) وروى الأزرقى شيئاً من خبر العمالقة يقتضى سبقهم على جرهم فانه روى بسنده إلى سيدنا عبدالله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «كان عليه حى يقال لهم العماليق، كانوا فى عز وثروة، وكانت لهم خيل وإبل وماشيه ترعى حول مكة، وكانت العضاء ملتفة، والأرض مبتلة، وكانوا فى عيش رخى، فبغوا فى الأرض،

١-١ أخبار مكة ١: ٦٢-٦١.

٢-٢ شفاء الغرام ١: الباب السابع.

٣-٣ مروج الذهب ٢: ٢٣-٢٢، أخبار مكة ١: ٨٢.

ص: ٣٢

وأسرفوا على انفسهم، وأظهروا المظالم والإلحاد، وتركوا شكر الله، فسلبوا نعمتهم، وكانوا يكرون بمكة الظل، ويبيعون الماء، فاخرجهم الله من مكة وسلط عليهم النمل حتى خرجوا من الحرم، ثم ساقهم بالجدب حتى الحقهم الله بمساقط رؤوس آبائهم ببلاد اليمن، ففرقوا وهلكوا، وأبدل الله بعدهم بجرهم، فكانوا سكانه إلى أن بغوا فيه ايضاً، فاهلكوا جميعاً» (١) انتهى.

السابع: بناء قصي

ذكر الزبير بن بكار (قاضي مكة) في كتاب «النسب»: «أن قصي بن كلاب لما ولي امر البيت، جمع نفقته ثم هدم الكعبة، فبناها بنياناً لم يبنه ممن بناها قبله مكة» ذكر أبو عبدالله محمد بن عابد الدمشقي في «مغازيه»:

«أن قصي بن كلاب بنى البيت الشريف» (٢) وجزم به الإمام الماوردي في «الأحكام السلطانية» فانه قال فيها:

«أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد ابراهيم عليه السلام، قصي بن كلاب، وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل» (٣) انتهى.

قال السيد التقى الفاسي في «شفاء الغرام»، ورواه القاضي الزبير بن بكار.

«أن قصياً بنى الكعبة على خمس وعشرين ذراعاً». (٤) ففيه نظر لما اشتهر في الأحكام أن ابراهيم الخليل عليه السلام بنى طول الكعبة تسعة اذرع، وأن قريشاً لما بنت الكعبة زادت في طولها تسعة اذرع، وأن قصياً أراد أن يجعل عرضها خمسة وعشرون [عشرين] ذراعاً، فالمعروف أن عرضها من الجهة الشرقية والغربية لا ينقص عن ثلاثين ذراعاً في بناء الخليل عليه السلام، بل يزيد (على خلاف في مقدار الزيادة) وإن أراد عرضها من الشامية واليمانية، فعرضها في هاتين الجهتين ينقص عن خمسة وعشرون [ين] ذراعاً، ثلاثة اذرع أو ازيد، وكل من بنى الكعبة بعد ابراهيم عليه السلام لم يبنها إلا على قواعد ابراهيم عليه السلام، غير أن قريشاً اقتصرت من عرضها في جهة الحجر الشريف لأمر اقتضاه الحال، وكان ما فعله الحجاج بعد

١- ١ أخبار مكة ١: ٨٩.

٢- ٢ شفاء الغرام ١: ٩٢ الباب السابع.

٣- ٣ شفاء الغرام ١: ٩٢، الباب السابع.

٤- ٤ شفاء الغرام ١: ٩٢ الباب السابع.

ص: ٣٣

ابن الزبير عناداً له، والله تعالى أعلم.

الثامن: بناء قريش:

قال خاتمة الحُفَاط والمحدّثين مولانا الشيخ محمد الصالحى فى كتابه «سبيل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد»، وهو أحسن كتابٍ للمتأخرين، وأبسطة فى السيرة النبوية ولنا به إجازة عامة.

«إنّ امرأة جمّرت الكعبة بالبخور، فطارت شرارة من مجمرها فى ثياب الكعبة، فاحترق أكثر أخشابها، ودخلها سيل عظيم فصدّع جدرانها بعد توهينها، فأرادوا أن يشدّوا بنيانها، ويرفعوا بابها حتّى لا يدخلها إلّاقريش، وهم فى ذلك إذ رمى البحر بسفينه إلى ساحل جدّه لتاجر رومى اسمه بأقوم (بموحدة وقاف مضمومة)، وكان نجاراً بناءً، فخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش إلى جدّه فابتاعوا خشب السفينه، وكلموا بأقوم الرّومى أن يتقدم معهم إلى مكّه، فقدموا إليها، واخذوا أخشاب السفينه أعدوها لسقف الكعبة». (١) قال الاسنوى: «كانت هذه السفينه لقيصر ملك الروم يحمل فيها الرخام والخشب والحديد مع بأقوم إلى البقعة التى احرقها الذين بالحبشه، فلما بلغت قريش من مرسى جدّه بعث الله عليها ريحاً فحطّمها» انتهى.

قلت: لا يعرف طريق بين بحر الروم والحبشه يحرفها إلى جدّه، إلّان يكون ملك الروم طلب ذلك من ملك مصر، فجهّزها له من بندر السويس أو الطور أو نحو ذلك.

قال ابن اسحاق: «وكان بمكّه قبلى يعرف نجر الخشب وتسويته، فوائقهم على ان يعمل لهم سقف الكعبة، ويساعده بأقوم. وقال: وكانت حثية عظيمة تخرج من بئر الكعبة تُشرف على جدار الكعبة، لا يدنو منها أحد إلّالكشت وفتحت فاهها، وكانوا يهابونها ويزعمون أنّها لحفظ الكعبة وهداياها، وأنّ رأسها كراس الجدى، وظهرها وبطنها أسود، وأنّها أقامت فيها

ص: ٣٤

خمسمائة سنة!

قال ابن عتبة: فبعث الله طائراً فاختطفها وذهب بها.

فقلت قريش: نرجو أن يكون الله تعالى رضى لنا بما أردنا فعله، فاجمع رأيهم على هدمها وبنائها.

قال هشام: فتقدم عائذ بن عمران بن مخزوم (وهو خال أبي النبي صلى الله عليه وآله) فتناول حجراً من الكعبة فوثب من يده حتى رجع إلى مكانه.

فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنائها إلا حلالاً طيباً، ليس فيه مهر بغى، ولا رباً، ولا مظلمة. (١) ثم إن قريشاً اقتسموا جوانب البيت فكان شق الباب لبني زهرة وبني عبدمناف، وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم، ومن انضم إليهم من قريش، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وبني سهم، وكان شق الحجر لبني عبدالدار وبني اسد بن عبدالعزيز وبني عدى بن كعب، وجمعوا الحجارة، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله ينقل معهم، حتى إذا انتهى الهدم إلى الأساس، فأفضوا إلى حجارة خضر كالأسمنه، فضربوا عليها بالمعول، فخرج برق كاد أن يخطف البصر، فانتهوا عند ذلك الأساس، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصم فيه القبائل، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه، وكادوا أن يقتتلوا.

فقال لهم أبو أمية، بن المغيرة، بن عبدالله، بن عمرو، بن مخزوم (وكان شريفاً مطاعاً): اجعلوا الحكم بينكم فيما اختلفتم اول من يدخل من باب الصفا.

فقبلوا منه ذلك، وكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما رأوه قالوا: هذا محمّد الأمين، وكان يسمى قبل أن يوحى إليه أميناً لأمانته وصدقه.

فقال صلى الله عليه وآله: هلم الي ثوباً.

فاتى به، فأخذ الركن فوضعه بيده فيه.

ثم قال: ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من هذا الثوب.

١-١ سيرة ابن اسحاق: ١٠٤، سيرة ابن هشام ١: ٢٠٥، اخبار مكة ١: ١٦١.

ص: ٣٥

فحملوه جميعاً وأتوا به، ورفعوه إلى ما يُحاذى موضعه، فتناوله رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله من الثوب ووضع بيده الشريفه في محله.

(١) وفي ذلك يقول هبيرة بن أبى وهب المخزومي في شعر:

تشاجرت الأحياء في فصل خطه جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد

تلاقوا بها بالبغض بعد مودة وأوقد ناراً بينهم شرّ موقد

فلما رأينا الأمر قد جدّ جدّه ولم يبق شيء غير سل المهند

رضينا وقلنا العدل اول طالع يجيء من البطحاء من غير موعد

ففاجأنا هذا الأمين محمد فقلنا رضينا بالأمين محمد

بخير قريش كلّها أسّ شيمه وفي اليوم مهما يحدث الله في غد

فجاء بامر لم ير الناس مثله اعم وارضى في العواقب والبدء

اخذنا باطراف الردا وكلنا له حصه من رفعها قبضه اليد

فقال ارفعوا حتى إذا ما علت به اكفهم وافى به خير سيد

وكل رضينا فعله وصنيعه اكرم به من رأى هادٍ ومهتدى

وتلك يد منه علينا عظيمه نروح بها هذا الزمان ونعتدى ولما بنت قريش الكعبه علت ارتفاعها من خارجها ثمانية عشر ذراعاً، منها

تسعه اذرع زائده على ما عمره الخليل عليه السلام ونقصوا من عرضها أذرعاً من جهة الحجر لقصر النفقه الحلال التي أعدوها لعمارة

الكعبه، ورفعوا بابها من الأرض ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، وجعلوا في داخلها ست دعائم فيصّفين، ثلاث من كلصّف من

شقّ الحجر إلى الشقّ اليماني، وجعلوا في ركنها الشامي من داخلها درجة يصعد منها إلى سطح الكعبه. (٢) قال ابن ظهير: «إنّ قريشاً

رفعت الكعبه ثمانية عشر ذراعاً، وقيل عشرين».

قال: «وفي رواية أنّ طول الكعبه كان سبعة وعشرين ذراعاً، فاقتصرت

١-١ سيرة ابن اسحاق: ١٠٨-١٠٧، سيرة ابن هشام: ٢٠٦، اخبار مكة: ١: ١٦٤.

٢-٢ أخبار مكة: ١: ١٦٤.

ص: ٣٦

قريش منها على ثمانية عشر ذراعاً، ونقصوا من عرضها أذرعاً أدخلوها في الحجر». أخرجها الأزرقى في تاريخه قال: «وهو مناقض لما ذكره في بناء ابن الزبير أنه زاد على قريش بتسعة أذرع، كما زادت قريش على بناء الخليل بتسع، وهذا هو المشهور في التواريخ».

قال: ولم يصح ان احداً بناها بعد الخليل، ولو صح فلم يصح أنه جعل طولها سبعة وعشرين ذراعاً، وما تقدم من بناء العمالق وجرهم وقصى بعد الخليل فإنما هو مجرد خبر، وهو إنصح فلم يذكر الأزرقى ولا غيره قدر ارتفاع بنائهم. نعم، نقل الفاسى عن الزبير بن بكار أن قصياً بنى الكعبة بناءً محكماً على خمس وعشرين ذراعاً، وهو مع مخالفته لما ذكره المشهور في بنائها، لا يصح به هذه الرواية المتضمنة لبنائها على سبعة وعشرين ذراعاً، فما ذكره الأزرقى مجرد رواية لا تعضد بشيء، فلا تعويل عليها نقل باختصار.

تنبيه: اختلف في سن رسول الله صلى الله عليه وآله حين بنت قريش الكعبة.

فقيل: كان ابن خمس وثلاثين سنة، وهو أشهر الأقوال.

وروى مجاهد: أن ذلك قبل المبعث خمسة عشر عاماً.

والذى جزم به ابن اسحاق أنه كان قبل المبعث بخمس سنين، الله اعلم. (١) قال ابن ظهيرة: اختلف في سنه صلى الله عليه وآله إذ ذاك، فقيل إنه خمس وثلاثون سنة، وهو الأظهر، وقيل خمس وعشرون وهو مشهور».

وعن الفاكهي «قد ناهز الحلم».

وفي تاريخ الأزرقى ما يؤيده، (٢) وهو بعيد جداً.

التاسع: بناء عبد الله بن الزبير في زمن الإسلام.

وسياتى في تفصيل ذكره وما وقع له في الباب الثالث.

العاشر: بناء الحجاج بن يوسف الثقفى بعد بناء عبد الله بن الزبير.

وسياتى بيانه عقب ذكرنا بناء ابن الزبير، وبناء الحجاج، وهو جهة الميزاب

١- ١ شفاء الغرام ١: ٩٥.

٢- ٢ أخبار مكة ١: ١٦٤.

ص: ٣٧

والحجر (بسكون الجيم) وتعليه جوف الكعبة، ورفع الباب الشريف في لصق الملتزم، وسد الباب الغربى، الذى يلصق المستجار لا غير، وما عدا ذلك فى الجهات الثلاث، وهو وجه الكعبة الشريفه، وجهه ظهرها، وما بين الركن اليمانى والحجر، فهو بناء عبد الله بن الزبير باق إلى الآن كما سنذكره فى زياده ابن الزبير فى المسجد الحرام، وهدم الكعبة وبنائها على قواعد ابراهيم عليه السلام. انتهى.

ثم إن القطب ذكر فى الباب الموعود به: «أن عبد الله بن الزبير كان ممن امتنع من بيعه يزيد بن معاوية وفر إلى مكه، وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وأن يزيد أرسل عليه عسكرياً جهزه، وعليهم حصين بن نمير فالتجأ ابن الزبير إلى المسجد الحرام، فنصب عليه الحصين المجانيق وأصاب بعض حجارته الكعبة الشريفه، فانهدم بعض جدرانها، ثم احترق بعض اخشابها وكسوتها، وانهزم الحصين بعسكره لهلاك يزيد وبلوغه خبر نعيه، فرأى عبد الله بن الزبير ان يهدم الكعبة ويحكم بناءها وبنيتها على قواعد ابراهيم عليه السلام، لما سمع من حديث عائشه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لها: «يا عائشه لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة وألصقتها بالأرض، وجعلت لها باباً شرقاً وباباً غرباً، وزدت فيها ستة اذرع من الحجر، فإن قريشاً استقصرتها حين بنت الكعبة، فإن بدا لقومك بعدى ان يبنوه فهلمى لأريك ما تركوه، فأراها قريباً من سبعة اذرع».

أخرجه البخارى ومسلم فيصحيحهما، وهو رواية عن مسلم، عن عطاء. (١) قال: قال ابن الزبير: إني سمعت عائشه تقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لولا أن قومك حديث عهد بكفر، وليس عندى ما يقوى على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة اذرع» انتهى.

فاستشار عبد الله بن الزبير من بقى من الصحابه، فكان فيهم من أبى، ومنهم من وافقه، فصمم على ذلك، وأقدم عليه وهدم الكعبة.

ص: ٣٨

قال الإمام عبدالله بن أسعد اليافعي في تاريخه «مرأت [مرأة] الجنان»:

إن ابن الزبير لما اكمل هدم الكعبة، كشف عن أساس ابراهيم عليه السلام، فوجد الحجر داخل البيت، فبنى البيت على ذلك الأساس، وأدخل الحجر في البيت، وألصق باب الكعبة الأرض ليدخل الناس منه، وفتح له باباً غرباً في مقابلة هذا الباب ليخرج الناس منه، كما كان عليه لما جددت قريش الكعبة قبل بعثته صلى الله عليه وآله، وحضره النبي صلى الله عليه وآله وعمره الشريف يومئذ خمس وعشرون سنة، وكانت النفقة قصرت بقريش لما بنوا الكعبة يومئذ، فأخرجوا الحجر من البيت، وجعلوا عليه حائطاً قصيراً علامة على أنه من الكعبة، فأعادها ابن الزبير كما كانت زمن الجاهلية، وبنى على قواعد ابراهيم عليه السلام، فكان طول الكعبة قبل قريش تسعة أذرع، فزادت قريش عليه تسعة أذرع، فلما بناها ابن الزبير كان طولها ثمانية عشر ذراعاً، فرآها عريضة لا طول لها، فزاد في طولها تسعة أذرع، فكان لها في السماء سبعة وعشرين [عشرون] ذراعاً، فلما فرغ من بنائها طيها بالمسك والعنبر، وكساها بالديباج، وبقيت من الحجارة بقية فرشها حول البيت نحواً من عشرة أذرع، وكان فراغه من عمارة البيت الشريف سبع عشر شهر رجب سنة ٦٤ من الهجرة» (١)

انتهى.

ثم إن عبد الملك بن مروان ولي الخلافة جهز جيشاً كثيفاً على ابن الزبير، وأمر عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي فحاصره ورمى عليه بالمنجنيق، وخذل ابن الزبير أصحابه فخرج وحده وقاتل قتالاً شديداً إلى أن قتل سنة ٧٣ من الهجرة. وفي سنة ٧٤ من الهجرة كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يذكر له أن عبدالله بن الزبير زاد في الكعبة ما ليس فيها، وحدث باباً آخر، فكتب إليه عبد الملك بن مروان، أعدها على ما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، فهدم الحجاج من جانبها الشامي قدر ستة أذرع وشبراً وبنى الجدار على أساس قريش، ولبس أرضها بالحجارة التي فضلت، ورفع الباب الشرقي وسد الباب الغربي وترك

ص: ٣٩

سائرها لم يُعغير منها شيئاً.

ثم إنَّ عبد الملك لما حجَّ ذلك العام وسمع حديث عائشة من الحارث بن عبد الله المخزومي ندم على ذلك، فجعل ينكث بقضيبه في الأرض ساعةً طويلةً منكساً، وقال: وددتُ والله أني تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك، كذا ذكره النجم عمر بن فهد. (١) انتهى ما أردنا نقله من تاريخ القطب في هذا الموضوع، وفي النقل اختصار، ومخالفة في بعض المواضع لترتب النقل في الأصل على وجه لم يتغير به شيء من المعنى.

وقال الشيخ جمال الدين، محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبي بكر بن علي بن ظهيرة القرشي المخزومي في تاريخه الذي سماه ب «الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها والبيت الشريف» وقد انتهى تاريخه بعام خمسين وتسعمائة، قال في الباب الثالث من تاريخه فيما يتعلق ببناء الكعبة الشريفة: «اعلم أن الكعبة - زادها الله شرفاً - بُنيت مرات، قال في «منهاج المتأين» بنيت خمس مرات: بناء الملائكة وقيل آدم عليه السلام، بناء الخليل عليه السلام، بناء قريش، بناء عبد الله بن الزبير، بناء الحجاج. وقد قيل: إنها بُنيت مرتين آخرتين [آخرين]، بناء العمالقة بعد ابراهيم عليه السلام، ثم بنته قريش والله اعلم» انتهى. ثم نقل عن الفاسي بناءها عشر مرات، كما مر حكايته عن القطب.

ثم قال: «وفي منسك الجَدِّ أنها بُنيت خمس مرات، بناء الملائكة، بناء آدم عليه السلام، بناء ابراهيم عليه السلام، بناء قريش، بناء ابن الزبير، ثم هدم الحجاج بعضه وبناه.

قال: وفي «الروض الانف» للسهيلى: «إنَّ أول من بنى الكعبة شيث بن آدم عليه السلام، وذكر في موضع آخر أنَّ الملائكة هي التي أسست الكعبة».

وذكر القاضي تقي الدين أيضاً أنه وجد بخط عبد الله المرجاني: أنَّ عبد المطلب جدَّ النبي صلى الله عليه وآله بنى الكعبة بعد قصى بن كلاب، وقبل بناء قريش.

ص: ٤٠

ثم قال: ولا أعلم له سلفاً ولا خلفاً، والله أعلم.

ثم حكى عن الفاكهي روايته عن علي عليه السلام أن أول من بنى الكعبة الخليل عليه السلام، وأن ابن كثير جزم بذلك في تفسيره قال: وقال (أى ابن كثير في تاريخه) عند قوله تعالى: إن أول بيت وضع للناس أنه تعالى يذكر عن خليله انه بنى البيت العتيق الذى هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه، ويؤاه مكانه، أى أرشده إليه، ودلّه عليه.

ثم قال ابن كثير: ومن تمسك في هذا بقوله تعالى: «مكان البيت» فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه الكائن في علم الله المعظم عند الأنبياء موضعه من لدى آدم إلى زمن ابراهيم عليه السلام، وقد ذكر أن آدم نصب عليه قبة، وأن الملائكة قالوا له: قد طفنا قبلك بهذا البيت، وأن السفينة طافت به اربعين يوماً أو نحو ذلك، وكل هذه اخبار عن بنى اسرائيل وهى لا تصدق ولا تكذب» انتهى.

قال ابن ظهيرة: أقول: فعلى هذا يكون بناء البيت ثلاث مرات:

الأول: بناء الخليل عليه السلام.

الثانى: بناء قريش.

الثالث: بناء ابن الزبير والحجاج.

لأن بناء الخليل ثابت بنص الكتاب، وبناء قريش ثابت فيصحيح البخارى وغيره، وبناء ابن الزبير والحجاج ذكره عامة المفسرين وأهل التواريخ وغيرهم من العلماء.

ويحتمل أن يقال إنها بنيت أربع مرات:

[الأول:] بناء الملائكة وادم عليه السلام معاً فى آن واحد.

ويشهد له ما حكى عن ابن عباس فى سبب بناء آدم، وهو مجرد تأسيس.

الثانى والثالث: بناء الخليل عليه السلام وبناء قريش.

الرابع: بناء ابن الزبير والحجاج.

ص: ٤١

فيكون البناء الأول والرابع مشتركاً.

ثم على القول بأن بناء الملائكة وبناء آدم في وقتين فهو تأسيس أيضاً، كما ذكره الفاسي في «شفاء الغرام» لا بناء مرتفع كغيره من الأبنية، لأنه حينئذٍ يحتاج إلى معرفة السبب في نقض الملائكة بناء آدم، أو نقض آدم بناء الملائكة، ولم أرَ أحداً ذكر ذلك فيما وقفت عليه، ولا تعرّض لمقدار ارتفاع بناء الملائكة و آدم في السماء، فيحتمل ألا يكون هناك ارتفاع، أو يكون وهدم بتتابع القرون، فبني ثانياً على ما وجد من الأساس.

قال: «وأما سبب بناء ابن الزبير، فهو أنّ الحصين بن نُمير لما قدم مكة، ومعه الجيش من قبل يزيد بن معاوية لقتال ابن الزبير، جمع ابن الزبير أصحابه، فتحصّن بهم في المسجد الحرام حول الكعبة، ونصب خياماً يستظلون فيها من الشمس، وكان الحصين قد نصب المنجنيق على أخشبي مكة، وهما أبو قبيس والآخر الذي يقابله، وصار يرمى به على ابن الزبير وأصحابه، فتصيب الأحجار الكعبة، فوهنت لذلك، وتخرقت كسوتها عليها، وصارت كأنها جيوب النساء.

ثم إن رجلاً من أصحاب ابن الزبير أوقد ناراً في بعض تلك الخيام مما يلي الصفا، بين الركن الأسود واليماني، والمسجد يومئذ صغير، وكانت في ذلك اليوم رياح شديدة، والكعبة إذ ذاك مبيتة بناء قريش مدماك من ساج، ومدماك من حجارة، فطارت الريح بشراة من تلك النار فتعلقت بكسوة الكعبة، فاحترقت واحترق الساج الذي بين البناء، فزاد تصدع البيت، وضعف جدرانه، وتصدع الحجر الأسود أيضاً، حتى ربطه ابن الزبير بعد ذلك بالفضة، ففزع لذلك أهل مكة وأهل الشام الحصين وجماعته.

وعن الفاكهي: أن سبب حريق البيت، إنما كان من بعض أهل الشام أحرق على باب بنى جَمَح، وهو باب الصفا، وفي المسجد يومئذ خيام، فمشى الحريق حتى أخذ في البيت فظن الفريقان أنهم هالكون.

ص: ٤٢

قال الجد: قلت: وهذا يخالف ما ذكر أن السبب في ذلك بعض اصحاب ابن الزبير، ولعل ما ذكره الفاكهي أصوب، على أنه يمكن الجمع بوقوع كل من ذلك فيكون السبب مركباً انتهى.

ثم جاء نعي يزيد بعد ذلك بتسعة وعشرين يوماً، والحصين مستمر على حصار ابن الزبير، فارسل ابن الزبير إلى الحصين جماعة من قريش، فكلموه وعظموه عليه ما أصاب الكعبة.

وقالوا له: إن هذا من رميكم لها. فانكر ذلك ثم ولّى راجعاً إلى الشام. فدعا ابن الزبير حينئذ وجوه الناس، واستشارهم في هدم الكعبة، فأشار عليه القليل من الناس بذلك، وأبى الكثير، وكان أشدهم عبدالله بن عباس.

وقال: دعها على ما أقرها رسول الله صلى الله عليه وآله فأني أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم وتبني فيتهاون الناس بحرمتها، ولكن ارقعها.

فقال ابن الزبير ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه، فكيف أرقع بيت الله؟!!

واستقر رأيه على هدمها رجاء أن يكون هو الذي يردها على قواعد الخليل عليه السلام لقوله صلى الله عليه وآله لعائشة «لولا قومك حديثو عهد بكفر وفي رواية» حديث عهد بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بايين». (١) ثم إن ابن الزبير أمر بهدم الكعبة، وكان ذلك سنة أربع وستين من الهجرة، يوم السبت النصف من جمادى الآخرة، أخرجه الأزرقي.

وقيل: سنة خمس وستين، فلم يجتر أحد على ذلك، وخرج عبدالله بن عباس إلى الطائف، فلما رأى ذلك ابن الزبير علاها بنفسه وأخذ المعول وجعل يهدمها، فلما رأى أنه لم يصبه شيء صعداوا معه، وهدموا وأرقى ابن الزبير عبداً من الحبش يهدمونها رجاء أن يكون فيهم صفة الحبشي الذي قال فيه صلى الله عليه وآله: «يُخزَّبُ الكعبة ذو السويقتين من الحبشة». (٢)

١- ١ كنز العمال ١٢: ٢٢٢.

٢- ٢ كنز العمال ١٤: ٢٢١.

ص: ٤٣

الهوامش:

معالم الحج وآفاهه فى مدرسة اهل البيت عليهم السلام

ص: ٤٦

معالم الحج وآفاقه في مدرسة أهل البيت عليهم السلام
منذر الحكيم

تحظى فريضة الحج باهتمام المسلمين جميعاً وتعدّ من الشعائر والعبادات التي يتفق على وجوب أدائها جميع المذاهب الإسلامية، كما تعبّر هذه الفريضة عن وحدة الأمة الإسلامية واستقلال كيانها. وهي بعد ذلك كلّ: رمز قوتها وعظمتها قدرتها واستمرار حيويّتها. ولم تستطع أيدي العابثين أن تعطل هذه العبادة العظيمة بالرغم من سعيهم الحثيث لإفراغها من مضمونها ومحتواها الكبير. ويعود ذلك كلّ لأسباب منها:

الدور الفاعل لأهل بيت الوحي عليهم السلام بما فيهم سيّد المرسلين، وأئمّة المسلمين من أبناء الرسول العظيم، الذين تابَعوا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في خطاه الحكيمه والقرآن العظيم في توجيهاته السديده، فسلكوا سبيل الهدى بكلّ ما اوتوا من حَوْلٍ وقوّة وحكمه حتى بينوا معالم وتفاصيل هذه العبادة المهمّة بشعائره المتنوّعه، وأرسوا دعائمها تشريعاً وتشويقاً، وحثّوا على أدائها كلّ من يرتبط بهم من قريب أو بعيد،

ص: ٤٧

وجسدوا كل ما قالوا في سلوكهم الحي، ولم يكتفوا ببيان تاريخها العريق من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وفضائلها وآثارها الدنيوية المادية وأجرها الأخروي، وإنما عكفوا على بيان فلسفتها شعيرة شعيرة، وعملاً عملاً، ونفذوا إلى أعماقها؛ ليصوّروا عرفانها بالعمل قبل البيان، وبالجان قبل اللسان.

لقد تميّزت مدرسة أهل البيت في نظرتها إلى الحجّ وشعائره بمميّزات أعطت الحجّ مضموناً خاصاً، وشكلاً متميّزاً يُشار من خلاله إلى أتباعها بالبنان، وهو يشير لدى المسلمين عامةً أسئلة شتى عن مدى البُعد المعنوي والسياسي المتميّز لحجّهم عمّن سواهم، اقتداءً بأئمة أهل البيت المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويمكن تلخيص هذه المميّزات في عدّة نقاط:

الأولى: شدّة الاهتمام المتمثّل بالقول والعمل معاً.

الثانية: الاهتمام المتميّز بالشكل والمضمون معاً.

الثالثة: عدم إغفال البُعد السياسي والجهادي إلى جانب البُعد العبادي.

الرابعة: تعميق البُعد العبادي والعرفاني بشكل ملفت للنظر.

الخامسة: عدم تجاوز نصوص ومقاصد الكتاب والسنة بالرغم من كثرة التفرّيع والتفصيل.

إنّ أهل بيت الرسول الأمين صلى الله عليه وآله وعترته المعصومين - الذين قرّنها الرسول صلى الله عليه وآله بمحكم التنزيل واعتبرهم عدلاً للقرآن العظيم في حديث الثقلين الشهير وحديث السفينة وحديث النجوم وغيرها ممّا ورد في تفسير آيات الذكر الحكيم التي تشير إلى أنهم أهل الذكر وولاية الأمر والحافظون لحدود الله - هم الرّواد الصادقون الامناء على شريعة جدّهم ورسالته حيث عصمهم الله من الزلل وآمنهم من الفتن، والمطهّرون الذين يتسنّى لهم تفسير الكتاب كما ينبغي، واقتفاء أثره

ص: ٤٨

اقتفاءً يجعلهم الاسوة الحسنة بعد رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله والقُدوة المثلَى التي لا يطمع في إدراكها طامع. ومن هنا كان من الطبيعي جداً أن يكون منهجهم في إرساء دعائم هذه الفريضة العظيمة وتعظيم شعائر الله هو منهج القرآن المجيد، وخطاهم إلى تثبيت قواعدها تبع لخطاه.

والقرآن المجيد قد كُفِّ الإضاءة على بيت الله الحرام ومشاعر الحج العظام، تاريخاً وتعظيماً وفلسفةً وأحكاماً وعرفاناً، فجعله مركزاً للتوحيد، وعتيقاً من براثن الشرك، وقياماً للناس، ومباركاً وهدياً للعالمين، وأمناً للناس، ومثابَةً لهم، ومطهراً ومحلاً خاصاً للطائفتين حول محور الوحدانية الحقيقية والعاكفين والركع السجود.. فهو التعبير الصادق عن إسلام الوجه لله والتسليم لإرادته العليا، والمختبر الكامل للإنسان الطائع باتجاه الكمال اللائق به، والبولقة التي تصهر شوائب الروح، وتمحو ما علق بها من أدران خلال مختلف مراحل الحياة.

لقد كانت لسيرتهم الزاخرة بالعباءة العلمية والعملية والعرفانية وكان لسعيهم الحثيث - لإرساء معالم الشريعة وقواعدها المحكمة - الدور الكبير والأثر البالغ في تألق الإسلام والمسلمين بشكل عام وتجليه عظمة الشريعة الإسلامية بشكل خاص، وتركيز شعائر الحج بشكل أخص حتى ورد عنهم عليهم السلام «أن الدين لا يزال قائماً ما قامت الكعبة»، وأن ولاء الأمر مسؤولون عن رعاية هذه الشعائر في كل الظروف التي تمر بها الأمة الإسلامية، وينبغي أن لا يحول بينهم وبين إقامتها أي ضعف مالي، أو أي خلل اقتصادي ينتاب الناس حيث تخصص بعض ميزانية الدولة الإسلامية؛ لإحياء هذه الشعائر على مرّ الدهور والأحوال.

نعم هذه هي مدرسة أهل البيت عليهم السلام وهي تعطي صورة موجزة وملخصة جداً من معالم نظريتهم وثقافتهم الربانية إلى الإسلام ككل،

ص: ٤٩

وإلى هذا الركن الإسلامي العظيم بشكل خاص.
الشعائر الإلهية:

جاء في مختار الصحاح أن (الشعائر): هي كل ما يجعل علماً لطاعة الله تعالى. وهي أعمال الحج أيضاً، والمشاعر هي موضع المناسك. وشعار القوم في الحرب علامتهم ليعرف بعضهم بعضاً، وأسعر الهدى إذا طعن سنامه الأيمن حتى يسيل منه دمٌ ليعلم أنه هدى. ومن هنا فقد عُرف الشِّعار بأنه «ممارسة- كلامية أو غير كلامية- تصبغ شخصية الإنسان الممارس، وتطبعها بطابع خاص يميزها عما سواها» (١).

فالشعائر الإلهية هي معالم الطاعة لله تعالى، والتي تتضمن ممارستها أهدافاً حقيقية هي أهداف الشريعة التي تقودها وتدعو إلى ممارستها، كما أنها تعطي للممارسين لها عنواناً يميزهم عن سواهم.

وتتجلى هذه النقاط بوضوح في جملة من آيات الذكر الحكيم، مثل قوله تعالى:

١- ولكل أمة جعلنا منسكاً لذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام (٢).

٢- والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير (٣).

٣- ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه.. (٤).

٤- ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب (٥).

فالتقوى هو الهدف الذي تسعى الشريعة الإسلامية لتحقيقه من خلال العمل بقوانينها، والشعائر الإلهية التي نصت عليها آيات الذكر الحكيم هي شعائر الحج وهي من جملة أركان العبادة الإسلامية، التي ينبغي للمسلمين احترامها وتعظيمها باعتبارها من «حُرُمات الله»، فهي من جملة القوانين التي تحمل طابع العبادة أولًا وتعطي للمسلمين معلماً من معالم شخصيتهم المستقلة ثانياً فهي تحمل بين جوانحها روح التسليم لله،

١- ١ السيد محمد باقر الحكيم: الفكر الإسلامي، العدد ١١، ص ١٠ دور الشعائر في النظرية الإسلامية.

٢- ٢ الحج: ٣٤.

٣- ٣ الحج: ٣٦.

٤- ٤ الحج: ٣٠.

٥- ٥ الحج: ٣٢.

ص: ٥٠

والشعور بالعرّة بالله، والشعور بالاستقلال عن سائر الأمم بشتى شرائعها ومذاهبها.

شعائر الحج في القرآن الكريم:

تُضح أهمية الحج وشعائره الإلهية في القرآن الكريم من خلال:

١- المساحة التي استوعبتها آيات الحج في القرآن الكريم.

٢- أسلوب الطرح واسلوب الدعوة إلى إقامتها.

٣- الاهتمام البالغ بفلسفة إقامة هذه الشعائر.

٤- تقنين هذه الشعائر وبيان أحكامها بالتفصيل.

٥- الاهتمام ببيان جذورها التاريخية العريقة.

وإذا لاحظنا منهج أهل البيت عليهم السلام فيما يخص إحياء شعائر الحجّ وقارنناه بالمنهج القرآني وجدناه يحذو حذوه ويتمثل خطاه حذو القذّة بالقذّة.

أما المساحة الملفتة للنظر فهي تتوزّع على السور المكية والمدنية معاً، ولا سيما إذا لاحظنا كلّ ما يرتبط بالحجّ وتاريخه وشؤونه.

فمن السور المكية: سورة إبراهيم [الآيات ٣٥-٣٧]، والنمل [الآية ٩١] والقصاص [الآية ٦٧]، والعنكبوت [الآيات ٢٤ إلى ٢٨] ومطلع سورة البلد ومطلع سورة التين وسورة قريش وسورة الفيل.

ومن السور المدنية: سورة البقرة [الآيات ١٢٥-١٢٩] إلى ١٤٢ و ١٥٢ و ١٥٨ و ١٨٩ و ١٩٦ إلى ٢٠٣. وسورة آل عمران [الآيات

٩٥ إلى ٩٧] وسورة المائدة [الآيات ٢ و ٩٥ إلى ٩٧]، وسورة الأنفال [الآيات ٣٤ إلى ٤٠] وسورة التوبة [الآيات ١ إلى ١٩ و ٢٨] وسورة الحجّ [الآيات ٢٥ إلى ٣٧].

وأما أسلوب العرض فهو أسلوب الحثّ والتحضيض والتأكيد والتعميم، فالخطاب فيه للناس كافة وليس للمؤمنين خاصة، قال تعالى:

١- إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَكَهُ مَبَارَكاً وَهُدًى

ص: ٥١

للعالمين (١).

٢- ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً (٢)

٣- وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً (٣).

٤- جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس (٤)

٥- وأذن في الناس بالحج... (٥).

وهناك أدوات أخرى للعموم استخدمها النص القرآني مثل قوله تعالى:

١- ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه.

٢- ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب.

ويتجلى التأكيد في التكرار المتنوع، واستعمال شتى أساليب التأكيد البلاغي في الآيات المباركة.

ويأتي بيان حرمة البيت وأمنه وحلول البركة فيه، واعتباره محطة اشعاع وهداية للعالمين بما فيه من عدة عوامل إيجابية للحث والتضيض والتشويق لقصده وحجّه وإحياء شعائره.

هذا فضلاً عن النص الدال على الوجوب، والنصوص المتضمنة لبيان فلسفة الحج، وفلسفة إقامة هذه الشعائر حيث إنها تعدّ من أساليب الحث والتشويق أيضاً.

وتتكرر في آيات الحجّ الإشارة والتصريح إلى فلسفة الحج في الإسلام، والحكم التي تحققها ممارسة شعائره ومناسكه. قال تعالى:

١- ولكل أمة جعلنا منسكاً ليدكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام (٦).

٢- والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير... (٧).

٣- لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم (٨)

٤- كذلك سخّرنا لكم لتكبروا الله على ما هداكم (٩).

٥- وأذن في الناس بالحجّ... ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم

١- ١ آل عمران: ٩٦

٢- ٢ آل عمران: ٩٧

٣- ٣ البقرة: ١٢٥

٤- ٤ المائدة: ٩٧

٥- ٥ الحج: ٢٧.

٦- ٦ الحج: ٣٤.

٧- ٧ الحج: ٣٦.

٨-٨ الحج: ٣٧.

٩-٩ الحج: ٣٧.

ص: ٥٢

اللَّهُ.. (١).

٦- ذلك ومن يعظم حُرَمَاتِ اللَّهِ فهو خيرٌ له عند ربِّه (٢).

٧- ومن يعظم شعائر اللَّهِ فإنَّها من تقوى القلوب لكم فيها منافع إلى أجلٍ مسمى (٣).

٨- الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ... وتزوّدوا فإنَّ خير الزاد التقوى... (٤).

إن تكشيف الإضاءة على فلسفة الحج، وحكم ممارسته الشعائر المرتبطة به، هو أسلوبٌ متميز في بناء الإنسان وتربيته وصياغة تصوّراته صياغةً تجمع بين طيبتها روح التعبد والتعقل معاً من دون أن يسلب التعقل روح التعبد من الإنسان العاقل، وإنما يتسامى بتقواه ليلعب مرتبة أولى الألباب، فيتكامل عقلاً ويتسامى روحاً، وهو يمارس هذه الشعائر بوعي وجدّ واهتمام.

ويمكن تلخيص هذه الأهداف التي نصّ عليها الكتاب العزيز فيما يلي:

١- ذكر الله وحده في كلّ حال ومجال وعلى كلّ شيء، واجتناب رجس الشرك على كلّ المستويات تصوّراً واعتقاداً وتعلّقاً وسلوكاً.

٢- تنمية روح التقوى التي بها فلاح الانسان وفوزه على أسس التوحيد الخالص.

٣- الانتفاع من موسم الحج وشعائره على شتى الأصعدة: اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً فضلاً عن التكامل الثقافي في مثل هذا الموسم الفريد، والتسامى الروحي والمعنوي في جميع لحظات هذا الموسم.

ويتفرّد القرآن الكريم بأسلوبه الخاصّ لبيان قوانينه وأحكامه بياناً يتناغم مع منطق العقل ومنطق العاطفة، ويجمع بين متطلّبات العقل، متطلّبات الروح معاً.

قال تعالى:

(١) ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإنّ الله غنيٌّ عن العالمين (٥).

(٢) وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً واتخذوا من مقام

١- ١ الحج: ٢٧.

٢- ٢ الحج: ٣٠.

٣- ٣ الحج: ٣٢.

٤- ٤ البقرة: ١٩٧.

٥- ٥ آل عمران: ٩٧.

ص: ٥٣

إبراهيم مصلى (١).

فألله سبحانه - الذي له المولوية المطلقة وله الخلق وحق النعمة على جميع الناس - يجعل أداء هذا الواجب أداءً لحقه، والإعراض عنه كُفْراناً للنعم الإلهية وكُفْراً عملياً بالمنعم، ولا يكون أدائه تلبيةً لهذا الحق لحاجته منه تعالى إلى أعمال عبادته، بل يعود نفعه إلى الناس أنفسهم. ومثل هذا القانون الذي ينطلق تشريعه للناس من مصالح العباد أنفسهم، ولا يكون للمشروع فيه أى غرض أو مصلحة شخصية، لا يجد الانسان الطائع فى أدائه ثقلاً وحرَجاً مهما كانت صعوبته.

ويأتى الاهتمام ببيان الجذور التاريخية العريقة لهذه الشعائر معلماً من معالم المنهج القرآنى؛ لإرساء قواعد هذه الفريضة فى المجتمع الإسلامى.

إن رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لقواعد البيت يشير إلى أن بيت الله الحرام قد سبق وضعه للناس عصر إبراهيم الخليل عليه السلام، والاهتمام ببيان دور إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام فى تشييد دعائم هذا البيت العتيق وأمره بأن يؤذن فى الناس بالحج بعد تشييد دعائمه.

واستمرار الناس فى إقامة شعائره كرمز من رموز الحنيفية..

للدليل على أهمية بيان الجذور التاريخية لهذه الفريضة المباركة، ومدى تأثير ذلك فى إرساء قواعد الحركة التصحيحية والتكاملية، التى خطاها القرآن الكريم باتجاه تعميق هذا التيار فى المجتمع الإسلامى الفتى.

أهل البيت عليهم السلام على خطى القرآن الكريم

لم يتخط أهل البيت عليهم السلام هدى القرآن الكريم فى سيرتهم وسنتهم، التى هى تجسيد وامتداد لسنة الرسول العظيم.

إن ما تضمنته مصادر السيرة والتاريخ فيما يخص تعامل أهل بيت الوحي مع الحج فى مجال العمل والتطبيق، لا يقل روعةً وعظمةً عما تضمنته كتب الحديث من نصوصهم

ص: ٥٤

الكثيرة حول الحج ومعالمه وفلسفته وتاريخه، وشكله ومضمونه وترامى أبعاده وعمق عرفانه، وتجليه الجانب العبادى فيه.

الحجّ في سيرة أهل البيت عليهم السلام ونصوصهم

لقد تميّز الحجّ في سيرة أهل البيت عليهم السلام العمليّة، وتميّزت سيرتهم في مجال الاهتمام بالحجّ حتى ورد أن عبّاداً البصرى لقي الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السلام في طريق مكة فقال له: يا على بن الحسين تركت الجهاد وصُعوبته، وأقبلت على الحجّ ولينه إن الله عزّوجلّ يقول: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله...؟! فقال على بن الحسين عليه السلام: أتمّ الآية. فقال: التائبون العابدون... الآية. فقال على بن الحسين عليه السلام: إذا رأينا هؤلاء الذين هذصفتهم، فالجهاد معهم أفضل من الحجّ (١). أو قال: إذا ظهر هؤلاء لم تؤثر على الجهاد شيئاً (٢).

وقد حجّ الإمام الحسن السبط خمساً وعشرين حجّة ماشياً على قدميه، وكانت النجائب تقاد بين يديه. وسئل عن كثرة حجّه ماشياً فأجاب: إني أستحي من ربّي أن لا أمضى إلى بيته ماشياً على قدمي (٣).

ونقل مثل هذا عن الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام أيضاً (٤).

وأما زين العابدين (على بن الحسين عليه السلام) فقد كان ملازماً للحجّ منذ صغره، وكان يحجّ ماشياً وراكباً، وكان يدعو إلى تكريم الحجّاج إذا قدموا من بيت الله الحرام قائلاً:

استبشروا بالحجّاج إذا قدموا وصافحوهم وعظموهم، تشاركوهم في الأجر قبل أن تخالطهم الذنوب (٥).

وكان إذا أراد السفر إلى بيت الله الحرام احتفّ به القراء والعلماء، حيث إنهم كانوا يكتسبون منه العلم والعرفان والحكم والآداب حتى قال سعيد بن المسيّب: إن القراء كانوا لا يخرجون إلى مكة حتى يخرج على بن

١- ١ وسائل الشيعة ١١: ٣٢٢ الحديث ٣ و ٤.

٢- ٢ المصدر نفسه.

٣- ٣ حياة الإمام الحسن بن على ١: ٣٢٧-٣٢٨.

٤- ٤ حياة الإمام الحسين بن على ١: ١٣٤.

٥- ٥ حياة الإمام زين العابدين عليه السلام ١: ٢٢٦.

ص: ٥٥

الحسين، فخرج وخرجنا معه ألف راكب (١).

وكان يهتم عليه السلام بسنن الحج بشكل كبير، ويُقبل على الله تعالى بكل إخلاص وخشية حتى إنه كان إذا أراد التلبية عند عقد الإحرام اصفر لونه واضطرب، ولم يستطع أن يلبي، فقليل له: مالك لا تُلبي؟ فيجيب وقد أخذته الرعدة والفرع من الله: أخشى أن أقول: ليبيك فيقال لي: لا ليبيك.

وكان إذا لُبي غشى عليه من كثرة خشيته من الله، وسقط من راحلته، ولا تزال تعتريه هذه الحالة حتى يقضى حجه (٢).

وهناك ظاهرتان مهمتان في سيرة أهل البيت عليهم السلام في حجهم:

الاولى: ظاهرة كثرة الدعاء وشدّة الإقبال على الله تعالى بالأدعية الطويلة الزاخرة بالمفاهيم التربوية والمعرفية العالية مثل دعاء الإمام الحسين عليه السلام المعروف بدعاء عرفه، ولعله أطول دعاء من نوعه، وينظره دعاء الإمام زين العابدين في الصحيفة السجادية الخاص بيوم عرفه أيضاً.

قال بشر وبشير الأسديان: كنّا مع الحسين بن علي عليهما السلام عشية عرفه فخرج عليه السلام من فسطاطه متدلاً خاشعاً، فجعل يمشى هوناً هوناً حتى وقف هو وجماعه من أهل بيته وولده ومواليه في ميسرة الجبل مستقبل البيت، ثم رفع يديه تلقاء وجهه كاستطعام المسكين وقال:

«الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع، ولا لعطائه مانع، ولا كصنعه صنعان، وهو الجواد الواسع...

ومما قال بعد أن دعا طويلاً وكانت دموعه قد جرت على سحنات وجهه الشريف:

«اللهم اجعلني أخشاك كأنى أراك، واسعدني بتقواك ولا تشقني بمعصيتك وخر لي في قضائك وبارك لي في قدرك، حتى لا أحبّ تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت، اللهم اجعل غناي في نفسي واليقين في قلبي والاخلاص في عملي...

الثانية: ظاهرة العرفان العميق

١-١ المصدر ١: ٢٢٧.

٢-٢ المصدر ١: ٢٢٨.

ص: ٥٦

لهذه الفريضة، وتجاوز مظاهرها باتجاه باطنها، والغور في أعماقها، فلكل عمل ظاهر وباطن، ولكل شعيرة مظهر وواقع، وبالرغم من أن الاهتمام بمظاهر الحجّ يحقق أهدافاً جُلّي، وقد دعا الأئمة عليهم السلام المسلمين إلى الاهتمام بهذه المظاهر، ولكن الأئمة أنفسهم لم يقفوا عند حدود المظهر، بل كانوا لا- يعتبرون الحجّ حجّاً إلّا إذا نفذ الانسان إلى أعماقه. وهناك نموذج ممّا أثر عن الإمام زين العابدين عليه السلام في هذا الصدد، وذلك في حديثه مع الشبلي بعد أن حجّ والتقى بالإمام عليه السلام (١).
الهوامش:

١-١ راجع العدد الرابع من مجلة ميقات الحج، للاطلاع على تفصيل الحديث.

المدينة المنورة فضلها وقداسه ارضها

ص: ٥٨

المدينة المنورة فضلها وقداستها أرضها

محمد جواد الطبسي

المدينة.. بلدة مقدّسة، وأرض طاهرة،.. أسكنها الله تعالى أعزّ الأنفس وأحبّها إليه رسوله الكريم.. نزلت فيها أكثر آيات القرآن.. هي دار الأبرار ودار الأخيار، هي دار الإيمان ودار الهجرة.. هي مدينة الإسلام وقرية الأنصار.. هي حرم الرسول ومهاجر النبي والآل.. هي مدفن النبي ومهبط الملائكة. فيها الروضة المقدّسة والمسجد النبوي.. وفيها قبا ومراقد أصحاب الكساء.. هي طيبة طابئة وجابرة ومجبورة.. فسلام على هذه التربة العطرة والبلدة الطاهرة، وسلام على من شرفها وزادها قداسة.

وبعد فهذه روايات يسيرة من عشرات الروايات حول فضل المدينة المنورة، رتبناها تحت ثمانية عشر عنواناً.

١- المدينة المنورة أفضل من مكة:

ومما يدل على قداسة هذه البلدة الطاهرة أنها أفضل من مكة المكرمة؛ لما ضمت أعضاء النبي الكريم، الذي هو أعزّ من الكعبة عند الله تعالى.

ص: ٥٩

وقد اختلف الباحثون حول أفضلية المدينة على مكة، فمنهم من فضل المدينة على مكة، ومنهم من قدم مكة على المدينة من حيث الفضل، ولكل أدلة ولا داعي إلى إطالة الكلام في هذا المقال، ونكتفي بذكر ما قاله السمهودي: قد انعقد الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة حتى على الكعبة المنيفة، وأجمعوا بعد على تفضيل مكة والمدينة على سائر البلاد واختلفوا أيهما أفضل، فذهب عمر بن الخطاب وابنه عبدالله ومالك بن أنس وأكثر المدنيين إلى تفضيل المدينة...

وحكاية الإجماع تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة نقله القاضي عياض وكذا القاضي أبو الوليد الباجي قبله، كما قال الخطيب ابن جملة، وكذا نقله أبو اليمن ابن عساكر وغيرهم مع التصريح بالتفضيل على الكعبة الشريفة، بل نقل التاج السبكي عن ابن عقيل الحنبلي أن تلك البقعة أفضل من العرش (١).

وأضاف السخاوي: ولا شك في أن مواضع الأنبياء وأرواحهم أشرف مما سواها من الأرض والسماء، والقبر الشريف أفضلها؛ لما تنزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة التي لا يعلمها إلا مانحها، ولساكنه عند الله من المحبة والاصطفاء ما تقصر العقول عن إدراكه، ويعم الفيض من ذلك على الأمة، سيما من قصده وأمه (٢).

ويكفيك ما رواه معاوية بن خديج عن النبي صلى الله عليه وآله في هذا المجال قال: أشهد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: المدينة خير من مكة (٣).

٢- المدينة المنورة أحب الأرض إلى الله:

ومن فضائل المدينة المنورة أنها أرض أحبها الله عز وجل واختارها لنبيه أن يكون بها سكناه ومضجعه بعد أن كان يحب مكة المكرمة.

كما روى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال حين توجه إلى الهجرة: اللهم إنك قد أخرجتني من أحب أرضك إلي، فأنزلني أحب أرض إليك، فأنزله المدينة، فلما نزلها قال: اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً واسعاً (٤).

١- ١ وفاء الوفاء ١: ٢٨.

٢- ٢ التحفة اللطيفة ١: ٤٢.

٣- ٣ وفاء الوفاء ١: ٣٧.

٤- ٤ معجم البلدان ٥: ٨٣.

ص: ٦٠

٣- المدينة المنورة حرم رسول الله صلى الله عليه وآله:

لله تبارك وتعالى حرم، كما أن لرسول الله صلى الله عليه وآله ولعلي بن أبي طالب ولأهل البيت حرمًا، وحرم الله مكة المكرمة وحرم رسوله المدينة المنورة، وحرم على الكوفة، وحرم العترة الطاهرة قم المقدسة على ما روى عن الصادق عليه السلام حينما دخل عليه من أهل الرى فقال: مرحبًا ياخواننا من أهل قم. فقالوا: نحن من أهل الرى.

فأعاد الكلام. قالوا ذلك مرارًا وأجابهم بمثل ما أجاب به أولًا، فقال: إن لله حرمًا وهو مكة، وإن للرسول صلى الله عليه وآله حرمًا وهو المدينة، وإن لأمير المؤمنين عليه السلام حرمًا وهو الكوفة، وإن لنا حرمًا وهو بلدة قم، وستدفن فيها امرأة من أولادى تسمى فاطمة فمن زارها وجبت له الجنة.. (١).

وللحرم حدود كما أن له حرمة، وعلى الذى يدخل الحدود يجب أن يراعى حرمة، ولكن الفرق بين حرم الله وحرم رسوله هو أن ما قيل من الإحرام واجتناب الصيد وقطع الأشجار وغير ذلك من المحرمات يختص بمكة المكرمة، ولا يجب مراعاة هذه المسائل فى المدينة المنورة، وإن جاء التصريح باجتنب الصيد وقطع الأشجار فيها كما فى الأحاديث المروية عنهم عليهم السلام وكما سنوافيك به إن شاء الله.

حدود حرم الرسول صلى الله عليه وآله:

وأما حدود حرم الرسول صلى الله عليه وآله فقد روى ابن مسكان عن أبى بصير عن أبى عبد الله عليه السلام فى ذلك قال: حد ما حرم رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة من ذباب إلى واقم والعريض والنقب من قبل مكة (٢).

حكم الصيد وقطع الأشجار فى حرم الرسول صلى الله عليه وآله:

لقد سئل أهل البيت عليهم السلام عن حكم الصيد، وقطع الأشجار فى حرم الرسول صلى الله عليه وآله، فمروا أجابوا بأنه لا- يجب المراعاة، كما يجب فى الحرم المكى، واخرى فرقوا بين الصيد وقطع الشجر، وثالثة بعدم الفرق.

١- ٥ سفينة البحار ٢: ٤٤٦.

٢- ٦ بحار الأنوار ٩٦: ٣٧٦.

ص: ٤١

- عن يونس بن يعقوب قال: سألت أبا الحسن موسى. يحرم على في حرم رسول الله ما يحرم في حرم الله عزوجل؟ قال: لا (١).
- وعن الصدوق بسنده عن الحسن بن الصيقل قال: قال أبو عبد الله كنت جالساً عند زياد بن عبيد الله وعنده ربيعة الرأي، فقال له زياد: يا ربيعة ما الذي حرم رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة؟ فقال له: يريد في بريد، فقلت لربيعة: فكانت على عهد رسول الله بريد؟ فسكت ولم يجبني، قال: فأقبل على زياد، فقال: يا أبا عبد الله فما تقول أنت؟
- فقلت: حرم رسول الله من المدينة من الصيد بين لابتيتها، قال: وما لابتيتها؟
- قلت: ما أحاط به الحرار. قال: فقال لي: ما حرم رسول الله من الشجر؟
- قلت: من غير إلى وغيره (٢).
- وعن معاوية بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله يقول: ما بين لابتى المدينة ظل عاير إلى ظل وغير حرم. قلت: طائره كطائر مكة؟ قال: ولا يعضد شجرها (٣).
- ولكن بملاحظة الرواية الأولى الدالة على جواز الصيد وقطع الشجر، خصوصاً بملاحظة عدم وجود فتوى تنص على الحرمة، لا بد من أن تحمل الرواية الثانية والثالثة وما شابهها على الكراهة.
- ٤- حب النبي المدينة المنورة:
- كان النبي صلى الله عليه وآله يحب المدينة حباً شديداً حتى إنه لما كان يقدم من سفر إلى المدينة، وينظر إلى جدرانها كان يحرك دابته من حبها.
- قال العباسي: وروينا من حديث أنس قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله يقدم من سفر، فينظر إلى جدران المدينة إلا وضع دابته من حبها (٤).
- وروى أيضاً عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قدم فنظر إلى جدران المدينة أوضع راحلته، وإن كان على دابة حرّكها من حبها (٥).

١-٧ المصدر نفسه: ٣٧٥.

٢-٨ المصدر نفسه: ٣٧٦.

٣-٩ المصدر نفسه.

٤-١٠ عمدة الأخبار: ٤٤.

٥-١١ المصدر نفسه: ٨٤.

ص: ٤٢

٥- المدينة المنورة مخصوصة بكثرة الأسماء:

وسبقت هذه المدينة المقدسة سائر البلدان بكثرة الأسماء والصفات، فقد ذكر في التوراة أن للمدينة أحد عشر اسماً، فهي المدينة والمحبة والمحبوبة وطيبة وطابة والمسكينة وجابرة والمجورة والعذراء والقاصمة (١).

وعقد العباسي باباً خاصاً يختص بأسماء المدينة المنورة، وقد أنهاها إلى سبعة وخمسين اسماً، ورتبها حسب الحروف الهجائية بادئاً باثرب ومنتهاً بيندد. وقال في آخر الباب: وجدت في بعض التواريخ تعداد أسماء المدينة وهي أربعة وتسعون.

ونقل ابن زباله: أن عبدالعزيز بن محمد الدراوردي قال: بلغني أن للمدينة في التوراة أربعين اسماً (٢).

وأما ما جاء على لسان النبيّ حول أسماء المدينة فهي تسعة، كما رواه زيد بن أسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: للمدينة أسماء هي: المدينة وطيبة وطابة وسكينة وجابرة وتندر ويثرب والدار (٣).

٤- المدينة المنورة محروسة بالملائكة:

ومن فضائل هذه البلدة المقدسة أنها محفوظة ومحروسة من قبل الله جلّ وعلا بإرساله ملائكته؛ ليحفظوا هذه المدينة من الدجال، ولذلك فإن الدجال يدخل كل بلدة، بل ويدخل رعبه كل البلاد إلا المدينة المنورة.

ففي مسند أحمد في حديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: إن المدينة مشبكة بالملائكة على كل نقب منها ملكان يحرسانها، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال، من أرادها بسوء أذابه الله، كما يذوب الملح في الماء (٤).

وروى ابن النجار عن الصحيحين من حديث أنس عن النبيّ صلى الله عليه وآله، أنه قال:

ليس من بلد إلا سيّطاه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس نقب من نقابها إلا الملائكة صافين يحرسونها فينزل السبخة، ثم ترتجف المدينة ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل كافر ومنافق (٥).

١- ١٢ المصدر نفسه: ٧٤.

٢- ١٣ المصدر نفسه: ٥٨ و ٨٤، مرآة الحرمين ١: ٤٠٧.

٣- ١٤ المصدر نفسه: ٧٩.

٤- ١٥ مسند أحمد ١: ١٨٣.

٥- ١٦ أخبار مدينة الرسول: ٣٤.

ص: ٤٣

وأخرج البخارى من حديث أبى بكر عن النبى صلى الله عليه وآله قال: لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب فى كل باب ملك (١).

٧- ما قصد أحد أهلها بسوء إلا أذابه الله:

لقد قصد الكثير من الظلمة والطغاة وأهل الفتنة المدينة وأهلها بسوء، ولكن أبى الله إلبذوبهم وهلاكهم لما خانوا بأهل المدينة. روى أحمد بسنده عن عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله... ولا يريدكم أحد بسوء إلا أذابه الله ذوب الرصاص فى النار أو ذوب الملح فى الماء (٢).

وقال ابن النجار: وخرج البخارى في صحيحه من حديث سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال: لا يكيد أحد أهل المدينة إلا انماع كما ينماع الملح فى الماء (٣).

قلت: المراد من لا يريدكم أو لا يكيدكم إلا أذابه ذوب الرصاص، أو انماع كما ينماع الملح فى الماء هو: أن الظالم إذا قصدكم وهتك حريمهم وجنى عليهم سوف لا يمهل الله عزوجل ويفنيه، لا أنه المراد منه لا يقترب المدينة أبداً، نعم الذى لا يدخل المدينة المنورة هو الدجال فقط. ويشهد على ما نقوله ما جاء فى التواريخ من كثرة الهجوم على أهل المدينة وقتلهم مرات عديدة، كما دخلها مسلم بن عقبة وقتل من قتل منهم، وجنى بحقهم ما يعجز اللسان عن بيانه:

قال إبراهيم بن على العياشى واصفاً ما جناه مسلم بن عقبة وأذابه الذين أرسلهم يزيد بن معاوية لإباحة المدينة: إن يزيد أعطاهصكاً بكأسها ليبلغ فيه متى شاء، أجازه بإباحة أهل المدينة ثلاثة أيام، وهو أجاز لنفسه الانتقام من أصفياء الله الكرام، إن وضعت السيوف فى قراباتها فإن مسلماً لم يضع بعد سيف حقه وفى يده مقبضته، لم يزل كالشور الهائج قتل من قتل من خيار هذه الأمة، ولا تزال نفسه الخبيثة تتشوق إلى القتل والأذى.. قال المجد: إنهم سبوا الذرية واستباحوا الفروج، وأنه يقال لأولئك الأولاد من النساء اللاتى حملن أولاد الحرّة. ويقول ابن الجوزى عن أبى قرّة قال هشام بن حسان: ولدت بعد الحرّة ألف حرّة من غير

١- ١٧ المصدر نفسه.

٢- ١٨ مسند أحمد ١: ١٨٤.

٣- ١٩ أخبار مدينة الرسول: ٣٣.

ص: ٦٤

زوج.. (١).

٨- إن غبارها شفاء من كل داء:

وردت روايات عديدة في الصحاح وغيرها دالّة على قداسة هذه التربة الطاهرة، وأنها شفاء من الجذام والبرص بل من كل سقم، وإليك بعض ما ورد:

- روى العباسي عن محمد بن موسى بن صالح من ولد صيفي بن عامر عن أبيه عن جده قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله من غزاة غزاهما، فلما دخل المدينة أمسك بعض أصحابه على أنفه من ترابها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده، إن تربتها لمؤمنته، وإنها لشفاء من الجذام (٢).

- وعن أبي سعيد الرازي الحافظ في كتابه قال: حدّثنا عبد الرحمن بن أبي حاتم، حدّثنا سليمان بن داود، حدّثنا أبو غزيرة، حدّثنا عبد العزيز بن عمران عن محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: غبار المدينة شفاء من الجذام (٣).

- وعن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وآله لَمّا رجع من تبوك تلقّاه رجال من المتخلفين المؤمنين، فثار غبار فخمر من كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله أنفه، فأزال رسول الله صلى الله عليه وآله اللثام عن وجهه وقال: والذي نفسي بيده، إن غبارها شفاء من كل داء.. (٤).

- وعن ابن النجار قال: وحدّثنا ابن زباله عن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة: أن رجلاً أتى به رسول الله صلى الله عليه وآله وبرجله قرحة، فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله عليه و آله طرف الحصير، ثم وضع إصبعه التي تلي الإبهام على التراب بعدما مسحها بريقه فقال: بسم الله ريق بعضنا بتربة أرضنا يشفي سقيمنا يا ذن ربنا، ثم وضع إصبعه على القرحة، فكانما حلّ من عقاب (٥).

٩- دعاء النبي لذهاب الحمى والوباء عنها:

ودعا النبي صلى الله عليه وآله لهذه المدينة الطاهرة أن يدفع الله عنها سقم الحمى والوباء، بعدما كان أهلها يعانون الحمى بأشد ما يكون.

١- ٢٠ المدينة بين الماضي والحاضر: ٣٤٣.

٢- ٢١ عمدة الأخبار: ٩٣.

٣- ٢٢ أخبار مدينة الرسول: ٢٨، عمدة الأخبار: ٢٧٣ و ٤٤٧.

٤- ٢٣ عمدة الأخبار: ٨٩ و ٤٤٧، وفاء الوفاء: ١: ٦٧.

٥- ٢٤ أخبار مدينة الرسول: ٢٨.

ص: ٦٥

روى السمهودى عن مسلم عن عائشة قالت: قدمنا إلى المدينة وهي وبيته، فاشتكى أبو بكر واشتكى بلال، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله شكوى أصحابه قال:

اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة، كما حَبَّبت مكة أو أشد وصححها، وبارك لنا فيصاعها ومدّها، وحول حُمَّاها إلى الجحفة (١).
وعن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى بأرض سعد بأصل الحرة عند بيوت السقيا ثم قال: «اللهم إن إبراهيم خليلك وعبدك ونيبك دعاك لأهل مكة، وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك به إبراهيم لمكة، أدعوك أن تبارك لهم فيصاعهم ومدهم وثمارهم، اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كما حَبَّبت إلينا مكة، واجعل ما بها من وباء نجم (٢).
قال السمهودى في علّة دعاء النبي بنقل الحمى إلى الجحفة: لأنها كانت دار شرك (٣).

١٠- فضل المجاورة والموت في المدينة المنورة:

ومما يدل على قداسة هذه البلدة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حرض المسلمين على المجاورة والبقاء فيها، وضمن صلى الله عليه وآله وسلم لمن مات فيها أن يكون شهيداً أو شفيعاً له في يوم القيامة.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: من استطاع منكم أن يموت في المدينة فليفعل، فإنه من مات بها كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة (٤).
قال العباسي: ودلالة هذه الأحاديث على الحث والحض والتحريض على الإقامة بالمدينة، وطلب الفوز باستيطانها، وقصد السعادة بمجاورة مساحتها ظاهرة واضحة لائحة، فإنها منبع فيض بحار أنوار الملة الإسلامية، ومشرق طلوع أعمار السعادة الحقيقية، والدار التي اختصها الله لهجرة حبيبها صلى الله عليه وآله وسلم، وظهور دينه، ومحل إعلامه بالحق، وإذعان الخلق، وأحب البقاع إلى الله سبحانه، وموطن أحب الخلق إلى الله، ومهبط الملائكة المقربين، ومنزل الروح الأمين... (٥).

١- ٢٥ وفاء الوفاء ١: ٥٦، أخبار مكة ٢: ١٥٣ بتفاوت، أخبار مدينة الرسول: ٢٧.

٢- ٢٦ عمدة الأخبار: ١٨٧.

٣- ٢٧ وفاء الوفاء ١: ٥٦.

٤- ٢٨ معجم البلدان ٥: ٨٣، الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين: ١٤.

٥- ٢٩ عمدة الأخبار: ٣٠.

ص: ٦٦

١١- كراهة الهجرة منها:

ومما يدل على قداسة أرض المدينة المنورة أنه يكره لمن سكنها أن يتركها ويهاجر عنها، كما روى ذلك عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله:

قال محجن بن الأدرع: بعثني النبي صلى الله عليه وآله إلى حاشي المدينة في حاجة، فلما جئت ذهبت معه حتى تصعد أهدأ، فأشرف على المدينة فقال: ويل أمك من قرية، كيف يدعك أهلكت، وأنت خير ما تكونين (١).

وعن عليصوات الله عليه أنه قال: من خرج من المدينة رغبةً عنها، أبدله الله شرّاً منها (٢).

١٢- الصبر على الشدة والجهد في المدينة:

ورغب النبي صلى الله عليه وآله حينما كان في المدينة الصبر على الجهد والبلاء والشدة في المدينة المنورة، وكان يبشّرهم على منصبر منهم أن يكون شفيعهم في يوم القيامة.

روى ابن النجار بسنده عن سالم بن عبد الله قال: سمعت أبي يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: اشتد الجهد بالمدينة وغلا السعر، فقال النبي صلى الله عليه وآله: اصبروا يا أهل المدينة وأبشروا، فإنني قد باركت عليكم ومدكم، كلوا جميعاً ولا تفرقوا، فإن طعام الرجل يكفي الاثنين، فمنصبر على لأوائها وشدتها، كنت له شفيعاً يوم القيامة، ومن خرج عنها رغبةً عما فيها، أبدل الله عز وجل فيها من هو خير منه.. (٣).

وجاء في صحيح مسلم عن سعيد مولى المهري، أنه جاء إلى أبي سعيد الخدري ليألى الحرّة، فاستشاره في الجلاء من المدينة، وشكا إليه أسعارها وكثرة عياله، وأخبره أن لا يصبر له على جهد المدينة ولأوائها فقال: ويحك لا أمرك بذلك، إنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا يصبر وفي رواية لا يبيت أحد على لأوائها وجهدها إلّا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة (٤).

١- ٣٠ تاريخ المدينة المنورة ١: ٢٧٤.

٢- ٣١ بحار الأنوار ٩٦: ٣٧٨.

٣- ٣٢ أخبار مدينة الرسول: ٣٢، معجم البلدان ٥: ٨٣ بتفاوت.

٤- ٣٣ صحيح مسلم ٣: ١٧٢، وفاء الوفاء ١: ٣٩، عمدة الأخبار: ٨٦.

ص: ٦٧

١٣- فضليصيام رمضان في المدينة المنورة:

ورغب النبي صلى الله عليه وآله الصيام وخصوصاً صيام شهر رمضان في المدينة المنورة، بحيثصارت هذه من خصائص هذه البلدة المقدسة.

روى السمهودي عن الطبراني عن بلال بن الحارث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

رمضان بالمدينة خير من ألف رمضان فيما سواها من البلدان.. (١).

وروى ابن النجار بالإسناد عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صيام شهر رمضان في المدينة كصيام ألف شهر فيما سواها (٢).

١٤- استحباب الصوم لزائر المدينة لقضاء الحاجة:

ويستحب لزائر المدينة أن يصوم ثلاثة أيام لقضاء حوائجه، والظاهر أن هذا الحكم يختص بالمدينة المنورة ومشاهد الأئمة لا غير؛ لحرمة الصيام في السفر فرضاً وتطوعاً عدا ما استثنى (٣). وإليك ما روى:

روى الشيخ بسنده عن: موسى بن القاسم عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن كان لك مقام بالمدينة ثلاثة أيامصمت أول يوم الأربعاء وتصلّى ليلة الأربعاء عند اسطوانة أبي لبابة، وهي اسطوانة التوبة التي كان ربط إليها نفسه حتى نزل عذره من السماء، وتقعدها يوم الأربعاء، ثم تأتي ليلة الخميس التي تليها ممّا يلي مقام النبي صلى الله عليه وآله ليلتك ويومك، وتصوم يوم الخميس. ثم تأتي الاسطوانة التي تلي مقام النبي صلى الله عليه وآله ومصلاه ليلة الجمعة، فتصلي عندها ليلتك ويومك، وتصوم يوم الجمعة، وإن استطعت أن لا تتكلم بشيء في هذه الأيام إلا ما لا بد لك منه، ولا تخرج من المسجد إلا للحاجة ولا تنام في ليل ولا نهار فافعل، فإن ذلك ممّا يعد فيه الفضل، ثم احمد الله في يوم الجمعة واثن عليه وصل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسل حاجتك وليكن فيما تقول: «اللهم ما كانت لي إليك من حاجة شرعت أنا في طلبها والتماساً، أو لم أشرع سألتكها أو لم أسألكها، فإني أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة صلى الله عليه وآله في قضاء حوائج صغيرها وكبيرها». فإنك حري أن

١- ٣٤ وفاء الوفاء ١: ٤٣٣.

٢- ٣٥ أخبار مدينة الرسول: ٣٥.

٣- ٣٦ راجع المقنعة: ٣٥٠، التهذيب ٤: ٢٣٢.

ص: ٦٨

تقضى حاجتك إن شاء الله تعالى (١).

١٥- فضل صلاة الجمعة في المدينة المنورة:

روى نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صلاة الجمعة بالمدينة كألف صلاة فيما سواها (٢).

١٦- عود الإيمان إلى المدينة المنورة:

ومن فضائل هذه المدينة وخصائصها أن الإيمان سيعود ويأرز إليها كما تأرز الحية إلى حجرها.

روى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى

حجرها (٣).

وروى عن النبي مرفوعاً: ليعودن هذا الأمر إلى المدينة كما بدأ منها حتى لا يكون إيمان إلبها (٤).

١٧- استحباب التصدق في المدينة المنورة:

وتمتاز أيضاً عن سائر البلدان عدا مكة المكرمة، باستحباب التصدق فيها على الفقراء لمن دخلها.

وعن إبراهيم بن مهزم عن يرويه عن أبي عبد الله قال: إذا دخلت مكة فاشتر بدرهم تمرًا فتصدق به؛ لما كان منك في أحرامك

للعمره، فإذا فرغت من حجك فاشتر بدرهم تمرًا وتصدق به، فإذا دخلت المدينة فاصنع مثل ذلك (٥).

١٨- استحباب الغسل لدخول المدينة المنورة:

ولنختم البحث باستحباب الغسل لمن أراد دخول المدينة المنورة، كما روى عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: ينبغي لمن أراد

دخول المدينة زائراً أن يغتسل (٦).

ولم يشرع الغسل إلالقداسته هذه البلده الطاهره والأرض المقدسه كما أفتى الفقهاء الكبار بذلك.

١- ٣٧ التهذيب ٤: ٢٣٢.

٢- ٣٨ أخبار مدينة الرسول: ٣٥، وفاء الوفاء ١: ٤٢٣.

٣- ٣٩ صحيح مسلم ١: ١٧٧، أخبار مدينة الرسول: ٢٩.

٤- ٤٠ المدينة المنورة في التاريخ: ٢٥.

٥- ٤١ بحار الأنوار ٩٦: ٣٧٧.

٦- ٤٢ المصدر نفسه: ٣٧٨.

ص: ٦٩

قال يحيى بن سعيد: ويستحب الغسل لدخول المسجد وزيارة النبي صلى الله عليه وآله (١).

وقال العلامة الحلبي: والغسل عند دخولها وزيارة فاطمة عليها السلام... (٢).

وقال المحقق الحلبي: يستحب الغسل لدخولها وزيارة النبي صلى الله عليه وآله استحباباً مؤكداً (٣).

ولاشك في أن للمدينة المنورة فضائل اخر كما يظهر من أسمائها، ولكن تركنا ذكرها مخافة الإطالة والإسهاب.

الهوامش:

١- ٤٣ الجامع للشرابع: ٢٣١.

٢- ٤٤ قواعد الأحكام: ٩١.

٣- ٤٥ المختصر النافع: ٩٨.

ص: ٧٠

تحديد قرن المنازل

ص: ٧١

تحديد قرن المنازل

من المعلوم الذى لا- شك فيه ولا- ريب أن الميقات هو قرن المنازل، وإن وقع الإختلاف فى أنه ميقات لأهل نجد أو لأهل الطائف، وإنما قصدنا الميقات الذى وقته رسول اللّٰه صلى الله عليه و آله، فإنه قد يطلق الميقات على مكان الإحرام، وإن كان بالمحاذة لا بالتوقيت؛ ولهذا ورد فى عبارة بعض الكتاب أن السيل ميقات أهل نجد، ووادى محرم ميقات أهل الطائف (١) مع أنه ذكر أن قرن المنازل هو المسمى الآن بالسيل الكبير (٢)، والمقصود من هذا البحث هو تعيين قرن المنازل ومكانه، هل هو الواقع فى وادى محرم قريباً من الهدى، أو هو المسمى اليوم بالسيل الكبير، أو كلاهما واقعان فى وادى قرن المنازل الذى هو الميقات كما ذكر بعضهم؟ هذا الإختلاف والالتباس الذى حصل فى هذا الميقات، حصل بسبب تقدم العهد حيث تغيرت أسماء كثير من المناطق، ونسيت أسماؤها المعروفة سابقاً، وحدثت لها أسماء جديدة بحيث خفيت على عامة الناس، ووجود طريقين بين مكة والطائف. وهذان الطريقان- كما ستعرف- قديمان مذكوران فى كتب

١- ١ أودية مكة- عاتق بن غيث البلادى: ٨، ٩

٢- ٢ أودية مكة- عاتق بن غيث البلادى: ١٨٠

ص: ٧٢

المتقدمين، وإن تغيرت بعض مساراتهما إلا أنهما يَمْرَان بمكان الإحرام القديم كما سوف يتبين.. إن الاختلاف في أيهما الميقات شائع بين الناس كما يظهر من استفتاءاتهم للفقهاء، بل هو ظاهر أيضا عند بعض الكتاب، ولهذا فإن تحديد الميقات لا يخلو من مشقة، ونحتاج إلى جمع أكبر عدد من القرائن، التي يحصل منها الاطمئنان، ونحن هنا سنحاول أولاً تحديد مكاني الإحرام وهما السيل ووادي محرم، كما هما الآن من أقوال المعاصرين، ثم نشرع في ذكر القرائن التي تعين لنا الميقات الذي أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وآله.

التعريف بالسيل الكبير

قرن المنازل قرية في أسفل (١) وادي قرن المنازل على الطريق بين مكة والطائف المار بالنخلة اليمانية، وتشرف على قرية البهية (البوابة قديماً) الواقعة فيصدر نخلة.

ويظهر من البلادي في أودية مكة (٢) أن وادي قرن المنازل يقع بين وادي قرن جنوبا ووادي بعج شمالاً، ويقع قرن بين قرن المنازل وبين وادي محرم.

ويبعد وادي السيل عن مكة مسافة ٧٨ كيلو متراً من بطن الوادي و ٧٥ كيلو متراً من المكان الذي يحرم منه المعتمرون (٣).

وقال البلادي (٤): قرن المنازل وهو ما يعرف اليوم باسم السيل، بلدة عامرة على الطريق بين مكة والطائف المار بالنخلة اليمانية، وبها مرصلى الله عليه وآله في غزوة الطائف ولا زال واديهما يسمى قرناً.

وتقع النخلة اليمانية (اليمانية) غرب قرن، بينه وبين يدعان (جدعان) ويصب فيها يدعان من الغرب وهي تصب في قرن، ويصب وادي دحنا من الشرق وطريق الطائف المار بالسيل يمر على الشرايع، ثم يدعان ذات اليسار، ثم النخلة اليمانية ثم السيل (٥).

١-٣ اطلاق الأعلى والأسفل هنا بملاحظة مسيل الوادي فإن وادي قرن يسيل من جبال السراء غرب الطائف ماراً بوادي محرم ثم قرن ثم السيل الكبير ثم بعج

٢-٤ أودية مكة- عاتق بن غيث البلادي: ٨، ٩ و ٤٦١

٣-٥ في مواقيت الحج والعمرة المكانية: ٧٢

٤-٦ أودية مكة- عاتق بن غيث البلادي: ١٨٠

٥-٧ انظر: أودية مكة- عاتق بن غيث البلادي: ٥٢ و ٣٦١ و معجم البلدان- ياقوت الحموي ٥: ٧٧٢

ص: ٧٣

التعريف بوادى محرم

وادي محرم وهو المكان الذي يحرم منه الحجاج المارين بالهداء، يسيل من الجبال الواقعة بين جبال غفار غربا وجبل الغمير شرقا، ويقع جنوب وادي قرن في لحف جبل كرا، ويليه وادي قرن من الشمال ووادي الغدير من الجنوب، ومن الجنوب الشرقي يقع وادي مسرة ثم الطائف، ومن الغرب تقع قرية الهدى على الطريق إلى مكة (١).

ويظهر من بعضهم أن وادي محرم هو أعلى وادي قرن، كما أن قرن المنازل هو أسفله (٢).
وطريقه يمر بجبل كرا ثم وادي نعمان ثم عرفات، كما سيأتي في ذكر طرق الطائف إلى مكة.

القرائن التي تحدد وتعين قرن المنازل

هنا سنشرع في ذكر القرائن، التي يستفاد منها في تعيين محل قرن المنازل وتعيينه.

الأول: أقوال العلماء والمحققين في أن قرن المنازل هو السيل:

رشدى الصالح ملحق (٣): قرن المنازل في طريق نجد واليمن من جهة السراة ويسمى اليوم السيل.

عبد الجبار وعبد العزيز الرفاعي (٤): ثم سارت السيارة وبعد ساعتين هبت ريح باردة فقال الشيخ: أقبلنا على السيل الكبير وهو الذي كان يعرف قديماً بقرن المنازل وفيه يحرم القادمون من الطائف ونجد إلى مكة.

الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله آل عيثان المتوفى في ١٢/٢٦ / ١٣٣١ هـ: نقل الشيخ فرج آل عمران في الأزهار الأرجية (٥) قال: سمعت من الحاج محمد بن حسين المؤمن الإحسائي المتوفى يوم الأربعاء ٢٣/٤ / ١٣٦٣ هـ أنه حج مع العلامة الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله آل عيثان المتوفى في ١٢/٢٦ / ١٣٣١ هـ وكان حجهم

١- ٨ انظر: أودية مكة- عاتق بن غيث البلادي: ٨ و ٤٦١- أخبار مكة- الأزرقى ٢: ١٣٠.

٢- ٩ تقدم بيان الأعلى والأسفل.

٣- ١٠ تعليقه على أخبار مكة للأزرقى ٢: ١٣٠

٤- ١١ المطالعة السعودية: ٧٢

٥- ١٢ الأزهار الأرجية: ٨: ١٤٠

ص: ٧٤

على الأباغر، ولما وصلوا العشيرة أراد الحجاج أن يحرّموا منها فمنعهم الشيخ محمد قانلا: الميقات الصحيح هو وادى السيل، وهو الذى وقته رسول الله لأهل الطائف، فأخروا احرامهم إليه.

الشيخ فرج العمران- الأزهار الأرجية (١): وفى ضحى اليوم المؤرخ (الثلاثاء التاسع عشر من الشهر، أى ١٩ رجب ١٣٩٢ هـ) وصلنا محرم الطائف، وهو المسجد الكائن موقعه فى قرن المنازل المعروف بوادى السيل.

وقال (٢): وفى عصر اليوم المؤرخ وصلنا محرم الطائف وهو قطعة من وادى السيل أى قرن المنازل، وهو أحد المواقيت التى وقتها رسول الله لأهل الآفاق، وقد وقت قرن المنازل لأهل الطائف ومن يمرّ به من أهل الآفاق، فاغتسلنا منها غسل إحرام العمرة التمتع.

وقال (٣): السبت الثانى عشر رجب ١٢٨٨: وفى ضحى اليوم المؤرخ وصلنا محرم الطائف، فاغتسلنا غسل إحرام العمرة المفردة، وصلينا ركعتين نافله الإحرام، ثم أحرّمنا ونحن فى المسجد الكائن موقعه فى قرن المنازل المعروف بوادى السيل.

وقال (٤): المحرم المعروف الآن بالسيل هو أحد المواقيت التى وقتها رسول الله لأهل الآفاق، وهو المعروف بقرن المنازل الذى وقته لأهل الطائف، وهو على مرحلتين من مكة من جهة الشرق.

وقال بعد ذلك: أقول: من ملاحظة مجموع ما ذكرنا لا ينبغى التشكيك فيصححة الإحرام من وادى السيل، وأنه هو قرن المنازل، وليت شعري ماوجه الإحرام من العشيرة بعد الإحاطة بما ذكرنا، ولعلهم يزعمون أنه من باب الاحتياط الذى لا يخلو هنا من الاحتياط، والله الهادى إلى سواء الصراط!؟

الشيخ سليمان بن الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٥) قال: فإذا وصلت إلى الميقات الذى وقته رسول الله لأهل نجد وهو قرن المنازل (السيل)...

١- ١٣ الأزهار الأرجية: ٤١: ٨٤٤

٢- ١٤ الأزهار الأرجية: ٢١: ٣٠١

٣- ١٥ الأزهار الأرجية: ٨: ٧٧٢

٤- ١٦ الأزهار الأرجية: ٨: ١٤٠

٥- ١٧ تحفة الناسك بأحكام المناسك ط ١٣٦٤ هـ - ط مكة المكرمة: ٦

ص: ٧٥

محمد طاهر الكردي (١): وميقات المتوجه من نجد ونجد اليمن ومن الطائف قرن بفتح القاف وسكون الراء ويقال لها قرن المنازل، وهي على مرحلتين من مكة لنجد، وهي تعادل السيل الكبير. يحرم منه أهل نجد الآن، وقد توهم بعضهم أن قرن المنازل هو قرن الثعالب وليس بصحيح، بل هما موضعان، فقرن الثعالب قريب من عرفات وليس من المواقيت، وقرن المنازل هو الموازي للسيل الكبير هو الميقات المعروف.

قال حمد الجاسر (٢): قرن هو قرن المنازل محل الإحرام، ويعرف الآن باسم السيل الكبير فيه قرية وقال (٣): وقرن المنازل يعرف باسم (السيل).

البلادي (٤): فإذا انحدر سمي السيل وهو ميقات أهل نجد، والمرحلة الثانية من مكة على نظام القوافل القديمة عن طريق نخلة اليمانية. وقال (٥): قرن المنازل علم معروف مشهور في كتب الأدب، وهو ما يعرف اليوم باسم (السيل الكبير)، بلدة عامرة على الطريق بين مكة والطائف المار بنخلة اليمانية، وهي ميقات أهل نجد، وبها مرصلى الله عليه وآله في غزوة الطائف، ولا زال واديها يسمى قرناً. وقال (٦): [البوابة] وهي تعرف اليوم بالبهية، تقع فيصدر نخلة اليمانية، تخرج منها على السيل الكبير وهو ميقات أهل نجد، وكان يعرف بقرن المنازل.

عبد الملك دهيش (٧): وأصل نخلة واد رأسه من البوابة (البهية اليوم) عند بلدة قرن المنازل (السيل الكبير) إلى قرية الزيمة. وقال الفاكهي (٨): وقرن المنازل وهو وقت من الأوقات، التي وقتها رسول الله صلى الله عليه وآله... وقال دهيش في الحاشية (٩): يعرف اليوم بالسيل الكبير وقد اقيم فيها مسجد كبير يحرم منه من على هذا الطريق طريق الطائف من أهل نجد وغيرهم، وتبعد عن مكة ٨٠ كم وعن الطائف.

- ١- ١٨ التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ٤: ٨٨٢ المطبوع سنة ١٣٨٥ هـ
- ٢- ١٩ حاشيته على كتاب المناسك للحربي: ٦٤٥
- ٣- ٢٠ حاشيته على كتاب المناسك للحربي: ٣٥٢
- ٤- ٢١ أودية مكة- عاتق بن غيث البلادي: ٩
- ٥- ٢٢ أودية مكة- عاتق بن غيث البلادي: ١٨٠
- ٦- ٢٣ معالم مكة- عاتق بن غيث البلادي: ٤٤.
- ٧- ٢٤ تعليقه على كتاب أخبار مكة للفاكهي- عبد الملك بن دهيش ٥: ٩٨.
- ٨- ٢٥ أخبار مكة- الفاكهي ٥: ١٠٠
- ٩- ٢٦ حاشية أخبار مكة للفاكهي- عبد الملك بن دهيش ٥: ١٠٠

ص: ٧٦

مساعدة بن قاسم الفالح (١): الميقات الثالث: قرن المنازل،... وهو ميقات لأهل نجد، ويحرم منه الآن حجاج المشرق، الذين يسلكون الطريق البرى المعبد، وقد اشتهر هذا الميقات الآن باسم السيل الكبير، ويتصل هذا الوادى بوادى محرم المسمى أيضا قرناً، والذي يمر به الطريق المسمى كرا المتجه إلى مكة.

مجلة الفيصل (٢): ميقات أهل الطائف (قرن المنازل) وهو المسمى الآن ب (السيل الكبير).

فوائد متممة:

كان والدى رحمه الله كما نُقل عنه يحرم من السيل، ولما سافرت أول عمره وهى سنة ١٤٠٩ هـ، وكنت فى حملة الحاج عيسى بن إبراهيم بن سلطان، فأرانى المسجد الذى كان يحرم منه والدى (رحمه الله) أيام كان يأتى للعمرة، وهو مسجد صغير قديم، وليس فيه مرافق، وقد أعلق بعد أن افتتح المسجد الكبير، وكان القيم عليه رجلاً مسناً جداً، لا يقل عمره عن الثمانين بحسب تخمينى، وقد أخبرنى، أن أباه أخبره: أن هذا المكان يسمى قرناً، وكان يرى الحجاج منذ كان صغيراً يحرمون منه، وكانت هذه بداية بحثى وتتبعى لمعرفة هذا الميقات، الذى هو محل ابتلاء بالنسبة لنا، واختلاف بين مشائخنا حفظهم الله وسددهم.

قال الشيخ فرج (٣): فى موسم سنة ١٣٦٥ هـ سافرنا إلى الحجاز على السيارات مقدمين مكة على المدينة، وكان سائق السيارة التى أنا فيها رجلاً من القصيم اسمه عبد الكريم القرزعى عارفاً بالطرق بصيراً بالمسافات، ولما قربنا من الطريق الذى يسلكه أهل الطائف إلى مكة، سألته عن ميقات أهل الطائف فأجاب هو وادى السيل، فسألته ثانياً: هل لهم ميقات آخر؟ فأجاب: لا ميقات لهم سواه.

فى سنة سافرت مع بعض الاخوان إلى العمرة، وكنت فى كل عمراتى أحرم من السيل، ولم يكن لنا قصد بأن نذهب إلى وادى محرم القريب من الهدى لو لا أنه

١- ٢٧ كتاب مواقيت الحج والعمرة المكانية مساعداً الفالح: ٢٦

٢- ٢٨ عدد ١٦٨ ذو الحجة ١٣١٢ هـ - يونيو ١٩٢٢ هـ

٣- ٢٩ فى الأزهار الأرجية: ٨.

ص: ٧٧

كان معنا رجل من بنى جمرة، قال لي: أنا لا أحرم إلا من المكان الذى يحرم منه فلان، فقصدنا وادى محرم، ثم رجعنا إلى السيل واحرمت، وأمرت الجماعة التى معى بالإحرام من السيل، وقد كانت هناك لافتة كتب عليها ميقات قرن المنازل (السيل الكبير)، بينما اللافتة التى فى وادى محرم لم يكتب عليها قرن المنازل بل كتب عليها: ميقات وادى محرم، فقط. ولما أنصرتنا فى مكة ذهب بعض الشباب ولعله للشك الذى راودهم فيصح إحرامهم يسألون العلماء الذين رأوهم يحاضرون فى الحرم، أخبرنى أحدهم قال: ذهبت وسألت أحدهم فقلت له: ما تقول فى ميقات القادم على طريق الطائف من أين يحرم؟ من الهدى أم من السيل قال: يحرم من أيهما ويجزيه فكلاهما محرم، قال: فسألته؟ وأيها قرن المنازل الذى وقته رسول الله صلى الله عليه وآله: قال هو السيل.

قال: وذهبت إلى الحلاق الكائن فى أسفل المبنى الذى كنا نساكنه، فرأيت الرجل الذى يعمل فيه، وكان من الباكستان، كبير السن يجيد العربية تماما كأنه عربى الأصل، فقلت له: أراك تتكلم العربية بفصاحة فكم مضى لك فى مكة؟ قال:

أربعون سنة وأنا أعمل فى مكة قال: فسألته عن الميقات، فقال: كان الناس يحرمون من السيل وهو قرن المنازل، حتى فتح طريق كرا الجديد فتركوا الناس سلوك طريق السيل؛ لوعورته وعدم قبول أصحاب السيارات الذهاب عليه.

وأخبرنى السائق الذى كان يذهب معنا واسمه حبيب من أهل الطائف مثل هذا، وهو أن الطريق القديم هو طريق السيل، ولما فتح طريق الطائف فى عهد الملك فيصل سلك الناس طريق الهدى لسهولته وتركوا طريق السيل لأنه غير معبد، ثم وجدت هذا الكلام لبعض الكتاب كالكردى وغيره كما سيمر أثناء البحث.

القائلين بأن قرن المنازل هو الهدا:

العياشى فى رحلته (١): ذكر طريقه إلى الطائف على طريق الهدا قال: وسلطنا مع طريق الساقية التى تأتى من الجبل إلى عرفات، ثم إلى المشاعر ثم إلى مكة وهى

ص: ٧٨

صاعده مع وادي نعمان، فلم نزل نساير هصاعدين إلى أن قربنا من جبل كرا... [إلى أن قال]: وسلكننا في شعاب ذات مياه غزيرة ونبت ملتف إلى أن خرجنا على قرن الثعالب الذي هو ميقات أهل نجد.

وقال في رجوعه من الطائف (١): وخرجنا منه على طريقنا التي مررنا عليه ذهاباً، ووصلنا قرن الثعالب الذي هو ميقات أهل نجد. ولم يذكر أنه قرن المنازل بل قرن الثعالب، ولم يرد في روايات التوقيت اسم قرن الثعالب، وإنما ذكره بعض اللغويين كما ذكرنا وقد بينا فيما سلف خطأه، وهذا يكشف عن أن العياشي الذي هو من أهل المغرب، زار الأماكن المقدسة للحج فكتب رحلته، ولعله لم ير تلك الأماكن إلا مرة واحدة، فهو لا يعرف الأماكن باتقان، فلا يمكن الاعتماد على قوله في مقابل أقوال أهل تلك الديار العارفين بالأماكن، وقد قال المثل: (أهل مكة أدرى بشعابها).

تحديد قرن المنازل كما ذكره القدماء:

١-صبح الأعشى (٢): ذكر في طريق مصر إلى مكة قال: قال ابن خربوذ: ثم من مكة إلى بئر ابن المرتفع، ثم إلى قرن المنازل قرية عظيمة، وهي ميقات أهل اليمن للحج منه يحرمون.

ومنه يستفاد أن قرنًا واقعه بين مكة وبئر ابن المرتفع، وبئر ابن المرتفع ذكرها الفاكهي (٣) قال: وبئر ابن المرتفع التي فوق الأنصاب على طريق العراق، وتعرف ببئر ابن المرتفع اليوم لرجل يقال له ابن حوس.

واحتمل دهيش أنها بئر البرود. (٤)، وعلى أي حال فإن بئر ابن المرتفع واقعه في طريق العراق عند الأنصاب، وهذا يناسب كون قرن المنازل هو السيل لا الهدا.

٢- إن قرن المنازل واقع عند النخلة اليمانية

معجم البلدان ومراصد الاطلاع (٥): النخلة اليمانية تصب من قرن المنازل

١- ٣١ مقتطفات من رحلة العياشي ماء الموائد- حمد الجاسر: ١١٣

٢- ٣٢ صبح الأعشى- أبو العباس القلقشندی ٥: ٤٣

٣- ٣٣ أخبار مكة- الفاكهي ٤: ١١٧

٤- ٣٤ قال دهيش في حاشية أخبار مكة للفاكهي: ١١٧، ويغلب على ظني أنها هي بئر البرود؛ لأنها في طريق العراق، ولأنها مطوية بحجارة منحوتة جيدة العمارة؛ لأنها أعذب المياه كما ذكر الفاكهي، وقال أيضاً: ولا يزال حواس يطلق على واد عند البرود، ويصب في المغمس وعلى منطقة قرب بئر البرود يقال لها خريبات حواس، وهذا مما يدعم ما ذهبنا إليه في بئر ابن المرتفع. إن الذي يبعد كلام دهيش أن الفاكهي قد ذكر بئر البرود قبلها مما يدل على عدم اتحادهما.

٥- ٣٥ معجم البلدان- ياقوت الحموي ٥: ٢٧٧- مراصد الاطلاع- عبد المؤمن البغدادي ٣: ١٣٦٤

ص: ٧٩

وهو على طريق اليمن.

الفاكهى (١): وقرن المنازل وهو ميقات أهل نجد واقع في النخلة اليمانية.

المصباح المنير (٢): ويقال نخلة بالافراد أيضاً، وهما نخلتان أحدهما النخلة اليمانية بوادي يأخذ إلى قرن والطايف وقال الشاعر (٣):

وما أنسى من الأشياء لا أنسى مجلساً لنا مرّة منها بقرن المنازل

بنخلة بين النخلتين بكيتنا من العين عند العين برد المراحل ومما ذكرناه يظهر أن قرن المنازل واقع في النخلة اليمانية أو قربها، ولا يمكن أن يكون هو الذي في وادي محرم؛ لأنه بعيد عن النخلة اليمانية الواقعة في شمال مكة على طريق العراق شرق حنين (الشرايع)، والذي يقع في طريق النخلة اليمانية هو السيل الكبير فهي واقعة بينه وبين الشرائع، لتوضيح ذلك لا بد من بيان موقع النخلة اليمانية النخلة

نخلة واديان لهذيل، أحدهما يقع على شمال بستان ابن عامر (٤) وهو النخلة الشامية، والآخر أسفل البستان إلى يمينه، ويجتمعان ببطن مر وسبوحة، ويفصل بينهما جبل طويل يقال له دائرة (٥) النخلة الشامية:

واد على ليلتين من مكة يصب من الغمير (٦) وتأخذ إلى ذات عرق (٧) وتصب باليمامة على بستان ابن عامر، وعنده مجتمع النخلتين، وتجتمع مع النخلة اليمانية في بطن مر وسبوحة (٨).

وقال أبو زيد الكلابي (٩): هي ذات عرق، وأما أعلى نخلة ذات عرق فهي لبني سعد بن بكر، الذين أرضعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وهي كثيرة النخل وأسفلها بستان ابن عامر، وأخرها أوطاس (١٠).

١- ٣٦ أخبار مكة- الفاكهي ٥: ١٠٠

٢- ٣٧ المصباح المنير- الفيومي: ٥٩٧

٣- ٣٨ الأغاني- أبو الفرج الإصهاني ١: ١٩٨

٤- ٣٩ بستان ابن عامر: مجتمع النخلتين والعامية يسمونه بستان بن عامر، وهو غلط قال ابن قتيبة: يقولون بستان ابن عامر وهو بستان ابن معمر فهو الذي يعرف ببطن نخلة، وأما بستان بن عامر فهو موضع آخر قريب من الجحفة.

٥- ٤٠ معجم البلدان- ياقوت الحموي ٥: ٢٧٧- مراصد الأطلاع- عبد المؤمن البغدادي ٣: ١٣٦٤- أودية مكة- البلادي: ٩، ١٠، ١٦٣، ١٦٤

٦- ٤١ الغمير موضع بين ذات عرق والبستان- معجم البلدان ٤: ٢١٣

٧- ٤٢ سبوحة واد يصب من نخلة اليمانية على بستان ابن عامر معجم البلدان وموقعها كما يظهر من بعض الخرائط شمال مكة أعلى من سرف وبين بطن مر والجموم.

٨- ٤٣ معجم البلدان- ياقوت الحموي ٥: ٢٧٨

٩- ٤٤ معجم البلدان- ياقوت الحموي ١: ٢٨١، ٤: ١٠٨.

١٠- ٤٥ سولة: وهي عين جارية بنخلة أسفل من الزيمة عند مصب وادي سبوحة في النخلة اليمانية، وسولة والزيمة قريتان في نخلة

اليمانية وليس فى نخلة غيرهما من الحياة وقال محمد بن قرية: مرتعى من بلاد نجله بالصيف بكناف سوله والزيمة والزيمة تبعد ٥٤ كيلو متراً على طريق الطائف، وهى المرحلة الأولى على نظام القوافل القديم من مكة إلى الطائف، والمرحلة الثانية هى السيل الكبير قرن المنازل- انظر: معجم البلدان- ياقوت الحموى ٣: ٢٨٥- أودية مكة- البلادى: ١٠.

ص: ٨٠

النخلة اليمانية:

وإد يصب من قرن المنازل، ويصب فيه يدعان، يجتمع مع النخلة اليمانية في بطن مر وسبوحة.

وقال أبو زيد الكلابي: إحدى النخلتين يجتمع فيها حاج اليمن وأهل نجد، ومن جاء من قبل الخط وعمان وهجر ويبرين، فيجتمع حاجهم بالبواباء وهي أعلى نخلة، ومنها الزيماء وسولة (١) قال محمد بن إبراهيم بن قرية (٢): مرتعى من بلاد نخلة بالصيف باكناف سولة والزيماء.

ويمر بها الطريق من مكة على الشرائع (حنين) والسييل الكبير، وقد حددها دهيش (٣) بأنها بين البهيتة (البواباء قديماً) والزيماء، فتكون البواباء أعلاها من جهة السيل).

ويظهر من قول المسيب بن علس، يذكر رحيل سامه بن لوى إلى عمان (٤):

فشد أمونا بأنساعها بنخلة إذ دونها كبكب يظهر أن (كبكب) (٥) واقع جنوب نخلة، كما يظهر من بعض الخرائط أن وادي الصدر (صدرعنة) ووادي الكفو يقعان جنوبها.

ويظهر من الباحثين المعاصرين (٦) في بيان النخلتين إضافة إلى ما ذكره المتقدمون:

إنّ النخلة الشامية تقع شمال غرب الطائف وشمال شرق مكة، وهي ملتقى وادي بعج بوادي الزرقاء، وتسميها العامة وادي المضيق، وتسمى أيضاً وادي الليمون؛ لكثرة ما فيه من الليمون، وتلتقى بها النخلة اليمانية من الجنوب الشرقي أسفل جبل داءة، ويسمى حينئذ وادي الزبارة، وتأخذ النخلة اليمانية مساقطها الشمالية أعلاها من وادي الخرم من البهيتة (البواباء قديماً) قريب السيل، ويمر بها طريق الطائف القديم، فيأخذ حينئذ ثم يدعان ذات اليسار، وهو أيضاً طريق نجد ثم نخلة ثم قرن المنازل، ويبعد المضيق عن مكة ٥٤ كيلو متراً على طريق حاج

١- ٤٦ معجم البلدان- ياقوت الحموي ٣: ٢٨٥

٢- ٤٧ حاشية الفاكي عبد الملك دهيش: ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

٣- ٤٨ دليل الطرق السعودية- زكي فارسي:

٤- ٤٩ أودية مكة- البلادي: ٩، ١٠، ١٦٤، ١٦٣

٥- ٥٠ تعليقه على المناسك للحربي- حمد الجاسر: ٤١٦

٦- ٥١ تعليقه على المناسك للحربي- حمد الجاسر: ٤١٦

ص: ٨١

العراق (١٤١ م).

وقال الجاسر (١): إن النخلة الشامية أعلاها ذات عرق، واليمانية أعلاها قرن المنازل (السيل).

ويصّب في النخلة اليمانية من الجنوب واد يسمى حراض أسفل الزيمة، وهو غير حراض الذي يقع شمال السيل الكبير. (٢).

والمتحصل أن النخلة اليمانية واقعة شمال شرق مكة، جنوب النخلة الشامية وغرب قرن المنازل وشرق وادي حنين (الشرايع)، وأما الجنوب فكما ذكرنا أنه يظهر من بعضهم (٣) أن جنوبها وادي الكفو ووادي صدر عرنة (وادي الصدر) وكبكب وحراض الجنوبي. ويمرّ بها طريق الطائف ماراً بقرن المنازل ثم النخلة اليمانية ثم يدعان ثم الشرائع ثم مكة.

وإذا تحدد موضع النخلة اليمانية يتبين أن طريق الهدى الذي يمرّ على كرا، ثم وادي نعمان، ثم عرفات لا يمرّ على النخلة اليمانية، ولا يتصل وادي محرم بوادي نخلة، وحتى على دعوى أن قرناً يمتد من جبل كرا حتى البستان كما سنذكره، فإن تحديدهم لقرن المنازل الذي هو الميقات هو أسفل الوادي من جهة الشمال الواقع على طريق العراق قريبا من أوطاس وبستان ابن عامر، كما هو ظاهر من كلام القدماء، ونذكر لك كلام الحربى (٤) تأكيدا لهذه الدعوى؛ لئلا تكون دعوى بلا بينة ولا برهان.

ذكر في طريق اليمن إلى مكة: ... ثم العائب وقرن إلى نخلة وهو البستان.

وفي معجم البلدان (٥): قال البطليوسي: فأما بستان ابن معمر فهو الذي يعرف ببطن نخلة.

وما ذكره معجم البلدان (٦): أن البستان مجمع النخلتين.

ومن هذا يتبين: أن قرن المنازل هو السيل لا الهدى.

٣- الطريق الذي سلكه رسول الله في ذهابه إلى غزوة الطائف، وكذا عند

١- ٥٢ تعليقه على المناسك للحربى - حمد الجاسر: ٤١٦

٢- ٥٣ أودية مكة - البلادى: ٢٦١ - ١٠

٣- ٥٤ معالم مكة - البلادى - ٣٠٠ - أودية مكة البلادى: ٤٦١

٤- ٥٥ المناسك - إبراهيم الحربى: ٥٤٦

٥- ٥٦ معجم البلدان - ياقوت الحموى ١: ٤١٤

٦- ٥٧ معجم البلدان - ياقوت الحموى ١: ٤١٤

ص: ٨٢

رجوعه صلى الله عليه وآله منها:

المغازى (١): وسار رسول الله صلى الله عليه وآله من أوطاس فسلك على نخلة اليمانية ثم على قرن ثم على المليح، ثم على بحرة الرغاء من لية.

وفى السيرة النبوية (٢): سلك رسول الله صلى الله عليه وآله على نخلة اليمانية ثم على قرن ثم على المليح ثم على بحرة الرغاء من لية... ثم سلك فى طريق الضيقة إلى نخب.

وفى معجم البلدان (٩٤١ م): بحرة: موضع من أعمال الطائف قرب لية، قال ابن إسحاق: انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من حين على نخلة اليمانية ثم على قرن ثم على المليح ثم على بحرة الرغاء من لية.

وفى تاريخ ابن جرير (٣): سلك إلى الطائف على حين ثم على نخلة ثم قرن ثم على المليح ثم على بحرة الرغاء من لية. والمليح أسفل السيل الصغير (٤) وليه وادى يقع شرق وجنوب الطائف (٥)، وبحرة الرغاء تقع كما يظهر من كلام البلادى (٦) جنوب الطائف، وقال البلادى (٧):

ولا زالت مليح وبحرة الرغاء وليه تعرف بأسمائها إلى اليوم.

ويستفاد من هذه الرواية أن قرن المنازل واقع بين النخلة اليمانية والمليح، وهذا الطريق إنما يناسب طريق السيل دون طريق الهدى وأن قرن المنازل هو السيل وليس وادى محرم، وذلك لأنه لا يستقيم أن يمر من نخلة إلى وادى محرم فيصل إلى قرب الطائف ثم يرجع شمالاً إلى المليح، ثم ينحرف إلى الجنوب ثم يأتى نخب.

وقال البلادى (٨): وهذه هى طريق رسول الله صلى الله عليه وآله حين غزا الطائف، فقد أخذ على حين ثم على نخلة اليمانية ثم على مليح أسفل السيل الصغير اليوم، ثم التف حول الطائف من الشمال والشرق، ثم أتاه من الجنوب حيث نزل بحرة الرغاء من لية، ثم عاد إليه متجهاً شمالاً، وهى من الخطط العسكرية الممتازة.

وقال الجاسر (٩): وهذا هو طريق الطائف الذى يمر بالشرائع، وأعلاه وادى

١- ٥٨ المغازى: ٤٢٩

٢- ٥٩ السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٤٢١

٣- ٦٠ معجم البلدان- ياقوت الحموى ١: ٦٤٣

٤- ٦١ تاريخ الطبرى

٥- ٦٢ معالم مكة البلادى: ٣٠٠

٦- ٦٣ أودية مكة- البلادى: ٢١٠

٧- ٦٤ أودية مكة- البلادى: ٢١٠

٨- ٦٥ معالم مكة- البلادى: ٣٠٠

٩- ٦٦ معالم مكة- البلادى: ٣٠٠

ص: ٨٣

حينئذ نزل نخله اليمانية وهي معروفة بأسفلها قرية الزيمه، وبأعلاها البوابة (البهية) وقرن المنازل يعرف باسم السيل (١). طريق الرجوع من غزوة الطائف:

المغازى (٢): خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من الطائف فأخذ على دحنا ثم على قرن المنازل ثم على نخله حتى خرج إلى الجعرانة.

وفى السيرة لابن هشام (٣): ثم خرج رسول الله حين انصرف من الطائف على دحنا حتى نزل الجعرانة.

ويستفاد من هذا أن قرن المنازل واقع بين دحنا والنخله اليمانية، ودحنا ذكرها الحموي (٤) وقال: إنها من مخاليف الطائف وقد مر بها رسول الله صلى الله عليه وآله.

وذكر دهيش (٥) أنها واد يصب في قرن من الشرق وتقع شمال رحاب ب (٢) كيلو متر، وبينهما قرية ريح، ثم ذكر أنها تبعد عن الطائف ٤٢ كم شمالاً.

٤- الطرق بين مكة والطائف: كما هي مذكورة من القرن الثاني والثالث الهجري حتى الآن تدلنا على أنه هناك طريقان بين مكة والطائف فقط، هما الطريقان الموجودان حالياً: أحدهما طريق قرن المنازل والآخر هو طريق الهدا، وسنذكر لك هذه الطرق؛ ليتبين لك أي الطريقين هو الذي يمر على قرن المنازل:

الحربى (٦): حدثني محمد بن عبد المجيد بن الصباح العثماني قال: إذا أردت أن تخرج من عرفه على جبل يقال له كرا، يظهر على حرة كثيرة المنابت يقال لها: الهده ومن الهده إلى الطائف.

وله طريق آخر على موضع يقال له: زيمه. ينفرد من مشاش، ثم قرن المنازل وهو الموضع الذى وقته رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل نجد حين قال: (يهل أهل نجد من قرن) ثم من قرن المنازل إلى الطائف، وهذا الطريق ثلاثة أيام، والطريق الأول يومان. انتهى كلام الحربى.

أقول: إن الحربى الذى عاش فى القرن الثانى والثالث ذكر الطريقين، وهما كما

١- ٦٧ تعليقه على المناسك للحربى: ٣٥٣.

٢- ٦٨ فى مرآة الحرمين ١: ٦٢، ٧٢: ذكر بحره الواقعة فى طريق جدة قال: وبحره وتسمى بحره الرغاء على يسار الميمم مكة... ثم نقل عن زاد المعاد فى هدى خير العباد فى غزوة الطائف: ثم خرج رسول الله من الطائف إلى الجعرانة، ثم دخل محرماً بعمرة فقضى عمرته ثم رجع إلى المدينة، وقال بعد ذلك: والطائف فى الجنوب الشرقى لمكة والجعرانة بينهما لكنها أقرب إلى مكة، فكيف يتفق مع ذلك أنه مرّ ببحره منصرفه من غزوة الطائف مع أنها غربى مكة، ولا تقل المسافه بينهما عن ثلاثين ميلاً وبين الجعرانة ومكة حوالى عشرة أميال، إنا لذلك نقف موقف الشك فيما رواه ابن هشام ونقله عنه كثير من المؤرخين حتى يأتينا اليقين. أقول: والعدر لصاحب مرآة الحرمين فيما خلط فيه، وما دعاه إلى التشكيك فى كلام صاحب السيرة- مع أنه لم يشكك فيه المؤرخون من أهل مكة كالأزرقي والفاكهى ولا غيرهم- هو أنصاحب مرآة الحرمين ليس من أهل مكة، فهو كالعياشى وغيره من الحجاج الذين لا يتمكنون من معرفة الأماكن وتختلط عليهم الأسماء.

٣- ٦٩ المغازى: ٩٣٩

٤- ٧٠ السيرة النبوية ٤: ١٣٠

٥- ٧١ معجم البلدان- ياقوت الحموي ٢: ٤٤٤

٦- ٧٢ حاشية كتاب الفاكهي ٥: ١٠٠، ١٠١

ص: ٨٤

هو واضح مما تقدم أنهما الطريقان الموجودان، فذكر أولاً طريق الهدا الذي يمر على الهدة (١) وجبل كرا وذكر أنه يومان، ولم يذكر أنه يمر على قرن ولا أنه محل إحرار.

ثم ذكر الطريق الثاني وهو طريق السيل، الذي يمر على الزيمة ومشاش (٢) وقال: إنه يمر على قرن المنازل، وقال: إنه الموضع الذي وقته رسول اللّهللى الله عليه وآله لأهل نجد حين قال (يهل أهل نجد من قرن).

الفاكهى (٣) فى ذكره لحدود الحرم، ذكر طريق الهداصلى الله عليه وآله فقال: ومن طريق الطائف على طريق عرفة من بطن نمرة على أحد عشر ميلاً ومن طريق العراق على ثنية خل بالمقطع على سبعة أميال. (٤)

إبراهيم باشا (٥): ذكر فى عين زبيدة الواقعة فى حنين: فلما بلغ ذلك أمّ جعفر زبيدة زوجة الرشيد، أمرت بإجراء عين حنين (عين زبيدة)، ومنبع هذه العين فى ذيل جبل شاهق يقال: (طاء) بين جبال سود عاليات تسمى جبال الثقبه فى طريق الطائف.

أقول: هذا طريق السيل الذى يمر من حنين، وعين زبيدة هذه، التى فى حنين غير عين زبيدة الواقعة فى وادى نعمان، التى تنبع من جبل كرا فى طريق الطائف الآخر، فإنه قال فى نفس الصفحة:

وكذلك أمرت بإجراء عين وادى نعمان إلى عرفة، وهى عين منبعها فى ذيل جبل كرا، وهو جبل شامخصب المرتقى من أسفله إلى أعلاه، ومسيرة نصف يوم وبعده أرض الطائف.

وذكر طريق السيل أيضاً (٦): ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له:

الجعرانة، أحرار منه النبى صلى الله عليه وآله مرجعه من الطائف بعد فتح مكة.

وذكر طرق الطائف (٧) عنصااق باشا (باختصار):

وبلدة الطائف فى الجنوب الشرقى لمكة، ولها طريقان يقطع أقصرهما فى ١٨ ساعة فسلكننا الطويلة لسهولتها على الاخرى، فسرنا ٢٠ دقيقة مبحرين

١- ٧٣ المناسك للحربى: ٣٥٦

٢- ٧٤ قال الجاسر فى تعليقه على كتاب المناسك: ٣٥٦، الهدة وتسمى هدة هذيل قديماً هى فى قمة جبل كرا، وأصبحت الآن بلدة ذات قصور كثيرة لسراه الناس بعد تعبير طريق كرا.

٣- ٧٥ مشاش: قال الجاسر فى التعليقه على كتاب المناسك: ٤٥٦، مشاش: الموضع الذى أجرت فيه زبيدة عينها الأولى، وأضافا إليها عين حنين بالشرايع والبرود، وهو مجمع طرق حجاج العراق ونجد واليمن بقرب أنصاب الحرم، ويبعد عن مكة بما يقارب عشرة أميال.

٤- ٧٦ أخبار مكة- الفاكهى ٥: ٩٨

٥- ٧٧ قال الجاسر: الأنصاب فى الطريق الشمالى من جبل نمرة قديمة واضحة، لكن طريق الطائف تحول اليوم إلى طريقين آخرين غير هذا الطريق: طريق جبل كرى أخذ يميناً ليمر على درب اللاحجة قديماً ثم يستمر فيمر بقرب الحسينية والعبادية السلفين قديماً ويلتقى الطريق القديم والجديد فى وادى نعمان وسياتى ذكر العلمين اللذين هما حد الحرم على طريق فى كلامصاحب مرآة الحرمين عند ذكره لطريق الهدى.

٦- ٧٨ مرآة الحرمين- إبراهيم رفعت باشا ١: ٢١٠.

٧- ٧٩ مرآة الحرمين- إبراهيم رفعت باشا ١: ٥٢٢.

ص: ٨٥

مشرقين إلى جبل حراء المشهورة بجبل النور، ونزلنا بجوار ساقية، وعند الغروب سرنا وعطفنا يساراً من جبل النور تاركين منى يميننا، سالكين طريق السيل أو اليمانية مبحرين مشرقين، حتى وصلنا إلى بئر البرود فاسترحنا قليلاً، ثم سرنا مشرقين ساعتين في طريق يمثل نصف دائرة، ولجنا بعدهما مدخل جبال السولة، وبعد نصف ساعة استرحنا بقعة بين الجبال، وفي الساعة ١٠ والدقيقة ٤٥ من ليلة الأربعاء، شرعنا فيصعود قليل، وبلغنا أعلى الجبل الساعة ١١ والدقيقة ٣٠، وسرنا في هبوط مهبط كثرت الأحجار في منحدره إلى مكان فسيح بين جبال، وفي الساعة ١٢ والدقيقة ٢٠ من يوم الأربعاء وصلنا بقعة فسيحة بها زرع وجنات تحيط بها الأسوار وفيها نخيل وليمون أزوجاً شتى وبعض فواكهها لما تنضج، وينبوع في الجبل تنحدر منه المياه يسمونه نهراً، وهذا المكان يسمى وادي اليمانية، وبعد الغروب سرنا ساعتين ونصفاً ومررنا بالسولة، وفي الساعة ١٢ ليلاً نزلنا بمحل متسع... وفي يوم الخميس ٣ رمضان الساعة ١٠ رحلنا وسرنا بينصخور مرتفعة وعقباتصعبه حتى الساعة الثالثة والنصف من ليلة الجمعة، وبتنا بمحل يقال له بنية أو كوجك دره، وهناك بئر تسمى بئر عاب، وفي الساعة ١٠ من يوم الجمعة تابعنا السير، وبعد مضي نصف ساعة صعدنا عقبة حجرية أفضت بنا إلى مستو فسيح به أشجار وسرنا إلى الجنوب، وفي الساعة الثانية مررنا بالجديرة، وفي الساعة الرابعة بأم حمص، وفي الساعة السادسة بمحل يسمى الجيم، وفي الساعة ٧ والدقيقة ٤٠ وصلنا الطائف.

أقول: هذا الطريق طريق السيل، وإن لم يذكر مروره بالسيل، إلا أنه ذكره في أول كلامه حيث قال: (سالكين طريق السيل أو اليمانية)، وطريق السيل هو طريق اليمانية، كما أنه ذكر مروره ببئر البرود والسولة ووادي اليمانية وقال (١): والطريق الآخر، قالصادق باشا: بعد إقامتي بالطائف جملة أيام، رغبت في العودة إلى مكة وأعددت البغال اللازمة للسفر فيصباح يوم الخميس

ص: ٨٦

١٧ رمضان؛ لأنني عزمت على سلوك طريق الكرا، الذي لا يصلح للسير فيه سوى البغال، وفي الساعة العاشرة رحلنا من الطائف متتهجين سبيل الكرا ما بين الشمال والغرب، وبعد ربع ساعة دخلنا بين جبال واجتزنا جملةً محاجر، فأرض مرملة تحفّ بها الجبال ذات اليمين وذات الشمال، وفي الساعة ١٠ والدقيقة ٥٥ صعدنا إلى محجر بين جبال حجريّة صماء، ثم هبطنا إلى طريق مسوى يسمى بالجميرات أو الجبال الحمر، وفي الساعة ١٢ والدقيقة ٥ صعدنا إلى محجر آخر، ثم هبطنا ثمصعدنا فوق تلال متعددة، وبعد عشر دقائق غرّب الطريق، وبعد ٧ دقائق هبطنا إلى أرض واسعة، ونزلنا بها بجوار بئر تسمى بئر العسكر عذبة المياه، صلينا عندها المغرب وتابعا المسير الساعة ١٢ ونصفاً، وبعد ٥ دقائق مررنا بمجر صعب وجملة أخوار، وبعد عشر دقائق مررنا بحدائق وبيوت في وادي محرم، وفي الساعة ٢ والدقيقة ١٠ نفذنا من عقبه كأداء صعبة المرتقى لعلوها وكثرة أحجارها، ولهذا لا يمكن أن يمرّ منها إلّا فرد، ومرور التختروان من هذا الطريق متعذر، وبعد أن علونا صخوراً وانثنى الطريق عدة اثثناءات إلى الساعة ٣ والدقيقة ١٠ حيث وصلنا الهدة، وهو أعلى الجبل وهناك بيوت وبساتين وفواكه.. وفي الساعة ٩ والدقيقة ٣٠ ليلاً سرنا راكبين، وبعد ٥ دقائق مررنا بدرب الجمال على اليمين، وتركناه لكونه خاصاً بسير الإبل، وبعد ٣ دقائق إبتدا النزول من الجبل في درب ضيق صناعي غير منتظم كثير الانعطاف، وفي الساعة ٩ والدقيقة ٤٥ مررنا بعين جارية من الجبل في حوض مبنی وتدفق منه إلى الصخور.. وفي الساعة ١١ مررنا بماء جار عذب، وفي الساعة ١١ والدقيقة ٢٥ اجتمع الدربان، وفي الساعة ١٢ والدقيقة ٤٨ وصلنا الكرا آخر صعوبة في الجبل، وبعد أن مكثنا قليلاً لتصليح الأحمال سرنا، وكانت الساعة واحدة وربعاً من يوم الجمعة، وكان السير بانحدار خفيف وفي الساعة ٢ والدقيقة ٢٥ نزلنا بقعة مرملة تحيط بها الجبال، فملنا نحو الجنوب الغربي، وفي الساعة ٣ والدقيقة ١٠ وصلنا قهوة شداد، وفي الساعة ١٠

ص: ٨٧

و ١٥ دقيقة وصلنا وادى النعمان، وعلى اليمين مبدأ بناء مجرى عين زبيده، وفي الساعة ١١ والدقيقة ٨ وصلنا قهوة عرفات، وبعد الإستراحة قمنا الساعة ١ من ليلة السبت، وبعد ٥٠ دقيقة بلغنا جامع نمرة بعرفات، وفي الساعة ٢ والدقيقة ١٠ مررنا بين العلمين، وفي الساعة ٤ ليلاً دخلنا مكة المباركة.

أقول: هذا الطريق هو طريق الهدا ولم يذكر أنه مرّ على قرن ولا النخلة اليمانية، كما أنه ذكر مروره بجامع نمرة بعرفات وبين العلمين، اللذين هما حدود الحرم، واللذين مرّ ذكرهما في كلام الفاكهي، ومنه يتبين أنه نفس الطريق الذي ذكره الفاكهي لم يتغير. العياشي ذكر طريق الهدا (١)

وقد خرجنا إليها بعد العشاء على طريق الحاج إلى منى ثم مزدلفه ثم إلى بسيط عرفه... ثم ارتحلنا من هناك قرب طلوع الفجر سلكتنا مع طريق الساقية، التي تأتي من أصل الجبل إلى عرفات ثم إلى المشاعر ثم إلى مكة، ومنها تأتي المياه إلى مكة، وهذه من عمل بنى العباس.. وهي منصدقات زبيده بنت جعفر المنصور، هيصاعده مع وادى نعمان وهو وادى عظيم أفيح منحدر من جبل نجد، فلم نزل نساير هصاعدين إلى أن قربنا من جبل أكرى فعدلنا يمينا مع بعض تلك الهضاب..

فلما زالت الشمس وتوضأنا للصلاة، أخذنا فيصعود الجبل العظيم، الذي لا يماثله في عظمته جبل من جبال تهامة... ورأينا القروود به تصيح وتنب في أعالي تلك الصخور.. ثم ارتحلنا من ذلك المكان قرب صلاة الصبح وهبطنا عقبه هناك هي درن التي طلعتها بكثير إلا أنها وعرة، سلكتنا في شعاب ذات مياه غزيرة ونبت ملتف إلى أن خرجنا على قرن الثعالب الذي هو ميقات أهل نجد... وإزاءها قرية ذات مزارع وأشجار... جاوزناها قرب الطلوع سلكتنا بين تلول هناك فيصعود وهبوط واستواء إلى أن وصلنا بلدة الطائف.

وقال (٢): وخرجنا منه ليلة السبت قريباً من نصف الليل على طريقنا، التي

١- ٨١ مرآة الحرمين - ابراهيم رفعت باشا ١: ١٥٣.

٢- ٨٢ مقتطفات من رحلة العياشي - حمد الجاسر: ١٠٧.

ص: ٨٨

مررنا عليها ذهاباً، ووصلنا قرن الثعالب الذى هو ميقات أهل نجد بعد طلوع الفجر، ونزلنا حتى توصلنا وصلينا، وأحرمت من هناك بعمره... ثمصلينا الصبح فى الميقات وذهبنا ومررنا على القهوة، التى بتنا بها قبل، وعند طلوع الشمس انحدرنا مع العقبة الكؤود عقبه أكرى وتعجبنا من صعود إبل أهل ذلك البلد فيها وهبوطها بأحمال الفواكه الثقيلة.. وما وصلنا القهوة التى بسفح الجبل حتى اشتد النهار وحمى وطيس الهجير،... وما وصلنا وادى نعمان الأراك إلا بعد العصر، وسائرناه مع العشى مسaire الخل الرقيق... إلى أن وصلنا القهوة التى هى على حدّ بسيط من عرفات بين العشائين، ونزلنا بها فى أرغد عيش حول عين من الساقية تجرى على وجه الأرض، وصلينا صلاة العشاء وتعشينا ثم أغفينا إغفاءً، ثم ارتحلنا قريباً من ثلث الليل الآخر ومررنا بنمرة ثم بالمأزمين ثم بجمع ثم ببطن محسر كل ذلك ليلاً فطلع الفجر ونحن بمنى....

هذا الطريق هو طريق الهدا الذى يمرّ بوادى نعمان وجبل كرا وعرفات ونمرة، وهو كما ذكره الفاكهى والحربى لم يتغير، إلا أنه ذكر مروره بقرن الثعالب وقال: إنه ميقات أهل نجد. وهو اشتباه كما مرّ فى بيان قرن الثعالب أنه ليس الميقات، وأن الميقات هو قرن المنازل المار بالنخلة اليمانية، وهذا الطريق الذى ذكره لا يمرّ بالنخلة اليمانية، كما أنه قد أخطأ فى موارد أخرى، منها أنه سمى جبل كراب (أكرى)، وقال فى زبيدة: إنها ابنة جعفر المنصور، وذكر الهدى ولم يذكر اسمها لعله لم يعرفها، وسمى جبال السراة بجبال نجد، والسبب فى ذلك أنه رجل مغربى غير عارف بأسماء الأماكن.

البلادى: وكان طريق الطائف القديم يأخذ حيناً ثم يدعان ذات اليسار وهو أيضاً طريق نجد، كل هذا قبل فتح جبل كرا. وقال (١): وبعد قليل يأتيه من الجنوب الشرقى وادى كبير ذو روافد عديدة يسمى نخلة اليمانية، وقد أطلق عليه أخيراً اسم اليمانية، وبه عينان جاريتان هما

ص: ٨٩

الزيمه التي يمر بها طريق الطائف القديم، وسوله أسفل منها.

وقال: (١) فإذا انحدر سمي السيل وهو ميقات أهل نجد والمرحلة الثانية من مكة على نظام القوافل القديمه عن طريق نخلة اليمانية. وقال (٢): الشرائع عين في وادي حنين تبعد عن المسجد الحرام ٨٢ كيلو متراً وكانت أعمار منها الآن عندما كان طريق الطائف يمر بها. والبلادي ذكر طريق السيل الذي يمر على النخلة اليمانية ووادي حنين ويدعان، وقال: إنه الطريق القديم، كما ذكر أنه طريق الطائف ونجد قبل فتح طريق كرا.

الكردي (٣): مدينة الطائف أعظم مصيف في الحجاز، وأهل مكة لا يستغنون عن الطائف في الصيف مطلقاً، وللطائف طريقان: طريق قديم وهي عن طريق السيل، وهي طريق اليمانية، فبين مكة والطائف عن هذا الطريق بالجمال ثلاثة أيام ولا تزال السيارات إلى اليوم تسير في هذا الطريق، أما سير الجمال والدواب فقد بطل سيرها.

وللطائف طريق قديم عن طريق الهدا بفتح أوله وثانيه، وطريق الهدا يمر من عرفات فشداد فالكر (بضم الكاف وتشديد الراء) فجبل كرا بفتح أوله وثانيه فالهدا (بالفتح) فلعو وادي محرم فبجرة قرن بفتح أوله وسكون ثانيه فجبجب فمسرة فمعشى فالطائف. فتكون المسافة بين مكة والطائف عن طريق كرا الجديد حوالي ٨٥ كيلو متراً.

ثم إن الحكومة افتتحت طريقاً جديداً بين مكة والطائف عن طريق كرا، افتتحتها الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود في اليوم الثالث من شهر صفر سنة ١٣٨٥ هـ، وهذا الطريق الجديد يمر من عرفات فشداد فالكرا فالهدا فوادي محرم فبجرة قرن فجبجب فمسرة فمعشى الطائف، فطريق كرا الجديد هو المشى في نفس

١- ٨٤ أودية مكة- البلادي: ٥٢.

٢- ٨٥ أودية مكة- البلادي: ١٠.

٣- ٨٦ أودية مكة- البلادي: ٩.

ص: ٩٠

جبل كرا، وكلّ الجبل ملفات مسّفلة بالإسفلت. (١)

وقد مرّ في التعليقه رقم (١٦٦) ما ذكره الجاسر في تعليقه على كتاب المناسك للحربى: أنهما يلتقيان في وادى نعمان، فالتغير حصل في بدايته من جهه مكه فالطريق القديم يمرّ على عرفه من بطن نمرة، والطريق الجديد أخذ يمين اللأحجه حتى يمرّ بقرب الحسينيه والعبديه.

ونستخلص من هذه الأقوال أموراً:

الأول: أنّ كلا- الطريقين قديمان ومعروفان، وما ورد في بعض كلمات المتأخرين والمعاصرين من تعبيرهم عن طريق السيل بالطريق القديم؛ فلعله لكونه قبل تعبيده وفتح طريق كرا الجديد كان مهمولاً، ثم بعد فتح الطريق أهمل الأول وكثر سلوك الثاني لأنه طريق حديث معبد.

الثاني: أنّ الذين ذكروا الطريقين سواء كانوا من القدماء أو من المتأخرين لم يشيروا إلى كون الهدا أو وادى محرم هو قرن المنازل، حتى ولا أنه ميقات أو موضع إحرام أو طريق للحاج.

الثالث: كنا قد عرفنا مما تقدم أنّ قرن المنازل يمرّ على النخلة اليمانية وحنين ويدعان، والطريق الذى يمرّ عليهما هو طريق السيل الكبير، وموضع الإحرام على هذا الطريق هو السيل الكبير.

الرابع: تصريحهم أنّ قرن المنازل هو واقع على الطريق الأول وهو الطريق المسمى بطريق السيل.

الخامس: أنّ الطريق الثانى يمرّ على وادى نعمان والهدا وجبل كرا، وهى مواضع معروفة قديماً، ولم يشر أحد ممن ذكرها أنها من منازل الحاج ولا واقعه فى طريق الحاج، ولم يذكر أحد ممن ذكر الهدا إنها الميقات ولا واقعه فى طريقه. وسنذكر لك ما ذكره أصحاب المعاجم فى الهدا ووادى نعمان وجبل كرا.

ص: ٩١

مصادر البحث:

الأزهار الأرجية- الشيخ فرج العمران (ت)

أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه- عبد الله بن محمد بن إسحاق الفاكهي- تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهبش- ط الثانية ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م- نشر دار خضر للطباعة والنشر- بيروت.

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار- أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى- تحقيق رشدى الصالح ملحس- ط الثالثة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٣ م- نشر دار الأندلس- بيروت.

إرشاد السارى إلى مناسك ملا على القارى.

أطلس الطرق السعودية ودليل السياحة- زكى محمد على فارسى- ط الأولى ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م، الأغانى- أبو الفرج الأصفهاني.

الأم- محمد بن إدريس الشافعى.

أودية مكة المكرمة- عاتق بن غيث البلادى- نشر دار مكة- ط الأولى ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م

تاج العروس

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم- محمد طاهر الكردى- ط الأولى ١٣٨٥ هـ.

تاريخ الطبرى

تحفة الناسك بأحكام المناسك- سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب- ط ١٣٦٤ هـ- مكة المكرمة.

الجواهر- الشيخ محمد حسن النجفى- ط دار الكتب الإسلامية قم ١٣٧٣ هـ

حاشية أخبار مكة للفاكهي- عبد الملك بن عبد الله بن دهبش [مع كتاب

ص: ٩٢

أخبار مكة الفاكهى].

حاشية أخبار مكة للأزرقى - رشدى الصالح ملحق - [مع كتاب أخبار مكة للأزرقى.

حاشية الجامع الصحيح

حاشية كتاب المناسك للحربى - حمد الجاسر [مع كتاب المناسك].

الروض المعطار - محمد بن عبد المنعم الحميرى (ت...) - ط مكتبة لبنان.

الحدائق الناضرة - الشيخ يوسف آل عصفور - ط جماعة المدرسين - قم

رياض المسائل - السيد على العاملى - ط جماعة المدرسين ١٤١٥ هـ

السيرة النبوية - ابن هشام

شرح السيوطى على النسائى - السيوطى

صحيح اللغة -

صبح الأعشى - أبو العباس القلقشندى - ط وزارة الثقافة والإرشاد القومى - مصر

فقه الإمام الصادق - محمد جواد مغنیه

القاموس المحيط - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى - ط الأولى - دار إحياء التراث العربى - بيروت - ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

كشف اللثام - الطبعة الحجرية

لسان العرب - ابن منظور - ط الأولى الجديدة المحققة - بيروت ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

مختار الصحاح

مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى - تحقيق على محمد الجاوى - ط الأولى

١٣٧٤ هـ، ١٩٥٥ م - نشر دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت

ص: ٩٣

- مرآة الحرمين- اللواء إبراهيم رفعت باشا- ط الأولى- مط دار الكتب المصرية- القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥ م
- المصباح المنير- أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ط الثانية ١٤١٤ هـ- نشر دار الهجرة- إيران
- معالم مكة التاريخية- عاتق بن غيث البلادي- نشر دار مكة- ط الثانية ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م
- معجم البلدان- ياقوت بن عبد الله الحموي- ط دار إحياء التراث العربي- بيروت
- معجم متن اللغة- أحمد رضا
- معجم مقاييس اللغة
- المغازي
- المغرب- المطرزي
- المطالعة السعودية- عبد الجبار الرفاعي
- كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة- إبراهيم بن إسحاق الحرابي تحقيق حمد الجاسر- نشر دار اليمامة للبحث والترجمة- الرياض.
- مقتطفات من رحلة العياشي (ماء الموائد)- لعبد الله بن محمد العياشي (١٠٩٠ هـ)- حمد الجاسر- ط الأولى ١٤٠٤ هـ، ١٠٨٤ م- نشر دار الرفاعي- الرياض
- مواقيت الحج والعمرة المكانية- مساعد بن قاسم الفالح- ط الأولى ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣ م نشر مكتبة المعارف- الرياض
- ميقات الحج (مجلة)- عدد ٥- السنة الثانية ١٤١٧ هـ
- النهاية- ابن الأثير

ص: ٩٤

الهوامش:

ص: ٩٧

الفور والتراخي في فريضة الحج

ص: ٩٨

الفور والتراخي في فريضة الحج

محسن محمد

إن الأحكام الشرعية تبنى على كل من الأمر والنهي، اللذين بهما يتم التفريق بين ما أرادته الشريعة المقدسة من حلال، وما وضّحته من حرام ونهت عنه، وبالتالي يتسنى للمكلف - إذا ما عرف ذلك - الخروج عن عهدة التكاليف الشرعية، التي ترتبت عليه بحكم كونه مسلماً مطيعاً منقاداً لتعاليم السماء.

والباب الوحيد إلى ذلك هو الطاعة، التي تتحقق بامتثاله أوامر الله تعالى وبانتهاؤه عما نهى عنه، وإلا عُيّد عاصياً يستحق العقاب في الدنيا وفي الآخرة.

والذي يعنينا ويهمنا في هذه المقالة المختصرة - التي أحاول أن أبعدها مهما أمكن عن التطويل في ذكر الخلافات العريضة، التي لا ينجو منها أي موضوع سواء أكان أصولياً أم فقهياً أو... - هو الأمر دون النهي، وبالذات الأمر المطلق دون المعلق على شيء سواء أكان هذا الشيء شرطاً أو صفة.. وما يدور حوله من أنه مبني على الفور أو التراخي أو لا يعني هذا

ص: ٩٩

ولا ذاك، وإنما هو لطلب الحقيقة والماهيئة فقط، أو أنه يدل على القدر المشترك بين الفور والتراخي.. ثم الانتقال بعد ذلك ببيان موجز إلى واحد من آثار هذه المسألة وهو:

فريضة الحج، وهل هي مبتنية على الفور أو على التراخي، والتعرض إلى أقوال الفرق الإسلامية وآراء فقهاءها في هذا الخصوص. فقد اتفقت كلمة الفقهاء وأهل اللغة على أن الأمر يدل على الوجوب إذا ما خلا من القرينة، التي قد تصرفه وتبعده عن الوجوب، الذي هو حقيقة فيه.

لغة «الأمر حقيقة في الإيجاب بمعنى الإلزام وطلب الفعل وإرادته جزءاً».

وشرعاً «الأمر حقيقة شرعية في الوجوب، الذي يترتب على مخالفته استحقاق الإثم والعقاب» (١).

قال تعالى: (أفحصت أمري) (٢)

ولا معصية بلا وجوب: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) (٣)

فالذم والتحذير والتهديد والوعيد.. كلها تتوجه لمن أعرض وتولى عمّا وجب عليه أداؤه.. وكما أن ذيل الآية هو الآخر (.. أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) يبين أن الفتنة والعذاب الأليم يترتان على مخالفة الأمر. وهذا قد يُعدّ أدلّ نصّ على أن الأمر يقتضى الوجوب.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولا- أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» فلولا تفيد انتفاء الأمر لوجود المشقة، وانتقل إلى الندب حيث لا مشقة فيه. والأمر هنا للإلزام والوجوب لو وقع.

والوجوب ثابت للأمر- سواء أكان ثبوته بالوضع أم بالانصراف لغلبة الاستعمال- ولا يحمل على الندب إلبقريته، هذا وإن الوجوب أيضاً ثابت للأمر سواء أكان الأمر مطلقاً أم كان مقيداً بوقت معين أو معلقاً على شرط أو صفة.. ولكن الأمر المطلق أفرد دون غيره؛ لأنه محل النزاع والخلاف في مسألة الفور

١- ١ سعد الدين التفتازاني، انظر اصول الفقه الإسلامي: ٢٢١.

٢- ٢ طه: ٩٣.

٣- ٣ النور: ٦٣.

ص: ١٠٠

والتراخي اللذين هما محل كلامنا.

الفور لغته: من فار يفور فوراً وفوراناً، وهو مأخوذ من قولهم: فار الماء يفور فوراً: أى خرج من الأرض متدفقاً، ومن فارت القدر أى اشتد غليانها، وسارع ما فيها إلى الخروج..

ثم استعمل في الحالة التى لا بطء فيها..

فالفور: العجلة والسرعة، ولهذا يعبر بالفور عن الغضب والحدة؛ لأن الغضب يسارع إلى البطش بمن غضب عليه، وهو مصدر؛ يعبر به عن أول الوقت، فيقال: أتيت من فوري، ورجعت من فوري، وفعلت ذلك من فوري، وفوراً وفور وصولي، أى فى الوقت نفسه أو فى أول الوقت، وقبل سكون الحالة أو الأمر الذى أنا فيه، والذى لا يتحمل الابطاء ولا التراخي.

وفى الآية (..) ويأتوكم من فورهم..) أى من وقتهم أو ساعتهم.. (١).

وأما اصطلاحاً: فالمقصود بالفور هو: كون الأداء فى أول أوقات الإمكان (٢) أو المبادرة إلى تنفيذ الأمر بمجرد سماع التكليف مع وجود الإمكان، وإلا كان المكلف مؤاخذاً.

التراخي لغته: مصدر تراخي من رخا... رخاء: أى اتسع فهو رخو، ورخي الشىء رُخاً ورُخاءً أيصار رخواً وليناً ومنه الآية (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) أى تجرى لينه طائعه..

ويقال: أرخى له العنان أى خلّاه وشأنه.. وتراخي: فتر، وتأخر، وتباطأ، ولهذا يقال: تراخي عن الأمر: أى تقاعد وتقاوس عنه. وتراخت السماء: أبطأت بالمطر..

وتراخي ما بينهما: تباعد.. فيقال: إن فى الأمر تراخياً، أى: امتد زمانه، وفى الأمر تراخي، أى: إن فيه فسحةً وامتداداً.. (٣).

وأما اصطلاحاً: فهو كون الأداء متأخراً عن أول وقت الإمكان إلى مظنة الفوت (٤).

أو تخيير المكلف بين الأداء فوراً عند سماع التكليف، وبين التأخير إلى

١- ١ آل عمران: ١٥، وانظر مادة: فور فى المصباح وفى لسان العرب والقاموس المحيط والمنجد والمعجم الوسيط...

٢- ٢ انظر التعريفات للجرجاني مادة فور، واصول الفقه الإسلامى ١: ٢٢٩ للزحيلي.

٣- ٣ انظر مادة: رخو فى لسان العرب، والقاموس والمحيط والمصباح المنير والمنجد والمعجم الوسيط...

٤- ٤ انظر كشاف مصطلحات الفنون ٣: ٥٩٤.

ص: ١٠١

وقت آخر مع ظنه على أدائه في ذلك الوقت (١).

وأخيراً فالفور إذن ضد التراخي بالضبط.

المراد من الفورية:

وهل تلك الفورية لغه هي المطلوبة بعينها، أي أن يبادر المكلف من فوره، ويُسرِع لامتنال ما أمر به بلا أدنى تأخير، وإلا لا يعدّ ممتثلاً

بل يعدّ عاصياً يستحق العقاب؟

وهل التراخي لغه هو المطلوب أيضاً بكلّ معانيه التي ذكرت؟

الذي يظهر أن هاتين الكلمتين استخدمتا في علم الاصول والفقه لا بمعناهما اللغوي الحقيقي بدقته وصرامته وشدته. فالفورية لا تعنى المبادرة بشكل دقيق لمعنى السرعة والتعجيل وبلا فصل بين الأمر والامتنال، فتسبب بذلك احراجاً ليس للمكلف قدرة عليه، وبالتالي قد يصدق عليه أنه تكليف بما لا يطاق..

ولا التراخي استعمل بشكله الممتد السمع، الذي لا يقف عند حدّ معين، وبالتالي يكون تضييعاً للأمر ولأهميه التكليف وللغرض منه وللمصالح المترتبة عليه وعلى امتثاله.. فلا ذاك ولا هذا، بل المطلوب هو ما تعارف عليه العرف وما اطلق عليه بالفورية العرفية، التي لا تعنى بحال الشدة والصرامة في التلبية والامتنال كما هو معنى الفورية لغه، ولا تعنى التسبب الذي يؤدي إلى تفويت الغرض كما هو معنى التراخي لغه.

فإذا ما أتى المكلف بامتنال الأمر فوراً فوراً وبلا أدنى تراخ فقد عدّ ممتثلاً واستحق الأجر كلّه والثواب كلّه. وإذا تباطأ وتأخر وإن كان لزم من قليل فقد عدّ عاصياً يجب إنزال أفسى عقوبه به. لا، ليس هذا هو المطلوب، وليست الشريعة سيفاً صارماً على الناس أبداً، وهو يتنافى مع كونها رحمةً للعالمين وكونها الشريعة السهلة السحاء.. فالفورية العرفية تلك هي الحلّ الأسمى لمعنى الفور، فإذا قال المولى لعبده: افعل كذا، فعل ولو بعد

ص: ١٠٢

حين- بشرط أن لا- يترتب على هذا تفويت للغرض- فقد امتثل واستحق الأجر والرضا. وإذا قال له: افعل كذا، فلم يفعل في زمن يتناسب وذلك الأمر وهدفه ولغته ولحنها كان للمولى أن يقول له: لم لم تفعل؟ وكان له الحق في تقييده بل وفي عقوبته؛ لأن عدم فعل العبد وعدم امتثاله يسبب- قطعاً- تفويتاً لمراد المولى وتضييعاً للملاك أو للمصلحة.

ثم إن العرف يميز بين أوامر تتطلب الإسراع والتعجيل في امتثالها وإلا يفوت الغرض منها، وبين أوامر يحتاج امتثالها إلى التأخير وقتاً ما لإعداد المقدمات التي يكتمل بها ذلك الامتثال، فالأول مثل قول السيد لعبده: اسقني الماء. كان المراد به الفور بقرينة أن طلب الشرب عادة- والعادة حاكمة- عند الحاجة إلى الماء. والثاني مثل قول السيد لعبده: سافر إلى المكان الفلاني، فلا بد- كي يتم السفر- من تهئية لوازمه.. فالأوامر- إذن- تختلف من حيث لغتها ولحنها وغرضها ...

و بالتالي تحتاج إلى وقت- قد يطول وقد يقصر- لتنفيذها.

فالصحيح- إذن- أن كلاً من الفور والتراخي يبني على المتعارف، ولا يصح التأخير الذي يدخل تحت الإمال وقله الاعتناء، كما يصح مع عدم القرينة على الفور.

تحرير محل النزاع

ثم إن هذه الفورية وهذا التراخي، وكون الفعل يدل على أي منهما أو لا- يدل.. وقع النزاع فيه بين الأصوليين من الفريقين قديماً وحديثاً على مذاهب يمكن حصرها في ثلاثة، وكل فريق أو مذهب جاء بأدلته على مختاره، نأتى على ذكر ما تيسر لنا منها بشكل مختصر؛ لنصل إلى أحد من شئ أو آثار هذه النزاع، وهو أداء فريضة الحج، يقول الدكتور الزحيلي: ومنشأ الخلاف كلامهم في الحج، هل هو على الفور أو التراخي؟ وكذا غيره.. (١) وقبل التعرض لذلك لا بد لنا من أن نحزر محل النزاع أولاً بمقدمات، فنقول:

ص: ١٠٣

إن الأوامر أربعة أقسام:

١- الأمر المطلق: وهو الخالي من أي قرينة أو قيد..

٢- الأمر المؤقت: أي المقيد بوقت ثابت محدد ومعين، له أول وله آخر؛ كالصيام الذي يمسك فيه المكلف طيلة الوقت ويستغرق جميع أجزائه.

٣- الأمر المعلق على شرط:

مثل (وإن كنتم جنباً فاطهروا) (١).

وغالباً ما يأتي مستعملاً مع أدوات الشرط.

٤- الأمر المعلق على صفة:

مثل: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما..) (٢)

، (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة) (٣)

وقد اتفقت كلمتهم على أن الأمر المطلق أي الأول- دون الأوامر الثلاثة الأخرى- هو محل النزاع. كما أن هذا النزاع يتم عند من يذهب إلى أن مطلق الأمر لا يقتضي التكرار كالشيخ المفيد وتبعه الشيخ الطوسي..

وغيرهما الكثير من العامة والخاصة.

أما على مذهب القائلين باقتضائه للتكرار، فإن الفورية تعدّ من ضروريات الأمر، ولأنه يستغرق الأوقات كلها بالفعل المأمور به (٤).

بعد هذا نقول: إن أقوال الفرق الإسلامية يمكن درجها تحت النقاط التالية:

١- المالكية والحنابلة في ظاهر المذهب والكرخي من الحنفية وبعض الشافعية قالوا: إن مطلق الأمر أي المجرد عن قرينة الفور أو التراخي هو للفور- ومعنى الفور.. الشروع في الامتثال عقب الأمر من غير تأخير ولا فصل، وقد نسب الشيرازي للكرخي أن مذهبه عدم الفورية.

٢- الحنفية على الصحيح من المذهب: إن مطلق الأمر على التراخي، فلا يثبت حكم وجوب الأداء على الفور بمطلق الأمر.

ومعنى التراخي.. تأخير الامتثال عن وقت الأمر زمنياً يمكن إيقاع الفعل فيه فصاعداً. وهو مختار أعيان المعتزلة كالقاضي عبد الجبار،

١- ١ المائدة: ٦.

٢- ٢ المائدة: ٣٨.

٣- ٣ النور: ٢.

٤- ٤ وتتميماً للفائدة نقول: إن الجميع متفقون على أنه لا ريب في أن الخطاب لو كان مقيداً بقرينة تقتضي التكرار، وجب فيه التكرار كما لو قال: صلّ أبداً وكذلك لو كان الخطاب مقيداً بقرينة تفيد المرة الواحدة، حمل على الفعل مرة واحدة، وإنما الخلاف فيما إذا ورد الخطاب مطلقاً فإنه يمكن أن نقسم آراء الفقهاء والمتكلمين في هذه الصورة إلى أربعة وهي: ١- الأمر بالشيء لا يقتضي الفعل إلا مرة واحدة ولا يحمل على ما زاد إلا بدليل. ٢- الأمر بظاهره يقتضي تكرار الشيء أبداً، أي لو توجه الأمر بشيء، فإن على المكلف

أن يكره مدّة حياته بشرط الإمكان.. نأمل أن نتناول فى المقالة القادمة «المرة والتكرار» وهو موضوع اصولى وعلاقته بفريضة الحج.

٣- الوقف: وقد اختلفوا فى معنى الوقف ومفهومه، فذهب جماعة إلى أنهم توقفوا فى الصيغة المطلقة فى مقدار الفعل حتى يقوم الدليل على المرة أو الكلى أو على مقدار معلوم. وقال الشريف المرتضى الذريعة ١: ١٠٠: «أراد المرة بلا شك، وما زاد عليها لست أعلم هل أرادته أو لم يردده. فأنا واقف فيما زاد على المرة لا فيها نفسها». ٤- الأمر بالشىء لا يقتضى التكرار، حيث يعتقدون أن الأمر إنما يفيد طلب الماهية من دون دلالة على الوحدة أو الكثرة، ولكن بما أن الطبيعة لا تحصل فى الخارج إلّا بإحضارها مرة واحدة، صارت المرة من ضروريات الإتيان بالمأمور به، وإلّا فإن الأمر لا يدل بذاته على المرة أو التكرار. فإن مختار الشيخ المفيد قدس سره التذكرة: ٣٠ وتبعه على ذلك الشيخ الطوسى، هو أنه «لا- يجب ذلك أكثر من مرة واحدة، ما لم يشهد بوجوب التكرار الدليل» أما الشريف المرتضى، فقد ذكرنا رأيه انظر فى هذا الهامش كله مع أصحاب الأقوال: العدة فى أصول الفقه للشيخ الطوسى - الهامش: ١٩٩-٢٠٠.

ص: ١٠٤

وابن حزم الأندلسي، وقد ذكر هذا القول البيضاوي ونسبه لقوم، واختاره السرخسي في أصوله. وقد استدل هؤلاء بأن هناك فرقاً بين الأمر المقيّد والأمر المطلق، فإن قول القائل لخدمته: «افعل كذا الساعة» يوجب الائتمار على الفور، وهذا أمر مقيّد، وقول القائل: «افعل» مطلق، وبين المطلق والمقيّد مغايرةً ومنافاةً، فلا يجوز أن يكون حكم المطلق ما هو حكم المقيّد، فيما يثبت التقييد به؛ لأن في ذلك إلغاءً لصفة الإطلاق، وإثبات التقييد من غير دليل، وليس في الصيغة الأمر المطلق ما يدل على التقييد، في وقت الأداء، فيكون على التراخي كالأمر بالكفارات وقضاء الصوم والصلاة.

٣- الشافعية على الراجح: إن الأمر المطلق لا يفيد الفور ولا التراخي.

وقد استدل هؤلاء؛ بأن ورود الأمر مع الفور، ومع عدمه، ويصح تقييده بالفور والتراخي، فيجعل حقيقة في القدر المشترك، وهو طلب الإتيان بالمأمور به، منعاً من الاشتراك والمجاز.

وقد رجح بعض أن الأمر لا يدل بذاته على الفور أو التراخي، بل يستفاد ذلك من القرائن، فمن قال لغيره: «اسقني» كان المراد به الفور بقرينه أن طلب الشرب عادةً يكون عند الحاجة إلى الماء، وإذا كان المأمور به مطلقاً عن الوقت كالزكاة والحج وقضاء الصوم والصلاة، وأداء الكفارات، فيجوز فيه التأخير، ولكن المبادرة إلى الفعل أولى وأحوط، قبل مباغته الموت، وانتهاء الأجل قبل الأداء لقوله تعالى: (فاستبقوا الخيرات) (١)

الإمامية:

- ذهب فريق منهم إلى أن فعل الأمر المطلق مبني على الفور والتعجيل كالشيخ المفيد والشيخ الطوسي وأبو الحسن الكرخي المتكلم الفقيه..

- فيما ذهب السيد المرتضى إلى أنه مشترك بين الفور والتراخي، أي

١- ١ انظر في هذا كله: الموسوعة الفقهية- مصطلح أمر، واصول الفقه الإسلامي للزحيلي، الأمر، والآية البقرة: ١٤٨.

ص: ١٠٥

مشترك لفظي وضع بوضعين، لهذا يحتاج إلى دليل؛ لكي يعين لنا المراد منه: الفور أو التراخي.

- بينما ذهب فريق ثالث إلى أن الفعل المطلق أى الأمر ليس فيه دلالة على الفورية ولا- على التراخي، بل كل ما فيه هو دلالة على مطلق الفعل أى على طلب حقيقته أو طبيعته ومن غير فهم شيء من الأوقات والأزمان (١).. وأن كلاً من الفور والتراخي أمران خارجيان عن تلك الطبيعة، أو أن الفور والتراخي منصفاته، التي هي صفات متقابلة، فلا- دلالة له عليهما؛ لأن الموصوف بالصفات المتقابلة لا يدل على واحد معين منها.

هذه خلاصة الآراء الثلاثة، والأقوى فيها والمشهور الثالث الذي عليه أكثر العلماء ومنهم صاحب الشرائع المحقق الحلبي، والعلامة الحلبي وصاحب المعالم وغيرهم (٢).

أدلة القائلين بالفورية:

لقد وجدت أن هناك أدلة مشتركة بين الإمامية وباقي المذاهب الإسلامية الأخرى نكتفي بها ونوجزها وأجوبتها بما يلي:

* إن الله سبحانه وتعالى ذم إبليس حينما امتنع عن السجود لآدم عليه السلام بقوله: (... ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) (٣)

. فلو لم يكن الأمر للفور لما استحق إبليس الذم.

والجواب: أن هذا الأمر بالسجود لم يكن بذاته يدل على الفور، وإنما لتقيد الأمر بالوقت المحدد وهو قوله تعالى: (فإذا سويته ونفخت

فيه من روحي فقعوا له ساجدين) (٤)

. كما فيه قرينتان أخريان تدلان على الفور، إحداهما:

الفاء في قوله فقعوا، والفاء لغه تفيد التعقيب، والثانية: فعل الأمر نفسه:

فقعوا له ساجدين، فالفعل اذن لا يدل بذاته في الآية: (ما منعك ألا تجسد إذ أمرتك) على الفورية بل بالقرائن وبالتالي فالآية لا تصلح

دليلاً على الفور.

* قوله سبحانه وتعالى:

١- ١ انظر الواقية في اصول الفقه للفاضل التوني: ٧٨.

٢- ٢ معالم الدين للعامل الجباعي: ١٥٠-١٥٢، العدة للطوسي ١: ٨٥.

٣- ٣ الأعراف: ١٢.

٤- ٤ الحجر: ٢٩.

ص: ١٠٦

(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) (١)

فالمغفرة فعل الله تعالى، والمراد إيجاد سببها، إتيان الواجبات وترك المحرمات وعلى قول: المسارعة بالتوبة والندامة التي هي واجبة بحكم العقل، وليس المراد منها الأفعال الخارجية من الواجبات والمستحبات (٢) فتجب المسارعة والتعجيل إلى فعل المأمور به وهو سبب المغفرة، وتحقق هذه المسارعة وتصدق إذا اتصفت بالفورية.

والجواب: أن هذه الآية لا تعين على الفورية أبداً، وإنما تدل على التراخي؛ لأن المسارعة لا تتحقق ولا تصدق إلا إذا كان الوقت موسعاً أو كان هناك مستحب، أما إذا كان هناك واجب وبالذات إذا كان مضيئاً فلا تتصور المسارعة وفضلها، وإنما هو امتثال لا بد منه، وليس فيه اختيار ومبادرة يوجب الثناء والمدح.

* بما أن النهى طلب ويفيد الفور، فأيضاً الأمر طلب مثله وبالتالي يفيد الفورية. إضافةً إلى أن الأمر بالشىء يقتضى النهى عن ضده «كما فيصل معناه لا تترك الصلاة»، وبما أن النهى يفيد الفورية وهذا من المسلمات، كما فى لا تسرق، فالأمر أيضاً- قياساً- يقتضى الفورية.

الجواب: صحيح أن النهى يفيد الفور وإلا- يفقد غرضه وهو دفع المفسدة. ولكن قياس الأمر عليه قياس مع الفارق، حيث إن الأمر لا يفيد التكرار هذا أولاً. وإن القياس خاصة فى باب اللغة باطل ثانياً، وثالثاً أن النهى يفيد الفورية إذا كان مستقلاً كما فى «لا تغتب» بعكس النهى الوارد فى ضمن الأمر الذى لم تثبت الفورية له، وبالتالي فالنهي تابع له.

ثم هناك فرق بين الأمر المقيد والأمر المطلق، فإن المولى إذا قال لعبد: «اسقنى الماء» فإن هذا مقيد بالحاجة إلى شرب الماء، التى لا تتحمل التأخير، أو قال له: افعل الشىء الفلانى الآن، فتجب المبادرة من المكلف إلى أن يمثل كلاً منهما، فهذا حال الفعل المقيد. أما المطلق مثل

١- ١ آل عمران: ١٣٣.

٢- ٢ محاضرات فى اصول الفقه- الفياض، من تقارير السيد الخوئى.

ص: ١٠٧

(افعل) فبينه وبين المقيد منافاه ومغايرة، ولهذا لا- يصح أن يكون حكم المطلق حكم المقيد وهو الفور؛ لأن في هذا إلغاء لصفة الاطلاق وإثبات التقييد من غير دليل..

بعد أن اطلعنا عن أدلة القائلين بالفورية وأدلة الراضين لها وقد تجلت في إجاباتهم على تلك الأدلة، التي يمكن أن تكون أدلتهم على عدم الفورية، بل على أن الأمر المطلق يدل على طبيعي الفعل أو ماهيته وحقيقته فقط، وأن هذه الطبيعة قد تتحقق بالفور وقد تتحقق بالتراخي من أدلة خارجية. ننتقل إلى رأى السيد المرتضى:

رأى السيد المرتضى:

ويبدو أن السيد في رأيه هذا قد تفرّد به في دائرة الفقه الإمامي، في حين وجدت في المذهب الشافعي من يذهب المذهب نفسه (١). يقول السيد: إن الأمر المطلق مشترك بينهما (٢) أي بين الفور والتراخي، فيتوقف في تعيين المراد منه على دلالة تدل على ذلك. ومعنى هذا أن الأمر وضع بوضعين، مرة وضع ويُرَاد منه الفور، واخرى وضع ويُرَاد منه التراخي كما هو شأن الألفاظ المشتركة الأخرى عند اطلاقها، ويحتاج إلى دليل خارجي لتمييز أي المرادين مطلوب.

وقد استدل السيد المرتضى على مختاره بدليلين:

الأول: أن الأمر قد يرد في القرآن واستعمال أهل اللغة، ويُرَاد به الفور، وقد يرد ويُرَاد به التراخي، وظاهر استعمال اللفظة في شيئين، يقتضى أنها حقيقة فيهما، ومشاركة بينهما.

أي أنه استعمل مرةً وأريد به الفورية، كما استعمل أخرى وأريد به التراخي، واستعمال اللفظ في مرادين أو معنيين حاله حال استعمال اللفظ الواحد في معنى واحد ومراد واحد، فإن الأصل في الاستعمال هذا الحقيقة. واجيب عن ذلك بأن هذا يتم إذا فقد الدليل على المجاز، أما إذا وجد

١-١ أصول الفقه الإسلامي، للدكتور الزحيلي ١: ٢٣١.

٢-٢ الذريعة ١: ١٣٢، معالم الدين للجباي: ١٥٨-١١٥٩.

ص: ١٠٨

الدليل هذا، فلا نستطيع أن نتمسك بقاعدة الأصل في الاستعمال الحقيقية.

ثم إن الأمر مستعمل فيما هو أعم من الفورية والتراخي كالقدر المشترك..

فلا بد من انضمام شيء آخر، لتفهم منه الخصوصية المرادة كوجود القرينة، وإنما يقتضى أن يكون حقيقة فيهما إذا كان مستعملاً بمجرد دون شيء آخر.

يقول صاحب المعالم: إن الذي يتبادر من اطلاق الأمر ليس إلّا طلب الفعل، وأما الفور والتراخي فإنهما يفهمان من لفظه بالقرينة.

الثاني: أنه يحسن - بلا شبهة - أن يستفهم الأمر - مع فقد العادات والأمارات - هل أريد منه التعجيل أو التأخير؟ والاستفهام لا يحسن إلّا مع الاحتمال في اللفظ.

أى أن المولى لو أمر عبده بشيء، فهنا يجوز للعبد أن يسأل، أتريده فوراً أم لا؟ كما أنه يصح للمولى أن يجيب عبده بأنى أريد فوراً أو على التراخي.. فهذا دليل على أن الأمر وضع لكليهما، وليس لواحد منهما وإلّا لا يصح الاستفهام.

والجواب بأن العبد إنما سأل مولاه لاحتمال أن يكون هذا الأخير أراد المعنى الحقيقي أو المجازى من طلبه.

يقول صاحب المعالم: ويكفى في حسن الاستفهام، كونه موضوعاً للمعنى الأعم، إذ قد يُستفهم عن أفراد المتواطى لشيوخ التجوز به عن أحدهما فيقصد بالاستفهام رفع الاحتمال.

ولكن يمكننا أن نقول: إذا لم يتبادر من الفعل المطلق إلّا طلب الحقيقة، فلماذا الاستفهام؟

ثم إنه وحسب مقدمات الحكمة أن العاقل ما يريد ي قوله، ويقول بوضوح، فلا داعى منه لهذا الخلط أو الغموض فى الطلب الذى يؤدى للسؤال.

كما أن من النادر أن يقع مثل هذا الاستفهام أتريد الحقيقة أو المجاز، أتريد الأسد الحقيقى أم الرجل الشجاع؟

هذا وأن السؤال قد يقع حتى

ص: ١٠٩

يرفع الغموض عن طلب المولى الذى قد يكون يريد طلب طبيعة الفعل وحقيقته، لا- فقط المعنى المجازى أو الحقيقى أو الفور أو التراخي..

وأخيراً فإن الراجح هو أن الأمر المطلق لا يدل على الفور ولا على التراخي، بل إن كليهما يستفادان من قرائن وأدلة خارجية لا من الفعل بذاته، وعلى هذا أكثر العلماء..

بعد هذه النبذة عن الفور والتراخي والنزاع فيهما، ننتقل إلى معرفة ما إذا كانت فريضة الحج التى هى سبب من أسباب هذا الاختلاف فى الآراء؛ حول الفور والتراخي لنرى ما إذا كان فرضها أو وجوبها يقتضى الفورية فى أدائها أم التراخي.

علماً أن من أسباب هذا النزاع و آثاره أموراً أخرى كأداء الزكاة و قضاء الصوم والصلاة .. وهل كل واحدة من هذه وجبت على الفور أو التراخي؟

الإمامية:

مع أن الخلاف وقع بين فقهاء الإمامية- كما بيناه- فى مسألة أن الأمر المطلق يدل- بذاته- على الفور أو التراخي، أو لا يدل على هذا ولا ذاك، وإنما يدل على حقيقة الفعل فقط، وليس فيه دلالة على الفورية أو التراخي لا بحسب مادته ولا بحسب صيغته، وهما خارجان عنه، أو هو مشترك لفظى وضع للفور وللتراخي، ويحتاج إلى دليل لتمييز المراد منهما.. إلّا أنهم اتفقوا على أن فريضة الحج إذا ما توفرت شرائطها واستقرت تجب على الفور.

المراد بالفورية فى فريضة الحج:

هو أنه يجب على المكلف- الذى تحققت استطاعته، واستقر عليه الحج- الإتيان بالحج والمبادرة إليه فى أول عام استطاعته، وليس له تأخير عنه، فالتأخير- مع توفر الشرائط- يعدّ معصيةً كبيرةً موبقّةً (١)، وإن حجّ بعد ذلك، وكان حجّه مجزياً. والظاهر أن المراد من وجوب الفورية والتعجيل بأداء الحج حتى لا يقع المكلف فى تلك المعصية إذا ما

١- ١ الجواهر ١٧: ٢٢٤، فى حالة حصول الاستخفاف المؤدى إلى الترك، وكما فى مهذب الأحكام للسبزواري ١٢: ١٧.

ص: ١١٠

تراخي وتباطأ في أدائه لفريضة الحج، لا عدم صحة الحج منه في الزمن المتراخي أي في السنوات التالية لعام استطاعته. وإذا اطلعنا على أدلة القائلين بالفور- على تقدير تماميتها- فهي لا تدل على أكثر من العصيان بالتأخير، لا على عدم الصحة. إذن يجب على المكلف- الذي ترك أداء فريضة الحج في عام استطاعته أو أخرها- أن يبادر لأدائها في العام الثاني وهكذا. فالفورية أو المبادرة والتعجيل تبقى تلاحق المكلف في كل سنة ما دام لم يؤد الفريضة، التي استقرت عليه بسبب استطاعته. وقد قامت على ذلك أدلتهم، التي لا يخلو بعضها من مناقشة وردّ بينهم:

القرآن الكريم:

(.. ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) (١)

فاللام في قوله تعالى (ولله) هي لام الإيجاب والإلزام، ومع كونها كذلك، فقد أكد كل من الإيجاب والإلزام ب (على) التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب، فإذا قال العربي: لفلان عليّ كذا، فقد وكده وأوجبه. إذن ذكر الله تعالى الحج ووجوبه بأبلغ ألفاظ الوجوب.. (٢).

والوجوب المذكور على الفور ولا يجوز معه التأخير.. والذي يدل على أنه على الفور عموم قوله تعالى: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) أي ما هو سبب المغفرة، والحج كذلك (٣).

ونظراً لأن الوجوب في هذه الآية مشروط بالاستطاعة أو متعلق على الاستطاعة فهو ليس أمراً مطلقاً حتى يدخل في النزاع الدائر- كما ذكرنا- حول كونه يدل على الفور بذاته أو لا، أو أنه يدل فقط على الماهية.. فهو إذن خارج عن محل النزاع وبالتالي يمكن اتصافه بالفورية لأنه مقيد.

* (وأتموا الحج والعمرة) (٤)

١- ١ آل عمران: ٩٦.

٢- ٢ الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٤٢.

٣- ٣ كنز العمال- كتاب الحج ١: ٢٦٦.

٤- ٤ البقرة: ١٩٢.

ص: ١١١

والأمر للوجوب، ويدل على طلب الماهية.

الروايات:

١- قول هصلي الله عليه وآله: «مَن وجب عليه الحج فلم يحج فليمت يهودياً أو نصرانياً» وقد أتى بقاء التعقيب ورتب الوعيد وهو صريح في الفورية (١).

٢- عن أبي عبد الله عليه السلام: قال الله تعالى: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) قال: هذه لمن كان عنده مال وصحة، وإن كان سوفه للتجارة فلا يسعه، وإن مات على ذلك فقد ترك شريعته من شرائع الإسلام إذا هو يجد ما يحج به..

٣- عن معاوية بن عمار قال:

سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل له مال ولم يحج قط، قال: هو ممن قال الله تعالى: (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال: قلت: سبحان الله، أعمى؟! قال:

أعماه الله عن طريق الحق. وفي رواية:

عن طريق الجنة، وفي رواية: عن طريق الخير.

٤- فقال: لا عذر له، يسوف الحج، إن مات وقد ترك الحج فقد ترك شريعته من شرائع الإسلام.

٥- عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل:

(ومَن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) قال:

ذلك الذي يسوف الحج، يعنى حجه الإسلام، حتى يأتيه الموت. وغير هذه من الروايات في الوسائل باب وجوب الحج مع الاستطاعة على الفور، وتحريم تركه وتسويفه.

* ثم إن وجوب الحج على الفور من المرتكزات عند المتشعبة المهتمين بالشريعة وأحكامها، وهم يذمون من يترك الحج أول عام استطاعته من دون عذر. وهذا الارتكاز يصلح دليلاً تاماً لو ثبت اتصاله بزمن المتشعبة، الذين عاشوا فترة المعصومين عليهم السلام وهو

بالتالي يكشف عن التلقى عن الإمام المعصوم.

* ثم إن العقل يحكم على المكلف بلزوم تفرغ ذمته فوراً من فريضة الحج، التي استقرت عليه بعد أن

ص: ١١٢

توفرت شرائطها التى منها الاستطاعة خاصة مع احتمال الموت الذى سيحول بينه وبين أدائه للفريضة وقد يفاجئه فى أى وقت .. وهذا الدليل وإن كان تاماً فى نفسه إلا أنه لا ينطبق على تمام المدعى وهو وجوب الفورية فى الحج ولو مع العلم بالبقاء والتمكن من الحج فى العام القابل، والدليل لا يقتضى ذلك.

* الإجماع، ولأنه إجماع مدركى، وقد علم مدرك المجمعين، وبالتالي يمكن الاستناد إلى المدرك نفسه، فالإجماع هذا ليس بحجة.
* وجوب الاستنابة دليل على أن وجوب الحج فوري فى أول عام الاستطاعة، وقد دلت الروايات على وجوبها على المكلف إذا ما توفر له العذر من مرض أو عجز، وعلم بعدم زواله.

أما لو علم بزوال العذر فيجوز له التأخير. فدليل وجوب الاستنابة ليس على اطلاقه يصلح دليلاً على ما يُراد من فورىة الأداء.
* عدم جواز نيابة من استقر عليه الحج، فلو كان الحج على التراخى ولم يكن فورياً؛ لجاز لمن وجب عليه الحج أن ينوب عن غيره، ويؤخر حجّه الواجب إلى سنة أخرى.

*.. عن معاوية بن عمار، عن أبى عبدالله عليه السلام فى رجل ضرورة مات ولم يحج حجة الإسلام، وله مال: قال: يحج عن ضرورة لا مال له (١).

* الحج البذلى ورواياته الظاهرة فى وجوب الإتيان به فوراً وفى عام البذل، منها:
عن محمد بن مسلم، قال: قلت لأبى جعفر عليه السلام: فإن عرض عليه الحج فاستحى؟ قال: هو ممن يستطيع الحج، ولم يستحى؟ ولو على حمار أجدع أبت، قال: فإن كان يستطيع أن يمشى بعضاً ويركب بعضاً فليفعل.
لقد تحققت الاستطاعة بالبذل وهو أحد مصادر تحققها، وبالتالي وجب الحج على المكلف المبذول له، فلماذا لا نلحقه بالحج الواجب

ص: ١١٣

والمبادرة إلى أدائه فوراً؟ فقد وجدت من يقول بالفصل بينه وبين الحج الواجب بالأصل، وبالتالي لا يعدّه دليلاً على فوريّة الحج كباقي الأدلة.

أقوال الفرق الإسلامية:

لقد استدل فقهاء المذاهب الإسلامية على كون الحج مبيّناً على الفور أو التراخي - كل حسب طرقة الخاصّة واجتهاده - من الأدلة الخارجية كالروايات، لا من فعل الأمر ذاته. وهذا ما نراه في قراءتنا لأقوالهم الآتية.

- الشافعية:

فقد ذهبوا إلى جواز تأخير الحج وأنه مبني على التراخي، قال الشافعي: يجب الحج وجوباً على التراخي، وليس على الفور، وبهذا نفسه قال كل من الأوزاعي، والثوري، ومحمد بن الحسن والشيباني، واحتجوا بما يلي:

* أن آية الحج (وأتموا الحجّ والعمرة..) نزلت سنة ست بعد الهجرة، وأن النبي صلى الله عليه وآله تمكن من الحج سنة ثمان وسنة تسع للهجرة، حيث حج النبي صلى الله عليه وآله بأزواجه وحج معه أصحابه. فدلّ هذا على جواز تأخير الحج.

إذن فقد تمسك القائلون بالتراخي وعدم فوريّة فريضة الحج بأن آية الحج: (ولله على الناس حج البيت...) نزلت في السنة السادسة للهجرة، ولم يبادر الرسول صلى الله عليه وآله إلى أداء هذه الفريضة، وإنما أخرها إلى السنة العاشرة لا الثامنة أو التاسعة، فأذاها مع زوجته وجمع عظيم من أصحابه في حجة الوداع، التي التحق بعدها رسول الله صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى. ثم الآية المطلقة عن تعيين الوقت، والفور تقييد للنص ولا دليل عليه...

أقول: وقد اجيب عن ذلك بأجوبة متعددة:

(١) أنه قد حج سابقاً وبالتالي فهذه ليست حجةً واجبةً عليه حتى يبادر إليها، وإنما هي مستحبة.

(٢) أنه لم يستقر عليه الحج لعدم استطاعته.

ص: ١١٤

(٣) أنه قد هادن قريشاً (أهل مكة) بأنه لا يأتى إليهم. ولما نزلت آية الحج سار حتى وصل الحديبية، فصدّوه، وحيثنذ حلق وأحلّ. وقد ردّ هذا بأنه كان قبل عام الفتح، ولا يتم بعده، فإنّه صلى الله عليه و آله قد فتح مكة فى شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة. ولم يحجّ صلى الله عليه و آله فى هذه السنة ولا حتى فى السنة التالية لها وهى التاسعة، التى حجّ فيها الإمام على عليه السلام مع جمع من المسلمين وأدى عن الرسول صلى الله عليه و آله آيات أول سورة براءة.

(٤) أن تأخيره لعله كان لأجل دورات النسيء وهو تأخير حرمة الشهور الحرم (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب) أو شهر منها إلى شهر آخر أو شهور أخرى وهو ما كانت الجاهلية تفعله قال تعالى: (إنما النسيء زيادة فى الكفر يضلّ به الذين كفروا يُحلّونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرم الله فيحلّوا ما حرم الله...) (١)

لهذا فإن مسألة عدم حجّ النبى لا تخلو من تأمل.

ثم إن آيتى الحج (ولله على الناس حج البيت..) و (وأتموا الحج والعمرة) لا يقتضيان أن يكون امتثال الحج الواجب على الفور أو فى زمن معين، وإنما يقتضيان إيجاب الشىء وإيجاده فقط، فلفظة افعل تقتضى هذين الأمرين دون التراخى أو الفور. * أن المكلف إذا أخره من سنة استطاعته إلى السنة التالية أو أكثر، ثم قام بالحج، فإنه يعدّ مؤدياً للحج، وليس قاضياً له، وعلى هذا إجماع الفقهاء. ولو أن التأخير كان حراماً، أو فات وقته؛ لكان حجّه قضاءً لا أداءً. وقاسوا ذلك على منصلصلاة الظهر بعد فوات وقتها، فإنصلاته تكون قضاءً لها وليس أداءً كما فى وقتها، لفوات وقتها أو لأن تأخيرها عن وقتها حرام.

* أما الرواية (من أراد الحج فليتعجل) فإنها مع ضعفها، فإن الأمر

ص: ١١٥

بالتعجيل إذا أراد المكلف ذلك، فعلق التعجيل على إرادته، وما دام هذا الأمر معلقاً فهو خارج عن كونه على الفور؛ لأن الفورية أو التراخي يختصان بالفعل المطلق كما ذكرنا ذلك.

ثم لو كان على الفور لما أخره صلى الله عليه وآله بعد وجوبه.

و إذا ما أردنا عدم ترك هذا الحديث فليس لنا إلّا أن نقول: إنه أمر يراد به الندب ...

ومع قولهم بالتراخي فإنهم يقولون: إن المستحب لمن وجب عليه الحج أن يُسارع في فعله، ودليلهم في هذا:

١- قوله تعالى: (واستبقوا الخيرات).

٢- لأنه إذا أخره عرّضه للفوات بحوادث الزمان، فكان الحزم والاحتياط المبادرة إلى فعله متى توافرت شرائط وجوبه وأدائه (١) وبه

قال الأوزاعي والثوري والقاضي أبو علي.

ومع أن وجوب الحج عند الشافعية على التراخي، إلّا أنهم قالوا أيضاً: إنّ من وجب عليه الحج، وتمكن من أدائه فمات بعد ذلك ولم

يحج، فإنه يموت عاصياً على القول الأصح في مذهبهم؛ لأنه إنما جاز له تأخير الأداء وأنه لا يأثم بشرط سلامته العاقبة، وبشرط العزم

على أداء الفريضة في المستقبل، وإمكان قيامه بالحج قبل وفاته، فلو خشى العجز أو خشى هلاك ماله حرم التأخير، فإن لم يفعل كان

مفرطاً، فيكون عاصياً. أما التعجيل بالحج لمن وجب عليه فهو سنة عند الشافعية ما لم يمّت، فإذا مات تبين أنه كان عاصياً من آخر

سنوات الاستطاعة (٢).

- الحنفية والحنابلة والمالكية وبعض الظاهرية:

وقد قالوا إن الحج مبنى على الفور واحتجوا بما يلي:

١- قوله تعالى: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) فهذا أمر بالحج، والأمر يقتضى الوجوب على الفور.

١- ١ المجموع ٧: ٨٢، شرح المذهب ٧: ٨٥.

٢- ٢ انظر الأم ٢: ١١٧-١١٨، المجموع ٧: ٩٠.

ص: ١١٦

٢- ثم إن الاحتجاج بأن النبي صلى الله عليه وآله لم يحج بعد نزول آية الحج إلا بعد سنة أو سنتين. والجواب: لأن مكة كانت دار شرك، فكان ممنوعاً عنها.

٣- عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ».

وفى هذا الحديث دليل على أن الحج واجب على الفورية.

٤- روى البيهقي عن أمانة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ لَمْ يَحْبَسْهُ مَرَضٌ، أَوْ حَاجَةٌ ظَاهِرَةٌ، أَوْ سُلْطَانٌ جَائِرٌ، وَلَمْ يَحْجْ، فَلِيَمِتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا».

٥- روى ابن ماجه فى «سننه» عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ».

٦- ذكر الترمذى حديثاً عن على بن أبى طالب: من ملك زاداً وراحلةً تبلغه إلى بيت الله ولم يحج، فلا- عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً.

وإن ضعف الترمذى هذا الحديث لوجود هلال بن عبد الله وهو مجهول عنده، إلا أن الجمهور استدلوا به على الوجوب الفورى للحج.

٧- ولأن المكلف لو مات، ولم يكن قد حج، لم يخل من أحد أمرين:

* إما أن يكون آثماً.

* وإما أن لا يكون آثماً.

فإن قلنا بالثانى، فقد أسقطنا بقولنا هذا وجوب الحج، حيث إن الإثم يتأتى عند ترك الواجب، والذى لا يترتب عليه الإثم هو ترك المندوب، فالحج إذن مندوب وليس بواجب.

وإن قلنا: إن المكلف يأثم، فقد سلمنا بأن الحج واجب على الفور.

فمن تحقق الحج عليه فى عام فأخره يكون آثماً وإذا أداه بعد ذلك كان أداءً لا قضاء وارتفع الإثم.

كما أن هناك بعض الحنفية قالوا:

إن الأمر بالحج يحتمل الفور ويحتمل التراخى. وعندهم أن الحمل على الفور أحوط؛ لأن هذا يدفعه إلى المسارعة فى أداء واجب

الحج، فإن كان على الفور فقد عمل بالواجب، وإن كان على التراخى، فلا يضره

ص: ١١٧

تعجله فى أدائه (١). فالاحتياط فى أداء الفرائض واجب، فلو أّخر الحج عن السنة الأولى، فقد يمتدّ به العمر، وقد يموت فيفوت الفرض، وتفويت الفرض حرام فلهذا يجب على الفور من باب الاحتياط.

الهوامش:

١ - ١ المغنى ٣: ٢٤١ - ٢٤٢، البدائع ٢: ١١٩، شرح سنن أبى داود ٥: ١٥٧، وانظر أيضاً الموسوعة الفقهية لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية ١٧: ٢٤.

ص: ١١٩

الحج في الادب العربي مختارات شعرية

ص: ١٢٠

الحج في الأدب العربي مختارات شعرية

إعداد محمّد على المقدادي

عيد الأضحى المبارك

أحمد الغزاوي

(عيد) به تتضاعف الأفراح ومناطه الأجسام والأرواح

أضحى (الحجيج) به سعيداً هائناً يزهو به الإساء والإصباح

يستقبل الغفران فيه مكبراً وتفيض منه (مشاعر) وبطاح

ظفروا بعفو الله واعتصموا به في كل ما هو طاعة وفلاح

وكانما هم في المناسك كلها أرج يطيب نسيمة الفواح

بالحمد والشكران لله الذي هو للعباد الواهب المنّاح يتهافتون على الحطيم وزمزم في نشوة منها القلوب تراخ

وقلوبهم من بهجة خفاقة كادت تطير وما لهنّ جناح

وتلج بالتوحيد من أعماقها وتبكت الإلحاد وهو لقاخ

تخشى من الأوزار وهي محيطه بالأرض والأخطار وهي جراح

ص: ١٢١

وتطوفُ بالبيت الحرام مثابَةً ترجو النجاه وللهدى تمتاحُ
 وكأنما الأنفاس منها جذوة من فرط ما عبثت بها الأتراحُ
 نزلت بها الأحداث وهي كوارث شتى ومنها القهر والأقراخُ
 الله أكبر ما تألق كوكبٌ وانجاب ليل واستهلَّ صباحُ
 ولينعم الحجاج بالفوز الذي هو في المعاد ذخيرة ورباحُ
 ولينصرنَّ الله كلَّ موحدٍ وله الهدى في العالمين سلاحُ لبيك

حسين عرب

ليبك ياربَّ الحجيج، جموعه وفدت عليك ترجو المثابَةَ في حماك، وتبتغي الزلفى لديك
 لبيك والآمال والإفضال، من نُعمى يديك لبي لك العبد المطيع، وجاء مُبتهاً إليك ***
 هذى الجموعُ تدفقت منها المسالك والبطاح قطعوا لك الغبراء، والدأماء، واجتازوا الرياح
 متضرعين إليك، مُستهدين، يرجون السَّماح لبيك في الليل البهيم، وفي الغدو وفي الرِّواح ***
 هذا الصباح يضحُّ بالتهليل، يتبعه الدعاء هذا السماء يضحُّ بالتكبير، يبعثه الرجاء
 في الأرض تلبية تفيض بها القلوب إلى السماء لبيك في حرِّ الهجير وفي الصباح وفي المساء

ص: ١٢٢

بين المضارب في البطاح، وفي حمى البيت الحرام عند المَحَصَّبِ أو بأرجاء الحطيم أو المقام
 مُهَجَّجٌ وأرواحٌ تطوف بها كما طافَ الحَمَامُ لبيكَ تسألُك الهدايه والعنايه والسلام ***
 سبحانك اللهم يا حامى حمى البيتِ الأمينِ يا مُسَبِّلَ الرَّحَمَاتِ، تغسل من خطايا المذنبين
 إياك نعبُدُ مخلصين، وما بغيرك نستعين لبيك سَبَّحْنَا بحمدك، فاهدنا نهج اليقين ***
 يا كاشف الضُّرِّ صفحاً عن جرائمنا لقد أحاطت بنا ياربُّ بأساء
 نشكو إليك خطوباً لا نُطيق لها حملاً ونحنُ بها حقاً أحقاء
 زلازلٌ تخشعُ الصُّمُّ الصَّلابُ لها وكيف تقوى على الزلازل سماء
 أقام سبعاً يَرُجُّ الأرض فانصدعت عن منظرٍ منه عينُ الشمسِ عشواء
 بحرٌ من النار تجرى فوقه سفنٌ من الهضاب لها فى الأرض إرساء
 ترمى لها شرراً كالقصرِ طائشهُ كأنها ديمهُ تنصبُّ هطلاء

ص: ١٢٣

تنشق منها بيوت الصخر إن زفرت رعباً وترعد مثل السعف أضواء
 منها تكاثف في الجوّ الدخان إلى أن عادت الشمس منه وهي دهماء
 قد أثرت سعة في البدر لفتحها فليله التّم بعد النور ليلاء
 تحدت النيرات السع ألسنها بما تلاقى بها تحت الثرى الماء
 وقد أحاط لظاها بالبروج إلى أن كاد يلحقها بالأرض أهواء
 فيالها آية من معجزات رسول الله يعقلها القوم الألباء
 فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت منا الذنوب وساء القلب أسواء
 فاسمح وهب وتفضل بالرضى كرماً واصفح فكل لفرط الجهل خطاء
 فقوم يونس لما آمنوا كشف الت - عذيب عنهم وعمّ القوم نعماء
 ونحن أمه هذا المصطفى ولنا منه إلى عفوك المرجو دعاء
 هذا الرسول الذي لولاه ما سلكت محجة في سبيل الله بيضاء

ص: ١٢٤

فارحم وصل على المختار ما خطبت على علا منبر الأوراق ورقاء ***
 دار الحبيب أحق أن تهواها وتحن من طرب إلى ذكراها
 وعلى الجفون متى هممت بزوره يا ابن الكرام عليك أن تغشاها فلأنت أنت إذا حلت بطيبه وظللت ترتع في ظلال رباها
 مغنى الجمال منى الخواطر والتي سلبت عقول العاشقين حلاها
 لا تحسب المسك الزكى كتربها هيهات أين المسك من رباها!
 طابت فإن تبع التطيب يا فتى فادم على الساعات لثم تراها
 وابشر ففى الخبر الصحيح مقرر أن الإله بطابه سماها
 واختصها بالطيبين لطيبها واختارها ودعا إلى سكنها
 لا كالمدينه منزل وكفى لها شرفاً حلول محمد بفناها
 حظيت بهجرة خير من وطى الثرى وأجلهم قدراً فكيف تراها

ص: ١٢٥

كُلُّ الْبِلَادِ إِذَا ذُكِرْنَ (١) كَأُخْرَفٍ فِي اسْمِ الْمَدِينَةِ لَا خَلَّتْ مَعْنَاهَا
 حَاشَا مُسَمَّى الْقُدْسِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْهَا وَمَكَّةُ إِنَّهَا إِيَّاهَا
 لَا فَرْقَ (٢) إِلَّا أَنْ تَمَّ لَطِيفُهُ مَهْمَا بَدَتْ يَجْلُو الظَّلَامَ سَنَاهَا
 جَزَمَ الْجَمِيعُ بِأَنَّ خَيْرَ الْأَرْضِ مَا قَدْ حَاطَ ذَاتَ الْمُصْطَفَى وَحَوَّاهَا
 وَنَعَمَ لِقَدْ صَدَقُوا بِسَاكِنِهَا عَلَتْ كَالنَّفْسِ حِينَ زَكَتْ زَكَا مَأْوَاهَا
 وَبِهَذِهِ ظَهَرَتْ مَزِيَّةُ طَيْبَةٍ فَعَدَّتْ وَكُلُّ الْفَضْلِ فِي مَعْنَاهَا
 حَتَّى لَقَدْ خُصَّتْ بِرَوْضَةٍ جَنَّةِ اللَّهِ شَرَّفَهَا بِهَا وَحَبَّاهَا
 مَا بَيْنَ قَبْرِ النَّبِيِّ وَمَنْبَرِ حَيَاةِ الْإِلَهِ رَسُولَهُ وَسَقَّاهَا
 هَذِي مُحَاسِنُهَا فَهَلْ مِنْ عَاشِقٍ كَلِيفٍ شَحِيحٍ بَاخِلٍ بَنَوَاهَا
 إِنِّي لِأَرْهَبُ مِنْ تَوَقُّعِ بَيْنِهَا فَيُظَلُّ قَلْبِي مَوْجَعًا أَوَْاهَا
 وَلَقَلَّمَا أَبْصَرْتُ حَالَ مَوْدِعٍ إِلَّا رَثْتُ نَفْسِي لَهُ وَشَجَّاهَا

١-١ في الوفاء وسبل الهدى «ذكرت».

٢-٢ في الوفاء «لا غرو».

ص: ١٢٦

فَلَكُمْ أَرَاكِمَ قَافِلِينَ جَمَاعَةً فِي إِثْرِ أُخْرَى طَالِبِينَ سِوَاهَا
 قَسَمًا لَقَدْ أَذَكِي فَوَادِي بَيْنَكُمْ نَارًا وَفَجَّرَ مُقَلَّتِي مِيَاهَا
 إِنْ كَانَ يُعَجِّزُكُمْ طِلَابُ فَضِيلَةٍ فَالْخَيْرُ أَجْمَعُهُ لَدَى مَثْوَاهَا
 أَوْ خِفْتُمْ ضَرَاءَهَا (١) فَتَأَمَّلُوا بِرَكَاتِ بُلْغَتِهَا فَمَا أَزْكَاهَا
 أَفُّ لِمَنْ يَبْغِي الْكَثِيرَ لَشَهْوَةٍ وَرِفَاهَةٍ لَمْ يَدْرِ مَا عَقْبَاهَا
 وَالْعَيْشُ مَا يَكْفِي وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي يُطْغَى النُّفُوسَ وَلَا خَسِيسَ مُنَاهَا
 يَارَبُّ أَسْأَلُ مِنْكَ فَضْلَ قِنَاعَةٍ بِيَسِيرِهَا وَتَحَبُّبًا لِجِمَاهَا
 وَرِضَاكَ عَنِّي دَائِمًا وَلِزَوْمِهَا حَتَّى تُؤَافِيَ مُهْجَتِي أُخْرَاهَا
 فَإِنَّ الَّذِي أُعْطِيَتْ نَفْسِي سُؤْلُهَا وَقَبِلَتْ دَعْوَتَهَا فَيَا بُشْرَاهَا
 بِجَوَارِ أَوْفَى الْعَالَمِينَ بِذِمَّتِهِ وَأَعَزُّ مَنْ بِالْقُرْبِ مِنْهُ يُبَاهِي
 مَنْ جَاءَ بِالْآيَاتِ وَالنُّورِ الَّذِي دَاوَى الْقُلُوبَ مِنَ الْعَمَى (٢) فَشَفَاهَا

١-١ في الوفاء وسبل الهدى ضراً.

٢-٢ قال محقق تحقيق النصرة: في نسخة آ والأصل: الأذى.

ص: ١٢٧

أولى الأنام بخطَّة الشرف التي تُدعى الوسيلة خيرٌ من يُعطاها
 إنسانٌ عَيْن الكونِ سرٌّ وجوده (١) «يس» إكسِرُ المحامدِ «طه» (٢)
 حسبي فَلَستُ أفي بذكر صفاته ولو أن لي عَدَدَ الحصى أفواها (٣)
 كَثُرَتْ محاسنُه فَأَعَجَزَ حصرها وَعَدَتْ وما نَلَقِي لها أشباها
 إنِّي اهتديتُ من الكتابِ بآيةٍ فعلمتُ أنْ عِلاهُ ليس يُضاهي
 ورأيتُ فضلَ العالمينَ مُحدِّداً وفضائلَ المختارة لا تتناهي
 كيف السبيلُ إلى تَقْصِي مدح مَنْ قال الإلهُ له - وحسبُك جاها -
 إنَّ الذينَ يُبايعونك إنَّما - فيما يقولُ - يُبايعون اللهَ!
 هذا الفخارُ فهل سمعتَ بمثلهِ واهاً لنشأتهِ الكريمه واهاً!
 صلُّوا عليه وسلِّموا؛ فبذلِكُم تهدي النفوسَ لرُشدِها وغناها (٤)
 صلَّى عليه اللهَ غيرَ مُقَيِّدٍ وعليه من بركاتِه أنماها

١-١ انظر مجموع الفتاوى ١١: ٩٤-٩٨.

٢-٢ انظر الرياض الأنيفة في شرح أسماء خير الخليقة صلى الله عليه وسلم ٣٠، ٢٠٤، ٢٧٢ ودلائل النبوة للبيهقي ١: ١٥٨، ١٥٩ حيث
 ذكرهما رحمه الله في أسمائهم صلى الله عليه وسلم، والإشارة للحافظ مغطاي، وقد حققته والحمد لله وحده، وانظر الدر المنثور أيضاً
 عند الآيتين، من سورة طه، يس، والله أعلم.
 ٣-٣ في التحقيق «أفداها» ولعله من المطبعة.
 ٤-٤ في التحقيق «وعناها» بالعين المهملة، ولعله من المطبعة أيضاً.

ص: ١٢٨

وعلى الأكاير آله سُرج الهدى أحب (١) بعترته ومنّ والاها
وكذا السلام عليه ثمّ عليهم وعلى عصابته التي زكاها
أعنى الكرام أولى النهى أصحابه فئه التقى ومن اهتدى بهداها
والحمد لله الكريم وهذه نجرت وظنى أنه يرضاها الهوامش:

وأزواجه أمهاتهم أم سلمة

١-١ فى سبل الهدى، والفضائل «أكرم».

ص: ١٢٩

وأزواجه أمهاتهم أم سلمة

حسن الحاج

إنّ الكتابه عن أمّ المؤمنين أمّ سلمة وحياتها المضيئه، كتابه عن أظهر بيت عرفته الدنيا، وأعظم مكانصنعته السماء وباركته.. وكيف لا يكون كذلك وقد رعته يد الغيب؛ ليكون مبعث الطهر كله ونبع الخير كله، ومصدر العطاء كله، ومشعلا للهدايه، ومدرسه للخلق الكريم والأدب الرفيع وقدوة ورحمة للعالمين...

لقد كان هذا البيت مأوى الرسالة ومهبط الوحي، ومنزل القرآن ومبعث النور، الذي حمله صاحب هذا البيت رسول الله صلى الله عليه وآله الذي وصفه الله تعالى في كتابه الكريم: وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ فكان هذا الخلق يواكب البيت الأول للدين الجديد.. وصارت عفته محطّ اعجاب مَنْ حوله وصار القدوة لهم والاسوة الحسنه قربوا أم بعدوا عنه. ولما يتركه من آثار خطيرة- إذا ما عصفت حوله المغريات..

على مسيرة الرسالة والرساليين.. تولته السماء، وراحت تُرسل آياتها الكريمة مبينة أهمية هذا البيت ومرشدة نساءه إلى مكانتهنّ ودورهنّ الرسالي ووظيفتهنّ. وفي الوقت الذي ضاعفت السماء العذاب لمن تأتي منهنّ بفاحشه، جعلت الأجر مرتين

ص: ١٣٠

لعملهنّ الصالح؛ لخطورة تواجدهنّ في هذا البيت وأنهنّ القدوة، التي يجب أن تكون صالحه، والاسوة التي يجب أن تتحلّى بأرقى درجات الإيمان و الخلق الكريم..

يانساء النبي من يأت منكنّ بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين.. ومن يقننّ منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً (١)

ثم راحت السماء تبين مكانتهنّ، وخطورتهنّ وتكاليفهنّ ما دامت قد ارتبطت حياتهنّ بهذا البيت الكريم نساءً لرسول الله صلى الله عليه وآله: يانساء النبي لستنّ كأحدٍ من النساء إن اتقينّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً وقرن في بيوتكنّ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله (٢)

وكان لابد لهذا الطهر ولتلك العفة من ستر فكان الحجاب يأيها النبي قل لأزواجك.. يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ.. (٣)

لقد كانت أم سلمة أول نساء هذا البيت- بعد أم المؤمنين خديجة بنت خويلد- رضوان الله عليها- وعياً لدورها الرسالي، كما كانت أكثر نساء النبي التزاماً بهذا كله وأسرعهنّ طاعة لله ورسوله، وعاشت حياتها الإيمانية ومسؤوليتها الرسالية ووظيفتها الشرعية على أكمل وجه حتى وقفت لأن تكون أفضل نساءه صلى الله عليه وآله وأصدقهنّ وأخلصهنّ في تحمّل أمانة هذا البيت الكريم ورسالته.. بعد أن قدر لها أن تكون من نساءه صلى الله عليه وآله، وعاشت في كنفه، وظلت في بيته كأقرب نساءه وأفضلهنّ بعد خديجة رضوان الله عليها طهارةً وعفةً وإيماناً وجهاداً وعلماً.. فقد راحت تتغذى من علمه صلى الله عليه وآله وأدبه وسنته، وتستقي من مصدر الوحي الذي مافارق منزلها.. وبرزت اماً للمؤمنين بنص القرآن الكريم وهو وسام منحة السماء.. وحفظت أم سلمة ذلك ورعته ووعته مسؤولياً كبيراً، وراحت تكثر الشكر لله تعالى على هذه النعمة.. مما جعلها مثلاً أعلى في إيمانها وعبادتها وورعها.. فنالت بذلك حب الله تعالى وحب رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته

١- ١ سورة الأحزاب: ٣١.

٢- ٢ سورة الأحزاب: ٣٢-٣٣.

٣- ٣ سورة الأحزاب: ٥٩.

ص: ١٣١

الطيبين، والمؤمنين جميعاً على مرّ الأجيال.

لقد كانت أم سلمة ترى هذه الامومة تكليفاً عظيماً ومسؤولية كبيرة لها حقوقها وعليها واجبات كثيرة لا بد من رعايتها، فكانت بحقّ أمّاً للمؤمنين بحنانها وشفقتها ورعايتها لهم واهتمامها بهم وخوفها عليهم وحرصها لهم ...

لقد كانت- وكما عودتنا في حياتها المباركة- المبادرة إلى كل ما يرضى الله تعالى ورسوله ولم تتناول عليه صلى الله عليه وآله أبداً طيلة حياتها معه، كما تناولت عليه بعض نساءه، وكان هذا سبباً لأذيتها صلى الله عليه وآله، فحينما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله أن بعض نساءه كنّ يخلقن له المتاعب، ومطالبتهنّ بالنفقة والزينة حتى ورد قول بعضهنّ له: لعلمك ترى أنك إن طلقنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجوننا.. وهذا الموقف دفع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن يعتزلهنّ تسعة وعشرين يوماً، فكان موقفهنّ هذا سبباً لنزول آية التخيير يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً (١)

فبادرت هنا أم سلمة قائلة: قد اخترت الله ورسوله، فنالت بذلك سبق الاختيار هذا وفضله وأجره.. ثم قامت بعدها ببقية نساءه صلى الله عليه وآله، فعانقته وقلن مثل الذي قالت أم سلمة، ولم تتخلف عن هذا إلا واحدة وهي فاطمة بنت الضحّاك، فإنها اختارت الدنيا، ففارقتها رسول الله صلى الله عليه وآله وبقيت في شقاء طول حياتها (٢).

في بيت كريم:

هند (وقيل رملة وهو ضعيف) بنت سهيل أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي، وكان أبوها جواداً كريماً سخياً، عرف بذلك في الجاهلية ولقبته العرب بزاد الركب حين كان هذا اللقب لا- يُطلق إلا على ثلاثة أو أربعة أشخاص، راحت الأمثال تضرب بجودهم، وسارت بذلك الركبان، كان هو أحدهم. فإذا ما كان أحدهم في سفر فإن رفقاء سفره مهما كثروا يتحمّل عنهم

١- ١ سورة الأحزاب: ٢٨- ٢٩.

٢- ٢ البحار ٢٢: ٢٠٤، الميزان في تفسير الآية.

ص: ١٣٢

زادهم وطعامهم طيلة الرحلة التي جمعتهم، ويرفض أن يحمل رفاقه شيئاً من ذلك. قالصاحب لسان العرب في مادة زود (١)..

وأزواد الركب من قريش أبو أمية بن المغيرة، والأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العزى، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية، وكانوا إذا سافروا، فخرج معهم الناس، فلم يتخذوا زاداً معهم، ولم يوقدوا، يكفونهم ويغنونهم. وهناك من يقول:

إنهم أربعة، فأضاف زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد (٢) أما أمها فهي عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة أو جذيمة بن علقمة الكنانية من قبائل بنى فراس الأشراف الأمجاد. وعلقمة جدّها كان يلقب بجندل الطعان، وذكرته كتب التاريخ بأنه رجل كريم يعطى ولا يبخل، يجود ولا يمنع.

وهناك من يقول: إن أمها هي عاتكة بنت عبد المطلب بن عبد مناف عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله. وقال آخر: إنها ليست بنت عاتكة هذه وإنما هي بنت زوجها.

وعلى فرض كونها بنتاً لعاتكة بنت عبد المطلب أو بنتاً لزوج عاتكة فهي اخت لكل من عبد الله وزهير ابني عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله ...

كما أنها اخت لعمار بن ياسر الصحابي الجليل من الرضاعة، وكانت قد تزوجت أخاً لرسول الله صلى الله عليه وآله من الرضاعة أرضعتها ثويبة، مولاة أبي لهب وترباً له وابن عمته برة بنت عبد المطلب، وأحد أشراف بنى مخزوم رايًا وشجاعاً وكرماً وجوداً، من المسلمين الأوائل وممن هاجر الهجرتين وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان ذاك قبل أن يمنّ الله تعالى عليها لتكون أمياً للمؤمنين بنص القرآن الكريم، بعد أن تطفّ الله تعالى عليها لتكون زوجة لحبيبه رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكانت - كما يقول الذهبي - من أجمل النساء، وأشرفهنّ نسباً.

١-١ ابن منظور في لسان العرب ٤: ١٨١. وغيره من مصادر التاريخ.

٢-٢ ذكر ذلك في الهامش صاحب كتاب نساء أهل البيت عن المحبر ١٣٧ وعن المنمق: ٣٦٨ - ٣٦٩.

ص: ١٣٣

قالت أم المؤمنين عائشة - عن جمال أم سلمة -: «لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله أم سلمة» حزننا شديداً لما ذكر لنا من جمالها، فتلطفنا حتى رأيتها، فرأيت أضعاف ما وصفت به».

إذن فكل من أصلها العريق ومنبتها الكريم أصفى على حياتها صفات عظيمة وخلقا كريما واكبها طيلة حياتها المباركة وميزها عن غيرها من النساء..

يقول عنها أحمد خليل جمعة في موسوعته القيمة (نساء أهل البيت): لو ألقينا الأضواء على حياة أم سلمة قبيل الإسلام؛ لألفينا أنها امرأة ذات شرف وطهر في أهلها، وذات نسب معرق في المعالي، ومنبت كريم حسيب في قومها بنى مخزوم، ثم هي بعد ذلك كلة، ابنة واحد من كرماء قريش، وأنداهم كفاً، وأجودهم عطاءً، فأبوها زاد الركب أحد الأجواد الذين سارت الأمثال والركبان بالحديث عن جودهم، فكانوا إذا سافروا، وخرج معهم الناس، لم يتخذوا زاداً معهم، ولم يوقدوا ناراً لهم، فيكفونهم ويغنونهم.

ولا ريب أن هند بنت أبي أمية، قد تأثرت بهذه البيئة الكريمة، التي عاشتها في مطلع فجر حياتها، وأرت ما رأت من مكانة أبيها وكرامته وكرمه بين الناس، فلا عجب أن تكون هي الأخرى، ذات يد معطاء، ونفس صافية، تعرف مكان الرحمة، فتفجر الثبر في نفوس الناس تفجيراً (١).

إسلامها وهجرتها:

في بداية نور الإسلام ورغم عناد الوليد بن المغيرة، زعيم بنى مخزوم، أسلمت أم سلمة وزوجها.. وبعد ما ثارت حفيظة مشركي مكة وعظم غيظهم واشتد أذاهم للمسلمين، هاجرت معه إلى الحبشة فكانا أول المهاجرين، فنالت بذلك وسام أولى المهاجرات.

يقول النووي في تهذيبه نقلًا عن ابن الأثير: أول مهاجرة من النساء أم سلمة (٢). وما إن عادت وزوجها إلى مكة من الحبشة مكان هجرتها الأولى حتى

١- أحمد خليل جمعة - نساء أهل البيت: ٢٢٥-٢٢٦.

٢- تهذيب النووي ٢: ٣٦٢.

ص: ١٣٤

استعدا للهجرة مرة أخرى إلى المدينة بعد أن توفي أبو طالب عم رسول الله صلى الله عليه وآله وحاميه، فعادت بذلك قريش إلى اضطهاد المسلمين، فصدر أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالهجرة إلى المدينة، فكان زوجها أبو سلمة أول المهاجرين حيث هاجر قبل بيعة العقبة بسنة، وقد حلت مصيبة مؤلمة بهذه الأسرة الكريمة.

تقول الرواية عن أم سلمة:

قالت: لما أجمع أبو سلمة على الخروج الأول إلى المدينة رحل لي بغيره، ثم حملني عليه وحمل معي ابني سلمة في حجرى، ثم خرج يقود بى بغيره، فلما رأته رجال بنى المغيرة.. قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، رأيتصاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد؟

قالت: فزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه، وغضب عند ذلك بنو عبد أسد، رهط أبى سلمة، قالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها منصاحبنا، فتجادبوا ابني سلمة بينهم، حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو أسد، وحسنى بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة، ففرق بينى وبين زوجى وبين ابني. فكننت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكى حتى أمسى، سنه أو قريباً منها، حتى مر بي رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة، فرأى مابى فرحمنى، فقال لبنى المغيرة: ألا تخرجون من هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها؟ فقالوا لى: ألحقى بزوجك إن شئت، ورد بنو عبد الأسد عند ذلك ابني.

فارتحلت بغيرى، ثم أخذت ابني فوضعتة فى حجرى، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة، ومامعى أحد من خلق الله.. حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة [وكان مشركاً] أخا بنى عبد الدار، فقال: إلى أين يا بنت أبى امية؟ قالت: فقلت: أريد زوجى بالمدينة.

ص: ١٣٥

قال: أو ما معك أحد؟

فقلت: لا والله إلا الله وابني هذا.

قال: والله مالك من مترك.

فأخذ خطام البعير، فانطلق يهوى بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، حتى أقدمني المدينة. فلما نظر إلى قرية بني عامر بن عوف بقاء قال: زوجك في هذه القرية- وكان أبو سلمة بها نازلاً- فأدخليها على بركة الله. ثم انصرف راجعاً إلى مكة، وهنا كانت تقول أم سلمة: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، ومارأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة، وهناك رواية أخرى تحمل كلاماً آخر لها تقول فيه:

«فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أكرم منه، ولا أشرف منه، كان إذا بلغ منزلاً من المنازل ينيخ بعيري، ثم يستأخر عني، حتى إذا نزلت عن ظهره واستويت على الأرض، دنا إليه وحطّ عنه رحله، واقتاده إلى شجرة وقيده فيها... ثم يتنحى عني إلى شجرة أخرى فيستريح جوارها، فإذا حان الرواح، قام إلى بعيري، فإذا ركبت، أخذ خطامه وقاده. (وقد أسلم في الحديبية وهاجر إلى المدينة، ثم شهد فتح مكة، وتسلم مفتاح الكعبة من رسول الله صلى الله عليه وآله). هذا عن هجرتها إلى المدينة.

أمّا عن هجرتها الأولى إلى الحبشة وكانت برفقة زوجها أبي سلمة، فقد تفرّدت روايتها عن تلك الهجرة بدقة وصفها لها وللدور العظيم الذي أدّاه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه. تقول رواية أم سلمة التي اتسمت بقوة بيانها وفصاحتها ودقة تصويرها لأحداثها حتى عدت روايتها للهجرة من أوثق مصادر الهجرة.

تقول روايتها:

لما ضاقت على النبي صلى الله عليه وآله مكة، وأوذى أصحابه، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم

ص: ١٣٦

من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه.

فخرجنا إليها رسالاً حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أماناً على ديننا، ولم نخش ظملاً.

فلما رأته قريش أنا قد أصبنا داراً وأماناً، اجتمعوا على أن يبعثوا إليه فينا؛ ليخرجنا من بلادهم، وليردنا عليهم. فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، فجمعوا له هدايا ولبطارقتهم، فلم يدعوا منهم رجلاً إلا بعثوا له هدية على حدة، وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا فيهم، ثم ادفعوا إليه هداياه، وإن استطعنا أن يردهم عليكم قبل أن يكلمهم فافعلوا.

أقول: كانت تخشى قريش أن ينطلق الحق من لسانهم ووقع الذي كانت تخشاه.

فقدما علينا، فلم يبق بطريق من بطارقتهم إلا قدموا إليه هديته، فكلموه، فقالوا له: إنا قدمنا على هذا الملك في سفهاء من سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، فبعثنا قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه فأشيروا عليه بأن يفعل، فقالوا: نفعل، ثم قدموا إلى النجاشي هداياه، فكان من أحب ما يهدى إليه من مكة الأدم. فلما أدخلوا عليه هداياه، فقالوا له: أيها الملك إن فتية منا سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجأوا إلى بلادك، فبعثنا إليك فيهم عشائرهم، آباؤهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، فهم أعلى بهم (١) عيناً.

فقال بطارقتهم: صدقوا أيها الملك، لو رددتهم عليهم وكانوا هم أعلى بهم، فإنهم لم يدخلوا في دينك فيمنعهم أملك. فغضب، ثم قال: لا، لعمر الله، لا أردهم

١- ١.. وأعلى بهم عيناً أي أبصر بهم، وأعلم بحالهم. اللسان: علا.

ص: ١٣٧

عليهم حتى أَدعُوهم وأكلمهم وأنظر ما أمرهم، قوم لَجَأُوا إلى بلادى، واختاروا جوارى على جوار غيرى، فإن كانوا كما تقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أدخل بينهم وبينهم، ولم أنعمهم عينا فأرسل إليهم النجاشى فجمعهم - ولم يكن شىء أبغض إلى عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعة من أن يسمع كلامهم - فلما جاءهم رسول النجاشى اجتمع القوم فقال: ماذا تقولون؟

فقالوا: ماذا نقول؟! نقول والله ما نعرف وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا صلى الله عليه وآله كائن من ذلك ما كان، فلما دخلوا عليه كان الذى يكلمه منهم جعفر بن أبى طالب، فقال له النجاشى:

ما هذا الدين الذى أنتم عليه؟ فارقتم دين قومكم، ولم تدخلوا فى يهودية ولا نصرانية، فما هذا الدين؟

.. أيها الملك كُنّا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونسئ الجوار، ونستحل المحارم.. وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرّمه، فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقته وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلى لله تعالى، ونصوم له، ولا نعبد غيره، فقال:

هل معك شىء مما جاء به؟ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله، فقال له جعفر: نعم، فقال: هلّم فاتل على ما جاء به. فقرأ عليهم صدرًا من كهيعص فبكى والله النجاشى حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم. ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التى جاء بها موسى؛ انطلقوا راشدين، لا، والله لا أردهم عليهم، ولا أنعمكم عينا، فخرجنا من عنده، وكان أتقى الرجلين فينا عبدالله بن أبى ربيعة، فقال عمرو بن العاص: والله لأثنيه غداً بما أستأصل به خضراءهم (١). فلأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذى يعبد عيسى بن مريم عبد.

فقال له عبدالله بن أبى ربيعة: لا تفعل.. فإنهم إن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً

١- ١ خضراءهم: شجرتهم التى منها تفرعوا.

ص: ١٣٨

ولهم حقاً، فقال: والله لأفعلن، فلما كان الغد دخل عليه، فقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عنه، فبعث إليهم، ولم ينزل بنا مثلها. فقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه؟

فقالوا: نقول والله الذي قاله الله تعالى، والذي أمرنا به نبينا صلى الله عليه وآله أن نقول فيه: فدخلوا عليه وعنده بطارقه، فقال: ما تقولون في عيسى بن مريم؟

نقول: هو عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فدلى النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ عوداً بين أصبعيه، فقال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العويد (١)، فتناخرت بطارقه، فقال: وإن تناخرتم والله، اذهبوا، فأنتم شيوم في أرضي - والشيوم: الآمنون - من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، فأنما ما أحب أن لي دبراً وأني آذيت رجلاً منكم - والدبر بلسانهم: الذهب - فوالله ما أخذ الله تعالى مني الرشوة حين ردّ على ملكي فأخذ الرشوة منه، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة إلى بها، وأخرجنا من بلادى. فرجعا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به. فأقمنا مع خير جار، وفي خير دار.

فلم ينشب أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، فوالله ما علمنا حزناً حزناً قط كان أشدّ منه فرقاً من أن يظهر ذلك الملك عليه، فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرفه، فجعلنا ندعو الله ونستنصره للنجاشي، فخرج إليه سائراً... فهزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشي عليه... فوالله ما علمنا فرحنا بشيء قط فرحنا بظهور النجاشي، ثم أقمنا عنده حتى خرج من أجمعاً إلى مكة، وأقام من أقم... (٢) وأخيراً عادت أم سلمة وزوجها ومعهما أولادهما (زينب وسلمة وعمر ودرّة) الذين ولدوا هناك - على قول - في دار هجرتها الحبشة، عادوا جميعاً إلى مكة، وكانت عودة المهاجرين إلى مكة إما خفاءً أو بجوار أحد من وجوه مكة بعد

١-١ العويد: أى مقدار هذا العود الصغير.

٢-٢ مختصر تاريخ دمشق ٦: ٦٣، ٦٤، ٦٥.

ص: ١٣٩

أن وردتهم أخبار بأن أهل مكة قد أعلنوا إسلامهم وآمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وآله، فلما وصلوا مكة عرفوا أن لاصحة لما سمعوا، فدخلوها متخفين أو لائذين بوجه من وجوه أهل مكة، فدخلت أم سلمة وزوجها في جوار أبي طالب بن عبدالمطلب وهو خاله.

وهناك من يقول: إنها وزوجها هاجرت هجرتين إلى الحبشة: الأولى في رجب سنة خمس من المبعث، والثانية بعدها بعدة شهور بعد أن رجع المسلمون المهاجرون ظانين إسلام قريش، فاشتد أذى قريش لهم، فأذن لهم الرسول صلى الله عليه وآله بالهجرة مرة ثانية. (١) رحيل «أبو سلمة»

كانصحابياً مجاهداً هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا وقد أبلى فيها بلاءً حسناً، وبعدها شهد احدًا فلم يقل بلاؤه فيها عن بدر، حتى ثخن بالجراح، فشفى منها إلّا جرح كان غائرًا في عضده اندمل ظاهره دون باطنه، ومع هذا فقد استعمله رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله على المدينة مرّة، ومرّة أخرى قاد بأمر رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله سرية، ومعه مائة وخمسون رجلًا إلى قطن وهو جبل لبنى أسد في نجد. نترك ابنه عمر يشرح لنا كل ذلك حيث قال: خرج أبي إلى أحد فرماه أبو سلمة الجشمي في عضده بسهم فمكث شهرًا يداوى من جرحه ثم برئ الجرح. وبعث رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله أبي إلى قطن (وهي جبل من أرض بنى أسد ناحية فيد وفي الطبقات: بيد (٢)). في المحرم، على رأس خمسة وثلاثين شهرًا، فغاب تسعًا وعشرين ليلة ثم رجع. فدخل المدينة لثمان خلون من صفر سنة أربع. والجرح منتقض، فمات منه لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع من الهجرة. (٣) لقد كان الهدف من غزوة أبي سلمة هو منع بنى أسد من الهجوم على المسلمين في المدينة بعد أن بلغه - أي بلغ رسول الله - أن قائد بنى أسد يحرضان قومهما لغزو المدينة ونهب أموال المسلمين فيها. (٤) فكان لحملته دور كبير في إعادة ماخسره

١- ١ انظر طبقات ابن سعد ١: ٢٠٣-٢٠٧.

٢- ٢ معجم البلدان ٤: ٣٧٤.

٣- ٣ الطبقات ٨: ٨٧-٨٨.

٤- ٤ غزوات الرسول، لمحمود شيت خطاب.

ص: ١٤٠

المسلمون في احد من معنويات بعد أن نالت النصر على أعدائهم..

وراح هذا الصحابي الجليل يواصل جهاده في الوقت الذي لم يندمل جرحه الذي راح هو الآخر يتسع، مما دفع أبو سلمة إلى أن يلازم فراشه.

مما أنعم به الله تعالى على هذا المجاهد أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وهو أخوه من الرضاعة وابن عمته وحبيبه حاضراً لحظات حياته الأخيرة يودعه ويسبل يديه ويغلق عينيه ويدعو له:

«اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المقربين..»

ثم صلى عليه. ويروى أن الرسول صلى الله عليه وآله كبر في هذه الصلاة تسع تكبيرات، ولما انتهى من الصلاة سأله أصحابه عن ذلك فقال: لو كبرت على أبي سلمة ألفاً لكان أهلاً لذلك.

الزواج المبارك:

رحل عنها أبو سلمة، وتركها ذات عيال، أربعة أولاد: سلمة وقد وُلدَ بالحيشة، وعمر ودره (رقية) وبره وقد غُيّرَ اسمها رسول الله صلى الله عليه وآله إلى زينب، قائلاً:

لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم (منكم)، سموها زينب.

وقد كبر سنّها، وراحت- مع كلّ آلامها على زوجها، الذي ماجتْ دموعها لفقده، فقد كانت تحبّه حبّاً عظيماً- ترعصغارها، وتتذكر ماكان يوصيها به أبو سلمة في مرضه الذي توفي فيه، عبر حوارٍ دار بين الاثنين أحدهما كان مسجى والآخر يذرفُ دموعه بألم وحرقة ومرارة.

قالت أم سلمة: بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة، ثم لم تتزوج بعده إلّا جمع الله بينهما في الجنة، وكذلك إذا ماتت المرأة وبقي الرجل بعدها.

فتعال اعاهدك على ألا تتزوج بعدى، ولا أتزوج بعدك.

قال أبو سلمة: أطيعيني؟

قلت: ما استأمرتك إلّا وأنا أريد أن أطيعك.

ص: ١٤١

قال: فإن مت فتزوجى بعدى، ثم قال: اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً منى لا يحزنها ولا يؤذيها (١).
وإني لأذكر ما كان يقوله أبو سلمة ويدعو به وهو ماتعلمه من رسول الله صلى الله عليه وآله:

إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحسب مصيبتى، فأجرنى فيها، وأبدلنى بها ما هو خير منها.
وتقول أم سلمة: لما احتضر أبو سلمة قال: اللهم اخلفنى فى أهلى بخير. فلما قبض قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أحسب عندك مصيبتى. وأردت أن أقول (وهنا توقفت أم سلمة قليلاً قبل أن تقول): وأبدلنى بها خيراً منها، فقلت:
ومن خير من أبى سلمة؟!

وفى رواية أنها قالت: من هذا الفتى الذى هو خير من أبى سلمة؟ وفى اخرى قالت: أى المسلمين خير من أبى سلمة، أول بيت هاجر إلى رسول الله؟!

قالت: فما زلت حتى قلتها (٢).

وهى فى هذا الحال- وبعد أن انتهت عدتها- تقدم لخطبتها بعض كبار الصحابة: أبو بكر، فلم توافق عليه، وجاءها خاطباً عمر بن الخطاب وهو من أرحامها، يلتقى نسبه ونسبها فى كعب، فعمر بن نفيل بن عبد العزى... بن عدى ابن كعب. وأمّا أم سلمة فهى بنت أبى امية... بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب.

فى حين وجدت أن موسوعة أمهات المؤمنين قد ذكرت أن فى زاد المعاد فى ج ١ ص ٤١ أن أم سلمة خالة عمر بن الخطاب، فأمه حنتمه بنت هاشم بن المغيرة، وأم سلمة بنت سهيل بن المغيرة.

أقول: إنها هنا- وبحسب ما ذكره- ابنة عم أمه وليست خالته، ولهذا تقدم لخطبتها (٣) فردته بقوة.

أرسل لها رسول الله صلى الله عليه وآله من يبلغها برغبته فى الزواج منها.

تقول: أرسل لى رسول الله صلى الله عليه وآله حاطب بن أبى بلتعنة يخطبنى له.

١- ١ الطبقات ٨: ٨٧-٨٨.

٢- ٢ الطبقات ٨: ٧٨.

٣- ٣ موسوعة أمهات المؤمنين، هامش: ١٤٣.

ص: ١٤٢

فقلت: مرحباً برسول الله وبرسوله. أخبر رسول الله أنى فى خلال، لا- ينبغى لى أن أتزوج رسول الله. وراحت بكل أدب وحياء وعفة تبين له هذه الصفات.

وهى: أنى امرأة مُصيبة. أى ذات أولاد. وأنى غيرى. وأنه ليس أحد من أوليائى شاهداً. وأنا امرأة قد دخلت فى السن...

فبعث لها رسول الله صلى الله عليه وآله: أما قولك: إنى مُصيبة، فإن الله سيكفيك صيانك.

وأما قولك: إنى غيرى، فسأدعو الله أن يُذهب عنك غيرتك. وأما الأولياء، فليس أحد منهم، شاهد أو غائب، إلّا سِرْضانى (١). وأما ما ذكرت من السن، فقد أصابنى مثل الذى أصابك.

فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله فى السنه الرابعه وقيل الثالثه فى العشر الأواخر من شهر شوال، وقد زوجة إياها سلمة بنت سلمة ابنها، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وآله فراشاً حشوه ليف، وخدماءً وصحفهً ومجشئه (٢).

وبذلك صارت أم سلمة زوجة لرسول الله صلى الله عليه وآله، وولجت بيته المبارك، وكانت غرفتها غرفه أم المؤمنين زينب بنت خزيمة، التى توفيت فى أول العام الرابع للهجرة، وهى أول من توفى من نساء اللاتى كنّ عنده بعد أم المؤمنين خديجة.

وفى أول يوم زواجها أخذت أم سلمة تتفحص حجرتها؛ لتعرف ما بها، قالت: ... فإذا جرة فاطلعت فيها، فإذا فيها شىء من شعير، وإذا برحى، وبرمه، وقدر، فنظرت فإذا فيها كعب من إهالة، فأخذت ذلك الشعير وطحنته، ثم عصدته فى البرمه، وأخذت الكعب من الإهالة فأدمت به، فكان ذلك طعام رسول الله، وطعام أهله ليله عرسه. (٣) وكانت المكافأة التى قدمها رسول الله صلى الله عليه وآله

لسلمة على ما قدمه هذا الأخير فى زواج أمه من رسول الله صلى الله عليه وآله أن زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله أمامة بنت حمزة سيد الشهداء، وأقبل صلى الله عليه وآله على أصحابه قائلاً: ترون كافأته؟

حبها للجهاد:

لم يكلف الإسلام المرأة بالقتال وجنبها إياه، وإن تحملت أعباءه وآثاره، فقد

١- ١ الطبقات ٨: ٨٧.

٢- ٢ السيرة النبوية لابن هشام ٤: ٦٤٥. المجشئة: الرحى، يُقال: جششتُ الطعام فى الرحى إذا طحنته طحناً غليظاً، ومنه الجشيش والجشيشة.

٣- ٣ الطبقات ٨: ٩٢.

ص: ١٤٣

كانت المرأة المسلمة تبادر إلى الخطوط الخلفية للمعارك وحتى الأمامية أحياناً، لتضميد الجرحى ومداواتهم وتجهيز المقاتلين بما يحتاجون إليه من ماءٍ وطعامٍ وعدةٍ وسداد.

وأم المؤمنين أم سلمة كانت واحدة من اللواتي قمن بدورهن هذا، ونالت شرف الجهاد والمجاهدين بعد أنصحت رسول الله صلى الله عليه وآله في غزواته ومعاركه في غزوة المريسيع وفي فتح خيبر وفي حصاره للطائف وغزوة هوازن وثقيف، كما أنها رافقته في رحلته الأولى إلى مكة حيث تم صلح الحديبية.

طالما تمت هذه المرأة مع غيرها من المؤمنات أن يكلفهن الله سبحانه وتعالى بالجهاد إلى جنب إخوانهن من المؤمنين طمعاً في أجره العظيم وثوابه الجزيل وشرفه الكبير في الدنيا والآخرة فقلن:

(لَيْتَ اللَّهُ كَتَبَ عَلَيْنَا الْجِهَادَ، كَمَا كَتَبَ عَلَى الرِّجَالِ، فَيَكُونُ لَنَا مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ مَا لَهُمْ).

فكان قولهن هذا وامنيتهن سبباً في نزول الآية الكريمة: ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض (١)

منزلها مهبط الوحي:

كانت حجرتها مهبط الوحي، فقد ورد أن من مكارمها أنها رأت جبرئيل عليه السلام وهو في صورة دحية الكلبي، فقد ورد عن الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضوان الله عليه حيث قال: انبئت أن جبرئيل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وآله وهو عند أم سلمة، فجعل يتحدث، ثم قام، فقال النبي صلى الله عليه وآله عليه وآله لأم سلمة: ومن هذا؟

قالت: هذا دحية الكلبي.

قالت: والله ما حسبته إلا إياه. (٢)

ومن مكارمها أيضاً نزول آية التطهير إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً في بيتها. فبعد أن جمع رسول الله كلاً من علي

١- ١ أعلام النساء ٥: ٢٢٤.

٢- ٢ التاج الجامع للاصول ٣: ٣٨٣.

ص: ١٤٤

وفاطمة والحسن والحسين وضمهم تحت كساء واحد، نزل جبرئيل بهذه الآية المباركة عليهم.. تنظر أم سلمة إلى مقام به رسول الله صلى الله عليه وآله من جمعهم وضمهم تحت كساء واحد.. ولأنها على قدر كبير من المعرفة والمنزلة، ولأنها السباقة إلى كل خير وإلى كل ما ينفعها في آخرتها ودنياها أيضاً، ولأنها تعرف منزلة المجتمعين، راحت تتمنى بل طلبت الانضمام إليهم بقوة وأن تكون معهم؛ لتنال بذلك مما أعدّه تعالى لهؤلاء الصفوة من خير وبركة..

وكيف لا- تتمنى أن تكون معهم وهي تسمع رسول الله صلى الله عليه وآله ودعاءه: اللهم هؤلاء أهل بيتي، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

فتبادر إلى ذلك قائلة:

فأنا منهم يانبي الله!

ويأتيها الجواب من رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أنتِ على مكانك، وأنتِ على خير» أى أن مكانك محفوظ اتمياً للمؤمنين، وموقفك يتسم بالخير والصحة، ولكنك لست من أهل بيتي الذين خصهم الله تعالى بخصائص، وتفردوا بصفات اختارها الله لهم دون غيرهم، وميزهم بها على جميع خلقه..

وكان لأم سلمة شرف رواية هذا كله حيث قالت: «دعا رسول الله حسناً وحسيناً، وفاطمة، فأجلسهم بين يديه ودعا علياً فأجلسه خلفه، فتجلل هو وهم بالكساء، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». (١) فعن عطاء بن أبي رباح عن أم سلمة: أن النبي صلى الله عليه وآله كان في بيتها، فأنته فاطمة ببرمة فيها جزيرة، فدخلت بها عليه، فقال صلى الله عليه وآله لها: ادعى زوجك وابنيك.. إلى أن قالت: فأنزل الله عز وجل هذه الآية: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً... ثم قالت: فأخذ فضل الكساء، فغشاهم به، ثم أخرج

ص: ١٤٥

يده، فألوى بها إلى السماء، ثم قال: «اللَّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، اللَّهُمَّ أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت أم سلمة: فأدخلتُ رأسى البيت، فقلتُ: وأنا معكم يا رسول الله؟ قالصلى الله عليه وآله: «إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ، إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ».

تحدثت رواية أخرى عن أنها من أهل البيت بنص رسول الله صلى الله عليه وآله، وهى ما كانت تسعى إليه طيلة عمرها المديد: حدثوا أنه كان يوماً عندها وابنتها زينب هناك، فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين عليهما السلام، فضمهما إليه، ثم قال: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيد.

فبكت أم سلمة فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسألها فى حنو: ما بيكيك؟ أجابت: يا رسول الله خصصتهم، وتركتنى وابنتى. قال: إِنَّكَ وَابْنَتُكَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ (١).

ومن حبها لأهل البيت: أن جعلت ابنها عمر بن أبى سلمة فى جيش على عليه السلام. ولها مواقف أخرى سنأتى على ذكر بعضها. أبو لبابة الأنصارى:

«إن نزلتم على حكمه (حكم رسول الله صلى الله عليه وآله) فهو الذبح».

هذا ما قاله أبو لبابة الأنصارى لزعماء يهود بنى قريظة. فقد غزاهم رسول الله صلى الله عليه وآله فى السنة الخامسة للهجرة وحاصروهم حتى جهدهم الحصار. قذف الله فى قلوبهم الرعب، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يرسل إليهم صاحبه «أبا لبابة ابن عبد المنذر الأنصارى؛ ليستشروه فى أمرهم. فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فزق لهم.

وسألوه: يا أبا لبابة، أترى أن نزل على حكم محمد؟

فأجاب: نعم، إنه الذبح، وأشار بيده إلى حلقه.

فما زالت قدماه من مكانهما حتى عرف أنه خان الله ورسوله. وانطلق على

ص: ١٤٦

وجهه، فربط نفسه إلى عمود من عمد المسجد، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت... ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله خبره، وكان قد استبطأه، قال: أما أنه لو جاءني لاستغفرت له. فأما إذ فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه. أو أن الانصاري المذكور كان واحداً من جماعة تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك على رواية ثانية.. وكل منهما - لا شك - ذنب كبير وخطير. أو ثق - لأحد السببين المذكورين - نفسه بسارية المسجد النبوي معترفاً بما جنته نفسه، وبقي هكذا ست ليال، كانت تأتيه امرأته في كل صلاة فتحمله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع رافضاً أن يُطلقه غير رسول الله صلى الله عليه وآله.. وقد رفض هو الآخر إطلاقه حتى يأتيه أمر الله تعالى به، وكان رسول الله منتظراً لذلك. وشاءت السماء أن يكون منزل أم سلمة مهبطاً للوحي يحمل الآية الكريمة: .. وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.. (١)

تقول أم سلمة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله من السحر وهو يضحك. قالت: قلت: مم تضحك يا رسول الله صلى الله عليه وآله، أضحك الله سنك؟ قال: تيب على أبي لبابة. قالت: قلت: أفلا ابشره يا رسول الله؟ قال: بلى، إن شئت. فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليها الحجاب. فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك. قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه. فقال: لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي يطلقني بيده.. فلما مر عليه رسول الله صلى الله عليه وآله - بعد نزول الآية - خارجاً إلى الصلاة، أطلقه (٢)(٣).

١- ١ سورة التوبة: ١٠٢.

٢- ٢ السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٢٣٨، وأسباب النزول للواحدى: ٢٦٣ ومجمع البيان للطبرسي، الآية من سورة التوبة.
٣- ٢ السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٢٣٨، وأسباب النزول للواحدى: ٢٦٣ ومجمع البيان للطبرسي، الآية من سورة التوبة.

ص: ١٤٧

ومن بيتها أيضاً انطلقت توبه السماء على الثلاثة (كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع) الذين تخلفوا من الصحابة عن غزوة تبوك.

يقول واحد منهم وهو كعب بن مالك مبيناً دور أم سلمة وإحسانها اليه:

... ونهى النبي صلى الله عليه وآله عن كلامي وكلام صاحبي، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا، فاجتنب الناس كلامنا، فلبث كذلك حتى طال علي الأمر، وما من شئ أهم إلي من أن أموت فلا يصلي علي النبي صلى الله عليه وآله، أو يموت رسول الله صلى الله عليه وآله فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم، ولا يصلي علي، وفي رواية: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: اقسم بالله، لا أطلقهم حتى أوامر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يكون هو يعذرهم، فانزل الله توبتنا على نبيهم صلى الله عليه وآله حين بقي الثلث الآخر من الليل، ورسول الله صلى الله عليه وآله عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة في شأني، معني في أمري. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا أم سلمة تيب علي كعب».

قالت: أفلا أرسل اليه فأبشره؟

قال: «إذا يحطمكم الناس (يدوسونكم ويزدحمون عليكم) فيمنعونكم النوم سائر الليلة، حتى إذا صلى رسول الله صلى الله عليه وآله أهصلاة الفجر، آذن بتوبه الله علينا .. (١) الرشيدة الشفيعه الحازمة

ذكرت مصادر التاريخ دورها الرشيد في السنة السادسة للهجرة، وقد صحبت الرسول صلى الله عليه وآله وهو يريد مكة للعمرة فصدته قريش ومنعته والمسلمين من دخول مكة. وبعد أن تمت كتابة شروط صلح الحديبية.. واضطرت الامور بين المسلمين، وكان الأمر ينذر بخطر جسيم بينهم..

تقول الرواية:.... أمر النبي أصحابه أن يقوموا فينحروا ثم يلقوا.. فما قام منهم رجل، فقال ذلك ثلاث مرات، ومامنهم من يستجيب. فدخل علي زوجته أم سلمة التي كانت معه يومذاك، فاضطجع، فقالت: مالك يارسول الله؟

١- ١ انظر المغازي في حديث كعب بن مالك. ومسند أحمد وغيرها ...

ص: ١٤٨

فذكر لها مالتى من الناس، وأنه أمرهم بالحلق والنحر مراراً فلم يجيبوه، وهم يسمعون كلامه، وينظرون إلى وجهه الشريف. قالت أم سلمة: التمس لهم العذر يارسول الله. إنهم يرون الكعبه ويرون ديارهم، ثم يحرمون من دخول مكه..

ثم قالت: يانبي الله أتحب ذلك؟

أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمةً واحدةً حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك.. فإن ذلك سيقطع أملهم.. فقام فخرج فلم يكلم أحداً حتى فعل ذلك، ونحر بدنته، ودعا حالقه.. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً (١).

كما كانت شفيعة للمؤمنين وهذا جزء من مسؤوليتها كأم لهم، فقد شفعت لأخيها عند رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث قالت للنبي صلى الله عليه وآله وهي تغسل رأسه: كيف ينفعني عيش وأنت عاتب على أخي؟ فرأت من النبي صلى الله عليه وآله رقة، فأومأت إلى خادمها، فدعت أخاها، فلم يزل بالنبي صلى الله عليه وآله يذكر عذره حتى رضى الله عنه... (٢) وشفعت لأبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وعبدالله بن أمية بن المغيرة وقد كانا من الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وآله.

وقد كلمته أم سلمة فيهما ورجت أن يصفح عن زلتها فيما مضى، فقالت:

يارسول الله لا- يكن ابن عمك، وابن عمك وصهرك أشقى الناس بك. قالصلى الله عليه وآله: لا حاجة لى بهما. أما ابن عمى فهتك عرضى، وأما ابن عمتى فهو الذى قال لى بمكة ما قال.

قال أبو سفيان بن الحارث- لما سمع بذلك:- والله لتأذن لى، أو لآخذن بيد نبى هذا، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً.

فلما سمع الرسول صلى الله عليه وآله بذلك رق لهما، فدخلا وأسلما. وسرت بذلك أم سلمة.

١- ١ الطبرى ٢: ٧٨٦.

٢- ٢ الكامل فى التاريخ ٢: ٣٧٨

ص: ١٤٩

أما حزمها وقوة شخصيتها، فقد ظهرت بوضوح في مواقفها الحكيمه القويه من عائشه وحفصه وفي موقفها من قريبها عمر بن الخطاب، تقول بنت الشاطي:

وبدا واضحاً أن أم سلمة تعرف لنفسها قدرها، وتأبى على عائشه أو سواها المساس بكرامتها، وقد أعزها مجد عتيق موروث وآخر حديث مكتسب. وكذلك أبت على «عمر» أن يتكلم في مراجعة امهات المؤمنين لزوجهن الرسول صلى الله عليه وآله، وقالت له منكره: عجباً يا ابن الخطاب، قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه.

قال عمر: فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أجد. (١) الفتنة:

«استحي أن ألقى محمداً صلى الله عليه وآله هاتكةً حجاباً قد ضربه علي».

هذا جزء من كلمه طويله قالتها لعائشه حينما هبت هذه الأخيرة تقارع الإمام علياً عليه السلام وتقف بجانب طلحه والزبير تحرض الناس ضد الإمام من على ناقتها، فكان دورها خطيراً جداً فيما وقع من فتنة بين المؤمنين، وفيما وقع من بغى على الإمام عليه السلام في معركة الجمل في البصرة.

قالت لعائشه كلمات تتصف بالقوة والشده: أي خروج هذا الذي تخرجين؟!

نص كلمتها لعائشه حينما جاءتها هذه الأخيرة؛ لتخادعها على الخروج للطلب بدم عثمان، وقد قالت عائشه لها: يا بنت أبي أمية، أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وأنت كبيرة امهات المؤمنين، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقسم لنا من بيتك، أو كان يشير إلى بيتك عندما يؤتى بالهدايا، ومن بيتك يبعث إلينا بسهامك (بسهامنا)، وكان جبرئيل أكثر ما يكون في منزلك..

فقال أم سلمة: لأمر ما قلت هذه المقالة!

ثم لما سمعت برغبتها أو مسيرها مع كل من طلحه والزبير؛ لشن حربهم ضد الإمام علي كتبت تقول: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

ص: ١٥٠

أما بعد فقد هتكت سُدةً بين رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وأمه، وحجاباً مضروباً على حرمة، قد جمع القرآن ذبولك فلا تسحبها، وسكر خفارتك فلا تبدليها، والله من وراء هذه الامة. لو علم رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك، أما علمت أنه قد نهاك عن الفراط في الدين؟ فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهنّ إن صدع. جهاد النساء غضّ الأطراف وضّم الذبول وقصر الموادة. ما كنت قائله لرسول اللّٰه صلى الله عليه وآله لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصبة قلوبك قعوداً من منهل إلى منهل؟ وغداً تردين على رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وأقسم لو قيل لى: يا أم سلمة أدخلى الجنة؛ لاستحييت أن ألقى رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله هاتكةً حجاباً ضربه على، فاجعله ستر، وقاعة البيت حصنك فإنك أنصح لهذه الامة ما قعدت عن نصرتهم، ولو أتى حدثك بحديث سمعته من رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله لنهشت نهش الرقشاء المطرقة، والسلام (١). وهناك رواية لكلمتها هذه تختلف عنها قليلاً.

ثم راحت أم سلمة تعلن تأييدها للإمام علي صلى الله عليه وآله. تقول عنها بنت الشاطي:

ثم حاولت من بعده صلى الله عليه وآله أن تتجنب الخوض في الحياة العامة.. إلى أن كانت الفتنة الكبرى، فاندفعت توازر الإمام علياً، ابن عم الرسول، وزوج ابنته الزهراء، وأبا الحسن والحسين.

وودت لو تخرج فتنصره، لكنّها كرهت أن تبلى وهي أم المؤمنين بمثل ذاك الخروج، فجاءت «علياً» كرم الله وجهه، وقدمت إليه ابنتها «عمر» قائلة:

يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصى الله عز وجل، وأنتك لا تقبله مني؛ لخرجت معك. وهذا ابني عمر، والله لهو أعز علي من نفسي، يخرج معك فيشهد مشاهدك.

وفعلًا شهد عمر مشاهد الإمام عليه السلام ومنها معركة الجمل. واستعمله على فارس وعلى البحرين.

ومما يدل على حبها لآل الرسول صلى الله عليه وآله وخاصة للإمام علي عليه السلام ودفاعها عنه عليه السلام ما كتبه إلى معاوية مستنكرة ما كتبه إلى عماله أن يلعنوا علياً على المنابر،

ص: ١٥١

ففعّلوا، فكان ما كتبه رضوان الله عليها: إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم، وذلك أنكم تلعنون علي بن أبي طالب، ومن أحبه، وأنا أشهد الله أن الله أحبه، ورسوله.. لكن معاوية لم يلتفت إلى كلامها (١).

وكيف لا يكون حبها لآل البيت عظيماً ثابتاً وقد رافقت رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته ومسؤولياته ووعت كل ماسمعه عنهم، خاصة وهو يلقي آخر خطبة له في حجة الوداع... من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله..

استوففتها هذه الكلمات كثيراً، وراحت تتأمل ما تحمله كلماته صلى الله عليه وآله هذه وغيرها بوعي وأناة حتى دخلت قلبها ومشاعرها، فثبت ولاؤها لأهل البيت.

وانطلقت تقول كلمة الحق وتكشف الظلم وتشجب كل فرقة، وتقيم دعائم الوحدة بين المسلمين على أساس حبها لله تعالى ولمحمد وآله صلى الله عليه وآله.

علمها وروايتها:

كانت جليلة القدر، جزيلة الرأي، ملتزمة، تقيّة، عارفة بالقرآن الكريم وأحكامه، راويةً للسنة الشريفة، شارحةً لأحكامها، مبينةً لها، طالما اجتمع حولها النساء يستمعن لها ويتعلمن منها ويتقلن عنها، ويسترشدن بأرائها ويتحاكمن إليها كما تفعل بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله وقد انتفع الرجال بعلمها وروايتها ونصائحها وآرائها حتى عدت مصدراً من مصادر التفسير والفقه والرواية والتاريخ والسيرة النبوية..

وقد بلغ عدد ما روتته من الأحاديث ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثاً.

يقول أحمد خليل جمعة عنها: وأم سلمة رضي الله عنها قد وعت الحديث الشريف، وتفقهت بأمور الدين والشريعة الغراء، حتى كانت تعدّ من فقهاء الصحابيات، وممن يرجع إليها في بعض الأمور والأحكام والفتاوى، وخصوصاً فيما يخصّ فقه المرأة المسلمة، وفيما يتعلّق ببعض أحكام الرضاع، أو الطلاق، أو

ص: ١٥٢

ماشابه ذلك. وقد ورد أن سيدنا عبد الله بن عباس كان يُرسل، فيسألها عن بعض الأحكام. كما كانت تعد من جملة من يُرجع إليهم بالفتيا من الصحابة، وقد روى عنها كل من عبد الله بن عباس، وأبو سعيد الخدري وابنها عمر بن أبي سلمة، ومن النساء عائشة، وابنتها زينب بنت أبي سلمة. ومن التابعين؛ سعيد بن المسيب والشعبي، ومجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير، وآخرون. ومن النساء طيرة أم الحسن البصرى، وهند بنت الحارث الفراسية، وصفية بنت شيبة، وصفية بنت محسن وغيرهن (١).

ومن رواياتها:

استأذن أبو ثابت مولى على عليه السلام على ام سلمة، فقالت: مرحباً بك يا أبا ثابت، ثم قالت: يا أبا ثابت أين طار قلبك حين طارت القلوب مطيرها؟ قال: تبع علياً، فقالت: وفقت، والذي نفسى بيده لقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: على مع الحق والقرآن، والحق والقرآن مع على، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض.

قالت أم سلمة: أغدف (٢) رسول الله صلى الله عليه وآله على علي وفاطمة والحسن والحسين خميصه سوداء، ثم قال: «اللهم إليك لا إلى النار، أنا وأهل بيتي». قالت: قلت: وأنا يارسول الله. قال: «وأنت».

وقريب من ذلك ما روته ابنتها زينب مع اختلاف يسير حيث قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان عند أم سلمة، فجعل حسناً في شق، وحسيناً في شق، وفاطمة في حجره وقال: رحمه الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد (٣). وأنا وأم سلمة جالستان، فبكت أم سلمة، فقال: «ما يبكيك؟» قالت: يارسول الله خصصتهم وتركنتى وابنتى. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنك [وابنتك] من أهل البيت» (٤).

ومما روته، قالت: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا حضرتم المريض أو الميت

١- ١ نساء أهل البيت: ٢٤٦-٢٦٥ وانظر الهوامش.

٢- ٢ أغدف: بغين فـدال ففاء: ارسل وغطى، ومنه غداف المرأة، وهو ماتستر به وجهها: ١٥٤ من كتاب أزواج النبي للإمام محمد بن يوسف الدمشقى.

٣- ٣ سورة هود: ٧٣.

٤- ٤ ذكره صاحب كتاب أزواج النبي عن الطبرانى فى الكبير ٢٤: ٢٨١-٢٨٢ وغيره..

ص: ١٥٣

فقولوا: خيراً، فإن الملائكة تؤمن على ماتقولون. فلما مات أبو سلمة أتيت النبي صلى الله عليه وآله فأخبرته، فقال: قولي: اللهم اغفر لي وله، وأعقبني منه عقباً حسناً، فقلت ذلك. فأعقبني الله منه من هو خير منه رسول الله.

وعنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وآله إذا خرج في سفر يقول: «اللهم إني أعوذ بك أن أزل أو أزل» (١).

عن زينب بنت أبي سلمة، عن أمها أم سلمة رضي الله عنها: قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنما أنا بشر، وأنتم تختصمون إلي، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه منه شيئاً، فإنما أقطع له قطعة من النار» (٢).

ولما قدم ابن أبي جهل المدينة، فجعل يمر في الطريق، فيقول الناس: هذا ابن أبي جهل. فذكر ذلك لأم سلمة، فما كان منها إلا أن ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فذكرت له ما سمعت: فخطب صلى الله عليه وآله الناس وقال: «لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات» (٣).

ولما سئلت: ما أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

قالت: فقلت له: يا رسول الله: ما أكثر دعاءك «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»؟!

قال: «يا أم سلمة، إنه ليس من آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، ما شاء الله أقام وما شاء أزاغ» (٤).

ومما روته بحق أخيها من الرضا عمار بن ياسر، الذي طالما رعته وغضبت له حينما فعل به عثمان فعلته القدره، شتمه وأمر به فأخرج من مجلسه... وقد أثقلوه باللبن حينما شارك في بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة، فقال: يا رسول الله قتلوني يحملون علي ما لا يحملون.

١-١ ربيع الأبرار ٤: ١٩٦.

٢-٢ البخاري، ومسلم في الأفضية والنسائي في القضاء والشافعي في الأم..

٣-٣ ربيع الأبرار ٢: ٨٤١.

٤-٤ العقد الفريد ٣: ٢٢.

ص: ١٥٤

وهنا قالت أم سلمة: فرأيتُ رسولَ اللّٰه صلى الله عليه وآله ينفذ وفرته بيده، وكان رجلاً جعداً وهو يقول: «ويح ابن سميّة ليسوا بالذي يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية» وارتجز عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعداً ومن يرى عن الغبار حائداً
فأخذها عمّار بن ياسر فجعل يرتجز بها (١).

وفاتها:

أبت أم سلمة - وقد عرفت جيداً قدر نفسها - أن تموت دون أن تترك خلفها دروساً ينتفع بها الآخرون، فحياتها بكلّ مفصلها كانت مفعمة مليئة بالأحداث سواء قبل إسلامها وهي تعيش في بيت عرف - كما قلنا - بالكرم والشرف والإباء، أم في حياتها الأولى مع أبي سلمة زوجةً صالحه، أم في إسلامها وهجرتها وتصويرها لهجرتها حتى كانت روايتها أوثق وأدقّ روايات الهجرة، أم في هجرتها الثانية إلى المدينة وأحداثها وما رافقها من آلام..

أم في زواجها المبارك الذي اختارته السماء، وهي تعيش أطهر بيت مع أعظم إنسان عرفته الدنيا، لم تكن حياتها معه إلا طاعة وإيماناً وتصديقاً وخدمةً وجهاداً، حتى لم يعثر على خطأ لها على كثرة ما تركبه النساء من أخطاء وما تصنعه من متاعب.. ورغم ماعنائه من غيره وحسد أم المؤمنين عائشة وكذلك أم المؤمنين حفصة وما خلقتا لها من متاعب وصعاب. كانت تقابل كلّ ذلك بحكمةً وهدوء حتى تبعد هذا البيت عن كلّ ما يتعصب أصحابه صلى الله عليه وآله ويعكّر عليه حياته، أو يشغله عن مهامه العظيمة... وبقيت محافظةً على سيرتها وإن طال عمرها حتى تجاوز الثمانين عاماً،

ص: ١٥٥

فكانت آخر من توفى من زوجاته صلى الله عليه وآله ويبدو أنه قدر لهذه المرأة الصالحة المخلصة لزوجها ولأهل بيته أن تشارك رسول الله صلى الله عليه وآله عزاءه وحزنه، فقد بلغها استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، فوجمت لذلك، وغشى عليها، وحزنت حزناً شديداً، ولم تلبث بعد ذلك إلا سيراً، ثم انتقلت إلى رحمة الله (١).

وأما بنت الشاطئ فتقول: وتقدم العمر بأم سلمة حتى امتحنت، كما امتحن الإسلام وامته، بمذبحة «كربلاء» ومصارع الإمام الحسين وآل البيت صلوات الله عليهم، على الساحة المشنومة.

توفيت رضى الله عنها بعدما جاءها نعي الحسين بن علي عليه السلام (٢).

ويكفيها فخراً أن رسول الله توفى وهو راض عنها وعن أولادها الذين تكفلهم برعايته وتربيته..

وبقيت هذه المرأة ورضا رسول الله صلى الله عليه وآله يلاحقها ويواكبها حتى غدت وبيتها «مركز الإشعاع العلمى والفقهى للصحابة والتابعين والعلماء من شتى الأمصار» (٣).

توفيت سنة إحدى وستين وقيل سنة اثنتين وستين فى عهد يزيد بن معاوية، وشيعها المسلمون تشييعاً عظيماً حتى مرقدتها الأخير فى مقبرة البقيع فى المدينة المنورة.

الهوامش:

١- ١ الرسول فى بيته: الدكتور أحمد شلبى: ٧٨.

٢- ٢ نساء النبى صلى الله عليه وآله: الدكتور بنت الشاطئ: ١٥٠-١٥١.

٣- ٣ نساء أهل البيت، أحمد خليل جمعة: ٢٦٩.

ص: ١٥٨

الحج عبر الحضارات والامم (٢)

الحج عبر الديانات والامم (٢)

الحج عبر الديانات والامم (٢)

ماجدة المؤمن

الحج في الديانة اليهودية:

مارس اليهود الحج بأشكال مختلفه، واتجهوا إلى أماكن متعددة، واتخذت كل فرقة من فرقهم وجهة معينة، تحج إليها في أعيادها الخاصة، وعلى وفق مذهبها وتعاليمه وعقيدتها، وما تفرض عليها من الأوامر والنواهي...

وفكرة الحج، ليست طارئه على اليهود، فقد كانت منتشرة آنذاك، فمن كان على دين ابراهيم عليه السلام، كان يعرف الحج ويمارسه في بيت الله الحرام، ومن كان من الأقوام السامية، فانه يحج إلى المعابد والهيكل وقبور الموتى، وغير ذلك مما وجدناه في الحضارات والامم.

فاليهود كغيرهم، حجوا ومارسوا طقوساً خاصة بالحج، وسفر الخروج في التوراة حدّد لهم أعياداً دينية سنوية يزورون فيها مقدساتهم بملابس خاصة أو جديدة، وينحرون ويطوفون ويقرأون الأدعية والتعويذات الخاصة وغير ذلك، وحجهم خليط من حج وضعى وحج سماوى، فهو صورة جديدة بين حج

ص: ١٥٩

وثنى باطار توحيدى.

والظاهر أن حج اليهود كان فرضاً واجباً أوجبته التوراء عليهم، هذا ما يؤكد النص التالى:

«والحج إلى معبد من المعابد عادةً سامية قديمة جعلت حتى فى الأجزاء القديمة من أسفار موسى الخمسة فرضاً يجب أدائه، فقد ورد فى سفر الخروج، فى الاصحاح الثالث والعشرين، الآية الرابعة عشرة:

«ثلاث مرات يعيد لى فى السنة» وفى الآية الثالثة والثلاثين من الاصحاح الرابع والثلاثين «ثلاث مرات فى السنة يظهر جميع ذكورك أمام السيد الرب إله إسرائيل» وربما كان فى بلاد العرب أيضاً أماكن كثيرة للحج حيث كانت تقام شعائر شبيهة بالحج إلى عرفات» (١).

وفى كل عيد من هذه الأعياد الثلاثة اتخذت الفرق اليهودية حجاً إلى أماكن معينة، وفى يوم الاستغفار (عيد المظال) كانوا يحجون إلى جبل سيناء، وفى عيد الفصح إلى بيت المقدس، وفى عيد استير وعيد المطر و... الخ يتجهون إلى أماكن أخرى، كما سنرى من خلال البحث ان شاء الله...

مع هذا، وعند استقراءنا للتوراء، لم نجد ذكر مكان معينٍ خاصٍ للحج على لسان نبيهم موسى عليه السلام كوعدِ الهى لهم، وتساءل هنا: هل الله تعالى لم يشرع لهم فريضة الحج إلى مكان معين، أم رواة وكتبة النصوص الدينية التوراتية تجاوزوا ذكرها، أم تعمدوا تحريفها لعنصرتهم المعروفة؟

ولهذا تعددت أماكن الحج، وكثرت إليها الرحلات اليهودية فى الأعياد السنوية، ويكاد كل موضع يبدأ اسمه بكلمة «بيت» يكون مكان حج وزياره سابقاً أو لاحقاً، فمثلاً «بيت المقدس» و «بيت إيل» و «بيت آون» كان بالقرب من بيت إيل و «بيت إصل» فى يهوذا و «بيت حور» بالقرب من القدس و «بيت هاجن» فى المكان الذى ولد فيه عيسى عليه السلام فى بيت لحم و «بيت هاشطة» وبيوت أخرى

ص: ١٦٠

وأخرى كثيرة يطول الكلام في عدّها وذكرها، يمكن الرجوع إلى الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) حيث أحصاها وعدّها عدداً... وفي تحديد أوقات الحج، يقول د. حسن ظاظا: أما الأوقات التي يحجون فيها فهي موازية لأعيادهم وهي ثلاثة أوقات:

١- عيد الفصح: ويقع في فصل الربيع، ومدته ٧ أيام تبدأ يوم ١٥ نيسان في التقويم اليهودي.

٢- عيد الحصاد أو الأسابيع (شبو عوت)، ومدته يوم واحد، ٦ من شهر سيوان اليهودي، ويقع في أوائل الصيف (يونيه).

٣- عيد الظلّل: (سوكوت) ومدته ثمانية أيام، ويأتي في الخريف، ويبدأ يوم ١٥ تشرى اليهودي، ويسمون هذه المواسم «الثلاثة الاعتيادية» يستحب فيها الحج؛ لاقترانها بالكثير من الصدقات (١).

وجهة النبي موسى عليه السلام في الحج

ومن الضروري والمناسب أن نعرف وجهة كليم الله النبي موسى عليه السلام في الحج، قبل أن نقف على ما حرّف اليهود من شريعته موسى عليه السلام نبيهم الذي ينسبون أنفسهم إليه، ويدعون أنهم من أتباعه ومحبيه والسائرين على خطه وتعاليمه...

عند تتبعنا للأخبار والروايات والأحاديث الواردة من السّنة الشريفة لا نجد الكليم موسى عليه السلام توجه بوجهه معاكسة أو مخالفة لما توجه إليها أنبياء الله والمرسلون فهو عليه السلام حج وطاف ولبي في بيت الله العتيق مقتدياً بسنة آبائه وأجداده من الأنبياء، ومجيباً لأوامر السماء، هذا ما تؤكد الروايات في حجه عليه السلام، نختار منها:

روى عن ابن عباس أنه قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله بين مكة والمدينة، فمررنا بوادٍ، فقال:

أى واد هذا؟ قالوا: وادى الأزرق، قال: كأنى أنظر موسى صلى الله عليه وسلم (فذكر من طول شعره شيئاً لا يحفظه داود) - أحد رواة

١- ١ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ٢١٠: ١٠.

ص: ١٦١

الحديث-) واضعاً أصبعيه في أذنيه، له جوار إلى الله بالتلبية ماراً بهذا الوادي، قال: ثم سرنا حتى كذا وكذا... الخ» (١) أى ذكر حجه إلى مكة المكرمة والكعبة الشريفة.

وروى عن أبي جعفر الباقر عليه السلام:

مرّ موسى بن عمران عليه السلام في سبعين نبياً على فجاج الروحاء... يقول: لبيك عبدك ابن عبدك» (٢).

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام أيضاً أنه قال: «أحرم موسى من رملته مصر، قال: ومرّ بصفائح الروحاء محرماً، يقود ناقه بخطام من ليف، عليه عباءتان قطونيتان، يلبى وتجيئه الجبال» (٣).

وروى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مرّ موسى النبي (صلوات الله عليه) بصفائح الروحاء على جبل أحمر، خطامه من ليف عليه عباءتان قطونيتان وهو يقول: لبيك يا كريم لبيك» (٤).

وجاء في أخبار مكة: «حج موسى النبي على جبل أحمر فمرّ بالروحاء عليه عباءتان قطونيتان مترر بأحدهما مرتدى بالأخرى فطاف بالبيت، ثم طاف بين الصفا والمروة فبينما هو بين الصفا والمروة إذ سمع صوتاً من السماء وهو يقول: لبيك عبدى أنا معك، فخر موسى ساجداً» (٥).

والنبي موسى عليه السلام من كبار الأنبياء والرسول، وفي مصطلحاتنا الإسلامية يُعدُّ من أولى العزم، وعليه فلا يمكن أن ينحرف في حجه إلى الوجهة غير الصحيحة وغير المرضية عند الله تعالى، وإذا وجدنا هناك انحرافاً في اليهودية فهو في قومه الذين خالفوه، ولم يلتزموا بتعاليمه وأوامره مما أخذهم الله تعالى بانحرافهم وذنوبهم، فكانوا قوماً مهانين ومغضوباً عليهم إلى يوم يبعثون، قال تعالى فيهم: وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما

١-١ سنن ابن ماجه ٢: ٩٦٥، محمد بن يزيد القزويني، الحلبي وشركاه.

٢-٢ وسائل الشيعة ١٢: ٣٨٥ ح ١٦٥٧٤.

٣-٣ وسائل الشيعة ٩: ٥٤.

٤-٤ بحار الأنوار ٩٩: ١٨٥، الطبعة البيروتية.

٥-٥ أخبار مكة، الأزرقى: ص ٦٨-٦٩.

ص: ١٦٢

عَصُوا وكانوا يعتدون (١).

انحراف اليهود فى حجهم

لم يتبع اليهود سُنَّةَ كليم الله موسى عليه السلام، نبيهم الذى توجه فى حجه الى بيت الله العتيق كما مرّ علينا سابقاً، بل حرّفوا أغلب تعاليم دينه ومن ضمنها الحج، ومن الملاحظ أن:

«الحج عند اليهود فى الوقت الحاضر ليس بفريضة عندهم ولا بركن من أركان العبادة كما هو فى الإسلام، فهو على أكثر تقدير يشبه (العمره) عند المسلمين» (٢).

وانقسم (٣) اليهود بعد الكليم عليه السلام الى عدة فرق، وكلُّ فرقه اتخذت لها وجهه ومكاناً تحج إليه بوضع تعاليم وطقوس وشعائر خاصه بها.

ولنعرض قسماً منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- توجه قسم منهم إلى بيت المقدس وهيكل سليمان عليه السلام.

٢- والقسم الآخر إلى جبل النبی موسى عليه السلام فى طور سيناء.

٣- وآخرون إلى بئر الحى الرائى بالقرب من مدينه الخليل.

٤- ومنهم من توجه إلى (بقاع مباركه) - حسب تعبيرهم - أهمها الجبال الشامخه والتلال والآبار وعيون الماء وأماكن طبيعیه أخرى.

وسنحاول ان شاء الله تعالى تفصيل هذه النقاط قدر استطاعتنا، وبيان الأساليب المتبعه فى حجهم وتاريخه والمواقع الجغرافيه لكل منها.

الحج إلى بيت المقدس

يُعدُّ بيت المقدس أو القدس من أهم الأماكن المقدسه لدى اليهود - إضافة إلى أهميته عند المسيحيين والمسلمين - لذلك تميّز حجهم لهذا البيت بقديسه ومعنى خاصين.

عظّم اليهود بيت المقدس وخاصه فرقه (يهودا) المنحدره من داود وسليمان عليهما السلام، خصوصاً بعد بناء النبی سليمان عليه السلام للهيكَل المعروف فى القدس الشريفه ب (هيكَل سليمان).

«وقديسه بيت المقدس عند اليهود تاريخها مقارناً لبناء سليمان

١ - ١ البقره: ٦١.

٢ - ٢ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفیصل، العدد ٢١٠: ١٠.

٣ - ٣ انقسم اليهود بعد موسى عليه السلام إلى عدة فرق ودويلات من الناحیه السياسيه ومن الناحیه القبليه ومن الناحیه الدينيه، والذى يهمننا هنا انقسامهم من الناحیه الدينيه، فقد انقسموا إلى خمس فرق دينيه، وهى: فرقه الفريسيين وفرقه الصدوقيين، وفرقه السامريين، وفرقه الحدسيين، وفرقه القرانيين.

ص: ١٦٣

الهيكل، والهيكل المعبد المركزي لليهود الذي صار حراماً للحج وقبله للصلاة منذ عهد داود وسليمان عليهما السلام، وهذا المعبد الضخم تعرض عبر تاريخه ولحد الآن إلى أحداث جسام لم يبق منه إلا جزء من جدار، يعرف عند اليهود باسم (الجدار الغربي) وعند سائر الأمم باسم «حائط المبكى» وهو جدار من سور يرجع إلى عهد هيرودس المعاصر لمولد المسيح عليه السلام» (١).

والقدس: مدينة تقع وسط فلسطين فوق تلصخرى من تلال اليهودية على ارتفاع (٧٦٢ م) على بُعد حوالي ٥ كم من يافا، وهي المدينة الجديدة... أما المدينة القديمة فتقع بآثارها الدينية بالمملكة الأردنية الهاشمية.

وبيت المقدس: هو البيت الذي فيه مقدسات الأديان الثلاثة (اليهودية- والمسيحية- والإسلام) وتضم المدينة القديمة معظم الأماكن المقدسة. كان اليهود يعتقدون أن جانباً من أحد جدران المسجد الأقصى بنى بأحجار أخذت من هيكل سليمان، وهو الجدار المعروف بحائط المبكى... وقد تكون هي شليم، المذكورة في سفر التكوين، وجعلها داود عاصمته بعد انتزاعها من اليوسيين، وأقام سليمان هيكله العظيم بها، فزاد من بهائها وعظمتها، واتخذها ملوك يهوذا عاصمته مملكتهم. التي ظهر فيها كثير من عظماء الأنبياء من بنى اسرائيل الذين نادوا برسالتهم في شوارعها.

ويقال: «ما فيها موضع شبر إلا وقد صلّى فيه نبي» (٢).

«حارب اليهود العرب لانتزاعها من ايديهم، واضطر اليهود إلى أن ينزلوا للعرب عن المدينة القديمة، ولكن المدينة الجديدة لا تزال في قبضتهم» (٣).

المهم، أنهم - فرقة يهوذا - اتخذت من بيت المقدس وهيكل سليمان محجةً سنويةً لها في العيد السنوي الديني المسمى ب (عيد

١- ١ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ٢١٠: ٩.

٢- ٢ معجم البلدان ١: ١١٢.

٣- ٣ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ٤٥٤.

ص: ١٦٤

الفصح (١).

وأهم المراسم المتبعة فيه هي «الضحية» أي القربان أو «الهدى» في المصطلح الإسلامي، يقدم إلى الرب أو الإله، وهذا القربان تؤكد وصايا تلمودهم (٢)، التي تختلف اختلافاً كبيراً مع الوصايا المنصوص عليها في التوراة في مسألة «الضحية»، فالتوراة أوصاهم بتقديم «ثور» (٣) قرباناً للرب في عيد الفصح. أما تعاليم التلمود فكانت توصيهم أن تكون الضحية من البشر: و«تختار الضحايا أو الذبائح في عيد الفصح من الأطفال، الذين لا تتجاوز سنهم العاشرة أو تزيد عنها قليلاً. ويمزج دم الضحية بعجين الفطائر قبل تجفيفه أو بعده...

ويستنز اليهود دم الضحية بطرائق كثيرة: فأحياناً يتم ذلك عن طريق «البرميل الابري» وهو برميل مثبت على جوانبه من الداخل إبر حادة توضع فيه الضحية حيّة فتتغرز هذه الإبر في جسمها، وتسيل الدماء ببطء من مختلف الأعضاء، وتظل كذلك في عذاب أليم حتى تفيض روحها، بينما يكون اليهود الملتفون حول هذا البرميل في أكبر نشوة بما يبعثه هذا المنظر في نفوسهم من لذة وسرور. وينحدر الدم إلى قاع البرميل ثم يصب في إناء مُعد لجمعه» (٤).

و«أحياناً تقطع شرايين الضحية في عدة مواضع ليتدفق الدم من جروحها. وأحياناً تذبح الضحية كما تذبح الشاة ويؤخذ دمها، وبعد أن يتجمع الدم بطريقة من الطرق السابقة أو غيرها تسلم إلى الحاخام أو الكاهن أو الساحر، الذي يقوم باستخدامها في إعداد الفطائر المقدسة أو في عمليات السحر» (٥).

أما الزمان أو الوقت الذي يحجون فيه إلى بيت المقدس، ليقيموا شعائرهم في عيدهم الديني هذا، فهو اليوم الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم الدينية وهو شهر نيسان، ويحتفلون فيه بنجاة موسى عليه السلام وبنى إسرائيل من فرعون وقومه

١- ١ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ٤٥٤.

٢- ٢ التلمود: تعاليم دينية وضعها علماء اليهود، وهي كالمسائل العملية عندنا، مع فارق لا قياس فيه.

٣- ٣ العهد القديم، سفر الخروج، الاصحاح ٢٩: «خذ ثوراً واحداً ابن البقر وكبشاً صبيحاً و... الخ» راجع.

٤- ٤ اليهود واليهودية، د. علي عبدالواحد وافى: ٤٤-٤٥، وكتاب حقائق وأباطيل، فوزى محمد حميد: ١٤١-٢٠٠.

٥- ٥ المصدر نفسه، ومن المعلوم عندهم أن يكون دم الضحية من غير اليهود، وإذا كان دم مسيحي فيكون أفضل عندهم.

ص: ١٦٥

وخرجهم من مصر (١).

والفصح في اللغة (فصح أى الفصح أو الخروج أو المرور).

وقد ورد أن هذا العيد «عيد اليهود، ١٥ نيسان (الشهر السابع في التقويم العبرى) ويسمى أيضاً عيد الفطير، وفيه خروج بنى إسرائيل من مصر هرباً من فرعون» (٢).

وعن قضية التضحية بالأطفال يقول ول ديوارنت:

«لقد كان اليهود الأقدمون يشتركون مع الكنعانيين والمؤابيين والفينيقيين والقرطاجنيين وغيرهم من الشعوب في عادة التضحية بطفل، بل بطفل محبوب، لاسترضاء السماء الغضبية، ثم أصبح في الإمكان على توالى الأيام أن يستبدل بالطفل المجرم المحكوم عليه بالإعدام، وكان البابليون يلبسون هذا الضحية أثواباً ملكية، لكى يمثل بها ابن الملك، ثم تجلد وتشنق، وكان هذا نفسه يحدث في رودس في عيد كرونس. وأكبر الظن أن التضحية بحمل أو جدى في عيد الفصح ليست إلتخفيفاً لهذه التضحية البشرية اقتضاه تقدم المدنية» (٣).

والظاهر أن اليهود في الحال الحاضر يضحون بحمل أو جدى في حجهم إلى بيت المقدس، وقتلهم للبشر اتخذ صوراً أخرى...

جبل موسى عليه السلام فيصحراء سيناء

اعتقد اليهود أن الجبل الواقع في طور سيناء، الذى يبعد (٣٢٠) كيلومتراً عن منطقة عيون موسى والذى يبلغ ارتفاعه (٧٦٠٠) قدم، هو الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام فيه، وأنزل عليه الألواح المقدسة... فقدسوا هذا الجبل جيلاً بعد جيل وحجوا إليه، وعدوه من المقدسات اليهودية المهمة.

وقد صرح الاستاذ (منشه حاريل) استاذ الجغرافيا الدينية وتاريخ الأديان بالجامعات العبرية قائلاً: «إن اليهود يحجون كل عام...

ومن القرن السابع الميلادى حتى اليوم الى جبل موسى، ويتحملون مشقة

١- ١ انظر العهد القديم، سفر اللاويين، الاصحاح ٢٣، الفقرات ٥- ٩.

٢- ٢ الموسوعة العربية الميسرة: ١٢٤٧.

٣- ٣ قصة الحضارة، مج ٦، ١: ٢٦٤.

ص: ١٦٦

الوصول إليه، وتسلق (٣٨٠٠) درجة للوصول إلى قمته، التي يعتقدون أن موسى كلم ربه فوقها، وتلقى منه الرسالة والوصايا، حتى أصبح ذلك الجبل بالنسبة لهم كالكعبة بالنسبة للمسلمين. ولا يقل عدد من تحملوا مشقة ذلك الحج عن العشرين مليون يهودي، حتى أصبح ذلك الجبل من المقدسات الدينية» (١).

ثم يبين خطأ اعتقادهم وصرح في حديث له نُشر في مجلة المختار الألمانية عام (١٩٧٤ م) بأن كل ما ورد في بحوث البعثة الأمريكية صحيح، وأنه يتفق مع النتائج، التي توصلت إليها بحوث معهده، وتم تسجيلها وإعداد مخططاتها من بضع سنوات، فالجبل الذي يحجون إليه ليس هو نفسه الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام فيه.

ولما سئل عن سبب عدم موافقته على نشرها وعلانها رسمياً قال:

«إعلان تلك البحوث أو الحقائق التاريخية ستخيب آمالهم وتفقدتهم ثققتهم في اسطورة تحولت إلى عقيدة» (٢).

والحقيقة، أن التوراة تذكر مشخصات وعلامات لجبل موسى عليه السلام تختلف عما موجود في الجبل الذي يحجون إليه سنوياً كبعده من عيون موسى، وارتفاعه وغيرها من العلامات... ووصف الأرض أنها أرض مناجم الفيروز والنحاس، الذي اشتهر اليهود بصناعتها والتجارة فيها في ذلك الوقت (٣).

فالجبل الذي يحجون إليه سنوياً بعيد عن عيون موسى، وأكثر ارتفاعاً من الجبل المذكور في التوراة، والذي كشفت البعثة الأمريكية للآثار، وليس لمناجم الفيروز والنحاس وجود فيه...

إذن هذه العقيدة الأسطورية لليهود، أصبحت واضحة للعيان كوضوح الشمس في ظهر النهار أنها بدعة ابتدعتها أنفسهم بعد ميلاد عيسى المسيح عليه السلام بسبعة قرون، ومثلها تعاليم التلمود، ومثلها من تدوين التوراة من قبل، وهكذا. أما

١- ١ فرعون موسى، د. سيد كريم، مجلة الهلال، العدد ٥: ٧٣، عام ١٩٧٥ م.

٢- ٢ المصدر السابق.

٣- ٣ راجع سفر الخروج العهد القديم يبين ويوضح جغرافية ذلك المكان.

ص: ١٦٧

مناسك حجهم إلى هذا الجبل، يمكن بيانها من خلال الموازنة التي أجراها (هوتسما) (Houtsma) بين الوقوف- وقوف المسلمين في عرفات- وبين إقامة بنى إسرائيل على جبل سيناء، فهؤلاء يعدون أنفسهم لهذه الإقامة بالامتناع عن النساء (سفر الخروج، الاصحاح ١٩، آيه ١٥)، وبغسل ثيابهم (الخروج، ١٩ / ١٠ و ١٤) وبذلك يقفون أمام الرب، وعلى هذا النحو لا يقرب المسلمون النساء ويرتدون ثياب الإحرام ويقفون أمام الخالق في سفح جبل سيناء» (١).

ومن مناسك هذا الجبل أيضاً، الاستسقاء من ماء عين (شيلوه المقدسة) ولهذا الاستسقاء تعويذه خاصة، وإنارة المعبد، وكذلك الضحية (الهدى) وأمور أخرى، إضافة إلى ذلك فإن وقت هذا الحج لهذا الجبل، يكون عادةً في عيد المظال أو (يوم الاستغفار) (٢)، «فمن الطبيعي عند البحث في معناه الأصيل أن نوازن بينه وبين عيد الخريف عند سامى الشمال، وهو عيد المظال (أو يوم الاستغفار) وهو أمر نجد له ما يؤيده أيضاً من أن عيد المظال في التوراة غالباً ما يطلق عليه للايجاز اسم «حج» (سفر القضاة، الاصحاح ٢١، الفقرة ١٩، وسفر الملوك الأولى، الاصحاح الثامن، الفقرات ٢ و ٦٥) ...» (٣).

بئر الحى الرائي بالقرب من الخليل

وهناك فرقة أخرى من اليهود قدست هذه المنطقة التي فيها (البئر المقدس) وحجت إليها، وما زالت هذه الفرقة تعتقد أنّها بلد جدّهم الأعلى إسحاق بن الخليل ابراهيم عليهم السلام، ومدينة إقامته ووفاته.

جاء في التوراة: «وكان بعد موت إبراهيم أن الله بارك إسحاق ابنه، وأقام إسحاق عند بئر الحى الرائي و... الخ» (٤).

وذكرت التوراة أيضاً أنّ إسحاق تزوج من (رفقة) في ذلك المكان في حياة أبيه إبراهيم عليه السلام وأمه سارة:

«وكان إسحاق قد أتى من وروُد

١- ١ دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ٧: ٣٠٦.

٢- ٢ راجع المصدر نفسه: ٣١٠.

٣- ٣ دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ٧: ٣٠٦.

٤- ٤ العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ٢٥، الفقرة ١١.

ص: ١٦٨

بئر الحى رُئي. إذ كان ساكناً في أرض الجنوب، وخرج إسحاق ليتأمل في الحقل عند إقبال المساء، فرفع عينيه ونظر وإذا جمالاً مقبله، ورفعت رفقتهُ عينها فرأت إسحاق فنزلت عن الجمل، وقالت للعبد: من هذا الرجل الماشى في الحقل للقائنا؟ فقال العبد: هو سيدى. فأخذت البرقع وتغطت، ثم حدث العبدُ إسحاق بكلِّ الأمور التي صنع، فأدخلها إسحاق إلى خباء سارة أمه، وأخذ رفقتهُ فصارت له زوجةً وأحبها» (١).

ولهذه القصة في هذا المكان المقدس، لها وقع خاص في قلوب اليهود؛ لذلك قُدمت المنطقة وقُدس ماءُ بئرها. ومنطقة (بئر الحى الرائي) تقع بالقرب من مدينة الخليل، والخليل على بُعد (٤٤) كم جنوب بيت المقدس، وهي مدينة حبرون القديمة، وفيها قبر الخليل إبراهيم وزوجه سارة وإسحاق ويعقوب وقبر رفقته، ويضمُّ هذه القبور مسجدٌ كبير (٢). ولهؤلاء الخمسة مكانة خاصة عند بعض اليهود؛ لذلك قُدمت قبورهم وأماكن ذكرياتهم، واعتبرت مكاناً يُحج إليه، ويتقرب بهم إلى الله في تقديم الأضاحي والندورات والهدايا، وقراءة الأدعية والتضرع والتخشع والبكاء؛ للحصول على النعيم الاخرى من خلالهم ولرضا الربِّ الاله.

ويقول د. حسن ظاظا في الحج الى هذه المنطقة:

«وبئر الحى الرائي، بالقرب من الخليل، وقبالة سندیانة قفرا، كثير من أتقاء اليهود يحجون إليها حتى اليوم، لما جاء في التوراة: وكان بعد موت إبراهيم أن الله بارك إسحاق ابنه، وأقام إسحاق عند بئر الحى الرائي، وتزوج عندها في رفقته قبل موت ابويه سارة وإبراهيم» (٣).

معبد (بيت إيل) بالقرب من نابلس (٤) عظمت هذا المعبد فرقة أخرى

١-١ المصدر السابق، الاصحاح ٢٤، الفقرات ٦٢-٦٧.

٢-٢ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ٧٦٤.

٣-٣ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ٢١٠: ٧.

٤-٤ نابلس: مدينة بالملكة الأردنية الهاشمية، على الضفة الغربية لنهر الأردن، وعلى بُعد ٦ كم شمال بيت المقدس، يعيش بها عدد قليل من السامريين القدامى، الذين مازالوا يحافظون على طقوس عبادتهم وعلى تقاليدهم القديمة. ذكرتها التوراة باسم شكيم بمعنى منكب، انظر الموسوعة العربية الميسرة: ١٨١١.

ص: ١٦٩

من اليهود وهي فرقة (السامرية) وهي الفرقة اليهودية التي لا تؤمن إلا بالأسفار الخمسة، التي تمثل القسم الأول من (العهد القديم)، وكذلك لا تؤمن بالبعث واليوم الآخر... وقد ذكرها ابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) قائلاً:

«أنهم يبطلون كل نبوة كانت في بني إسرائيل بعد موسى ويوسع عليهما السلام، فيكذبون شمعون وداود وسليمان وأشعيا واليسع وإلياس وعاموص وحقوق وزكريا وأرميا وغيرهم، وأنهم يقولون: إن مدينه القدس هي نابلس، وهي من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلاً، ولا يعرفون حرمة بيت المقدس ولا يعظمونه. وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها» (١).

وكان معبد «بيت إيل» الذي أقامه يعقوب في أرض كنعان بالقرب من نابلس، المكان الأول الذي يحج اليه بنو اسرائيل حتى أن سيد سليمان الهيكل في القدس، ولم يفقد منزلته هذه إلا بعد انشطار مملكة سليمان نصفين بعد وفاته:

١- السامرة شمالاً وكانت مملكة معادية لأسرة داود وسليمان في الجنوب، وتسمى نفسها إسرائيل! واستمرت في الحج إلى بيت إيل.

٢- يهوذا المنحدرة من داود وسليمان، فكانت تحج إلى «الهيكل» في أورشليم، وهو الاسم الذي اشتهرت به منذ سليمان (٢).

وفي هذا المعبر قبر يوسف عليه السلام، وعين يعقوب عليه السلام بالقرب منها (٣).

أما القبلة التي تتوجه إليها فرقة السامرة فهي نحو جبل يقال له «غريزيم» بين بيت المقدس ونابلس. قالوا:

إن الله تعالى أمر داود أن يبنى بيت المقدس بجبل نابلس، وهو الطور الذي كلم عليه موسى عليه السلام، فتحول داود إلى (إيلياء) وبنى البيت ثمة، وخالف الأمر، فظلم، والسامرة توجهوا إلى تلك القبلة دون سائر اليهود (٤). الذين قبلتهم بيت المقدس.

١- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ١: ٨٢.

٢- ٢ انظر طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ٢١٠: ٧.

٣- ٣ الموسوعة العربية الميسرة: ١٨١١.

٤- ٤ الملل والنحل، الشهرستاني، ت ٥٤٨: ٥، الطبعة الإيرانية.

ص: ١٧٠

وكلمة «إيل» تعنى «الله» فيكون معنى المعبد «بيت الله» ويجاور هذا المعبد، جبل ونخله، الجبل اتخذوه كعرفات فى مكة، والمعبد كالكعبة، والنخله ك (العزى): وهى فى وادى بطن نخله، قطعها خالد بن الوليد بأمر النبى محمد صلى الله عليه وآله التى كان يُحجُّ إليها فى الجاهلية ويُعلق عليها النذور والهدايا... فمقام تلك النخله كهذه.

ولفرقة السامرة طقوس خاصة كالطواف والأضاحى وغيرها من صعود الجبل والوقوف عليه، وتقديم النذورات والهدايا والقرايين للشجرة المقدسة؛ لتقضى لهم حوائجهم... وقد جاء فى سفر القضاء: «وكانت دبورة النبية، زوجة لفيدوت متولية قضاء بنى إسرائيل فى ذلك الزمان- أى بعد موسى بقرنين- وكانت دبورة تجلس تحت (نخله دبورة) بين الرامة وبيت إيل (فى إقليم نابلس) فى جبل أفرام، وكان بنو إسرائيل يصعدون إليها لتقضى لهم» (١).

ومن الجدير ذكره أن دعاء السمات للشيعة الإمامية، ذكر قدسيه هذا المكان، ويبدو أن السبب هو تجلى مجد الله تعالى للنبى يعقوب عليه السلام جاء فى الدعاء: «اللهم وباسمك العظيم الأعظم الأعز الأجل الأكرم، وبمجدك الذى تجليت به لموسى كليمك عليه السلام ول...»

ول... وليعقوب نبيك عليه السلام فى بيت إيل» (٢).

أماكن مقدسة من الطبيعة

وحجّ قسم آخر من اليهود إلى أماكن طبيعية كالجبال الشاهقة، وبعض التلال والأشجار والآبار وعيون الماء، اعتماداً على النصوص التوراتية، واقتداءً بسنة الأجداد، الذين قدسوها واعتبروها آيات عظيمة تقربهم إلى الرب.

وهذا النص التوراتى يبين قدسيه الأماكن الطبيعية من الأرض: «هذه هى الفرائض والأحكام التى تحفظون لتعلموها فى الأرض التى أعطاك الرب إله آبائك؛ لتمتلكها كل الأيام التى تحيون على الأرض. تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم، التى

١- ١ سفر القضاء، الإصحاح ٤، الفقرات ٤-٥.

٢- ٢ مفاتيح الجنان، الحاج الشيخ عباس القمى، دعاء السمات.

ص: ١٧١

ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة، وعلى التلال، وتحت كل شجرة خضراء. وتهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتحرقون سواريتهم بالنار، وتقطعون تماثيل آلهتهم، وتمحون اسمهم من ذلك المكان... لا تفعلوا هكذا للرب إلهكم. بل المكان الذي يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سكناه تطلبون والى هناك تأتون.

وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ورفائع أيديكم وندوركهم ونوافلكم وأبكار بقركم وغنمكم» (١).

وهذا النص التوراتي له وقع كبير في نفوس بعض اليهود، حيث يذهبون سنوياً إلى تلك الأماكن المخصصة من الطبيعة، التي احتلها الأجداد وقضوا على سكانها، وأحرقوهم، وقتلوهم، يذهبون إليها حجاجاً معيدين مع ذبائحهم وضحاياهم وندورهم وهداياهم، وهذا ما يوجه عليهم المقطع الأخير من النص، إضافة إلى أمرهم بالصلاة الخاصة هناك، وتقديم البكر من البقر والغنم إما ضحية أو هدية، وقبل هذا كله يوصيهم النص أن يقدموا محرقاتهم أي (ينيروا المكان) ليستضيئوا ولا تمسهم الظلمة.

وهذا الحج في الحقيقة عادة وثنية اقتبسها اليهود، الذين عاشوا في قرون سبقت عهد موسى عليه السلام، فانتقلت إلى أبناءهم فدخلوا عليها عبر القرون والأيام ما يسهل حاجتهم العنصرية والنفسية، فجعلوها ضمن معتقدتهم الديني.

ويقول د. حسن ظاظا: «كان اليهود - أو بنو إسرائيل - يجعلون من الأشجار والجبال والتلال وعيون الماء والآبار مزارات يحجون إليها ويتبركون بها، وينون عندها معابدهم» (٢).

جاء في الحديث عن إبراهيم عليه السلام في التوراة: «وتجلى له الرب في سندبانة (قَمْرًا) وهو جالس بباب الخيمة، عند ارتفاع النهار. فرفع بصره وألقاه فرآى ثلاثة رجال

١-١ سفر التثنية، الاصحاح ١٢، الفقرات ١-٧.

٢-٢ طقوس الحج عند اليهود: ٧.

ص: ١٧٢

واقفين أمامه، فلما رآهم همَّ لاستقبالهم أمام باب الخيمة، وسجد الى الأرض قائلاً: مولاي! إن كانت لي حظوة في عينيك، فلا تضربصفحة عن عبدك، سأقدم لكم بعض الماء فتغسلون أرجلكم، وتتكون تحت الشجرة، وأقدم كسرة خبز، لتسندوا بها قلوبكم، ثم تنصرفوا، بعد ذلك، فإنكم لذلك مررتم بعبدكم.

قالوا: اصنع كما قلت! فاسرع إبراهيم الى الخيمة، الى ساره، وقال: هاتي ثلاثة أصواع من دقيق سمين، فاعجنها واصنعها خبز ملة. وبادر إبراهيم إلى البقر فأخذ عجلاً حنيذاً طيباً، ودفعه إلى الغلام، فأسرع في إعداده. ثم أخذ زبداً ولبناً، والعجل الذي كان قد هتأه، ووضع ذلك بين أيديهم، وهو واقف أمامهم تحت الشجرة، فأكلوا. ثم قالوا: أين ساره، امرأتك؟ قال: هي في الخباء، قال:

سأرجع إليك مثل الآن في العام القادم، ويكون لساره امرأتك ابن. وكانت ساره تستمع عند باب الخباء، وهو وراءه. وكان إبراهيم وساره شيخين طاعنين في السن، يستحيل أن يكون لهما ما للنساء. فضحكت ساره في نفسها قائلة: أبعده شيخوختي يكون لي تنعم (١)؟ وبعلى شيخ كبير! فقال الرب لإبراهيم: ما بال ساره قد ضحكت قائلة: أألد وأنا عجوز؟ أهذا على الرب أمر عسير؟ في مثل هذا الوقت من قابل، أعود اليك ويكون لساره ابن (٢).

ولأن التجلى الإلهي والبشرى بإسحاق كانتا عند هذه الشجرة (السنديانة)، فقد قدسها بنو إسرائيل وكانوا يحجون إليها، ويتبركون بها، ويطلبون منها حوائجهم.

«أما العيون والآبار فمن أشهرها «قادش» الذي يدل اسمها المؤابي على تقديسها، واحتفظت في اسمها بالعربية (عين قديس) ويتصدر الآبار (بئر سبع) جنوب شرقي غزة. وكان الساميون القدماء من بنى إسرائيل وغيرهم يعتقدون أن هذه البئر (مسكونة) أي تقيم فيها كائنات غير

١-١ التنعم: يعنى بنين أو بمعنى الذرية.

٢-٢ سفر التكوين، الاصحاح ١٨، الفقرات ١-١٤.

ص: ١٧٣

منظورة من الملائكة والجن، وأنّ عدددهم سبعة، تسهر على عقاب الحانث في يمينه، المتعمد للكذب، فكان عليه أن يذهب مع خصمه إلى تلك البئر، ويدعو على نفسه باللعنات السبع، كأن يموت بلا-عقب، وأن يفقد كلّ عزيز عليه، وأن يصاب في ماله، وصحته، وشرفه، وأن يضرب في الأرض شريداً، وأن يفقد السمع والبصر والعقل... الخ» (١).

تلخيص واستنتاج

وصفوة القول أنّ الديانة اليهودية عرفت الحج كمارسة عبادية، مادية ومعنوية، كما عرفت الديانة الإسلامية والديانات الأخرى التوحيدية وغير التوحيدية، لكن الفرق يكمن في ماهية هذه العبادة والأعمال والشعائر والمكان والزمان، والأهم من هذا كله، اتباع ما اعتقدوا هم به، وليس بما جاءهم به نبيهم من شريعة السماء، بالتوجه الصحيح إلى المكان المطلوب، والزمان المعين، والمناسك المفروضة... الخ.

والحج فرض على الناس منذ زمن الخليل إبراهيم عليه السلام حين أذن في الناس: وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلّ فجّ عميق (٢).

وهذا الفرض السماوي عين المكان وعين الزمان واشترط الإستطاعة لأدائه، فقال تعالى: ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً (٣)

أى حقّ على الناس كافة أن يحجوا إليه- إلى البيت الحرام- حيث هي الدعوة عامة وليست خاصة لفئة معينة من الناس دون أخرى، ولم يخص المسلمين دون غيرهم أو المؤمنين دون غيرهم، الله تعالى لا- يفرق بين عباده، فلم يقل ولله على المسلمين أو على المؤمنين أو على الفرقة الفلانية أو الفئة الفلانية، أو تلك القبيلة أو العنصر المعين أو اللون المفضل، بل جاء الخطاب عاماً للناس. وقوله تعالى: إنّ أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً

١- ١ طقوس الحج عند اليهود: ٧.

٢- ٢ الحج: ٢٧.

٣- ٣ آل عمران: ٩٧.

ص: ١٧٤

وهدى للعالمين (١)

. ومن غير الممكن ان يجعل الله تعالى لفئه من عباده بيتاً فيه البركة والهدى والرحمة وغفران الذنوب و... و... ويحرم آخرين منه.
وقد روى عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام حين سُئِلَ عن هذه الآية ولله على الناس حج البيت... ومن كفر فإن الله غنى عن
العالمين قال: «من قال ليس هذا هكذا فقد كفر» (٢).

إذن فالحج لغير بيت الله الحرام لا يُقبل من أى إنسان اياً كان، فهو بدعة لا يقبلها الله تعالى ولا تأخذ معنى الحج الحقيقى.
هناك نصوص قرآنية تدین الخلط بين الحق والباطل، وتدین التباس الأمر على الناس نتيجة الإنحراف، وترجعها إلى انعدام الرؤية
الواضحة والصحيحة والاضطراب عند بعض من الناس، من أضلهم وأغواهم الشيطان للانحراف عن الطريق المستقيم وعن جادة
الصواب، الى طريق الهوى وطريق الغواية... قال تعالى:
لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٣)

فاليهود يعلمون أن الله تعالى شرع حجاً... ويعلمون قدسية بيت الله الحرام، ويعرفون أن جدهم إبراهيم الخليل عليه السلام بنى بيتاً
لعبادة الله تعالى، مع هذا انكروا الحق وأبسوه بالباطل وتوجهوا إلى أماكن ارتاحت لها أنفسهم وثبتت فيها عنصريتهم. ونسج
الانحراف خيوطه فتاهت الحقيقة عليهم جيلاً بعد جيل، وضاعت معه مقدساتهم الحقيقية ومعتقداتهم الواقعية، ولعب الهوى أيضاً دوره،
والإنسان ابن الهوى إذا لم يقيد قيد ويرشده مرشد (٤)... وهذه المسألة فى غاية الدقة والأهمية.

الحج فى الديانة المسيحية:

مضى النصرى على شاكلة نظائرهم اليهود فى اتخاذ جهات متعددة، ومراسم وسلوكيات خاصة، خطتها لهم خيالاتهم وأهواؤهم،

١- ١ آل عمران: ٩٦.

٢- ٢ وسائل الشيعة ١١: ١٦، ح ٤١٢٨.

٣- ٣ آل عمران: ٧١.

٤- ٤ نقصد بالقيد والمرشد: العقل والإيمان الحقيقى، والارتباط بالله تعالى.

ص: ١٧٥

وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم وتصرفاتهم، حتى أحسوا أنهم على حق وغيرهم على باطل. عرفوا الحج أنه طواف ودوار حول مقدسات العقيدة، فطافوا بمقدساتهم، وقدموا الأضاحى والندورات والهدايا... بكوا وتضرعوا وطلبوا الغفران، وبعضهم ترك ملذات الدنيا المحللة والشهوات المباحة، واتجهوا للرهبانية عن الحياة ليتخذوا من (العدراء مريم) اسوة، ومن إلههم الثانى عيسى المسيح رباً- كما يزعمون- يغفر ذنوبهم ويكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم نعيم الجنة!! وانقسم المسيحيون إلى عدة فرق وكل فرقة اتخذت وجهة خاصة فى الحج ومراسم وطقوس حج خاصة. وقد خصص لهم كتابهم (الإنجيل المحرف) أعياداً دينية، ك (عيد الفصح) و (عيد القيامة)، و (عيد الميلاد) و (عيد الفطاس)، وغالباً ما يصاحب أعيادهم حج وطقوس خاصة به.

يقول أحد الكتاب المسيحيين (فنسنك wensinck) فى معنى الحج عندهم: «وقد فسّر لغويو العرب الحج بأنه «القصد» ويتفق هذا ومعنى الحج عندنا (أى عند النصارى) على أنه من الواضح أن هذا المعنى اصطلاحى، كالفعل العبرى، ولعل المادة ومعناها فى اللغات السامية الشمالية والجنوبية «يطوف» أو «يدور»...» (١).

ولم نقرأ فى إنجيلهم المحرف ذكراً للحج عندهم، بل هناك أعياد دينية، يفرحون بها ويذكرون الله (الأب) وابنه (يسوع المسيح) الذى جمع فى تكوينه بين الروح الإلهية والتكوين الإنسانى فهو- حسب تعبيرهم- مركب من إله وإنسان. وعلى هذا فالمسيحية ذات إلهين وليس إلهاً واحداً، وإنّ ديناً له أكثر من إله واحد ليس ديناً توحيدياً بل ثنائياً أو ثلاثياً يُسيّرهُ الإله الأب والإله الابن وروح القدس.

فالمكان الذى وُلد فيه الإله الابن محجّة أولى لهم، ومكان الصلب والرفع

ص: ١٧٦

محجة ثانية، وكل مكانٍ صلى فيه عيسى المسيح أو ظهر هو أو أمه مريم العذراء، فهو مكان مقدس ومحجة لهم، وهذا الظهور والتجلى فى أى زمان أو مكان أو لأى شخص منهم فهو مقدس ومحل زيارة ومحجة سنوية فى أحد الأعياد الدينية التى رسمها لهم كتبة الإنجيل.

الإنسان المتدين بدين المسيحية كآى إنسان آخر فهو ابن عقيدته، ونظرة أى إنسان إلى الحياة والكون ومفاهيمه فى شتى المجالات، بل وحتى عواطفه وأحاسيسه كلها تدور حول محور العقيدة التى يتبناها، والتى تسهم فى بنائه الفكرى والأخلاقى والاجتماعى والعبادى.

فإذا حكم الإنسان عقله تجلى له الطريق الصحيح، وإذا قلّد أو غفل أو تعصب انحرف. فكتبة الإنجيل من أمثال هؤلاء الذين قلّدوا وغفلوا وتعصبوا فامتزج عندهم الحق بالباطل. وأول من أدخل البدع وحرّف فى الديانة المسيحية، شاب يهودى اسمه شاول يذكر قصته الكتاب المقدس فى الاصحاح السابع من العهد الجديد، ادعى أنه حصل له رؤيا ظهر فيها عيسى المسيح ودعا الى التبشير. وفجأةً غير هذا الشاب اسمه إلى (بولص) وأدخل فى المسيحية ما ليس فيها؛ ليكسب بدعته الوثنيين والجهال من اليهود ومن غيرهم. ففى كتاب: «المئة: تقييم الأشخاص الأ-كثر أهمية فى التاريخ» فإنّ مؤلفه مايكل هارت يقول: «ليس هناك شخص لعب دوراً فى الضخامة كاللور الذى لعبه بولص فى إشاعة المسيحية» (١).

وجهة النبى عيسى عليه السلام فى الحج

وعيسى روح الله عليه السلام لئبى نداء نبى الله و خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، حين أمره الله تعالى أن يؤذن فى الناس بالحج، وعلم (وهو من الأنبياء الكبار: أى من أولى العزم) من الله تعالى أن هذا النداء عام ولم يختص بشريحة معينة من شرائح المجتمع، بل هو يشمل جميع الأديان السماوية

ص: ١٧٧

وجميع الأنبياء والرسل، وهو تكليف عام، واجب على المكلفين ومستحب لغير المكلفين، وسنين شروط التكليف في الفصول اللاحقة إن شاء الله تعالى.

وقد أكدت الروايات الشريفة عن الرسول صلى الله عليه وآله وعن أئمة الهدى عليهم السلام، حج ابن مريم عيسى روح الله عليه السلام، إلى الكعبة الشريفة، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «والذي نفس محمد بيده ليُهَلَّن ابن مريم بفتح الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليشيئهما» (١).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال: «ومرَّ عيسى بن مريم عليه السلام بصفائح الروحاء وهو يقول: لبيك عبدك وابن أمتك» (٢).

وفي تحديد الوقت الذي كان الأنبياء يحجون فيه إلى البيت العتيق، ومن ضمنهم عيسى عليه السلام، قال الإمام الرضا عليه السلام: «... وقتها عشرة ذى الحجة...»

النيون آدم ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى ومحمد (صلوات الله عليهم) وغيرهم من الأنبياء، إنما حجوا في هذا الوقت، فجعلت سنة في أولادهم إلى يوم القيامة» (٣).

والنبي عيسى عليه السلام أحد أولى العزم الخمسة، ومن غير الممكن أن تكون وجهته في الحج مخالفة عن وجهه بقيه الأنبياء والرسل، كأن يتخذ من بيت المقدس أو مكاناً آخر محجة خاصة له ولقومه واتباعه.

انحراف النصارى في الحج

والنصارى أو المسيحيون حال اليهود في التحريف والانحراف عن سنة الله والأنبياء، وعدم التزامهم بتعاليم نبيهم المرسل إليهم الذي ينسبون أنفسهم إليه، وما انزل عليه من شرائع السماء، وضربهم على تعاليم الشريعة بحجب التحريف والكتمان، والترك الصريح لها، وقد ذكرهم القرآن الكريم، مستنكراً أعمالهم وعبادتهم في آيات بينات كثيرة منها قوله تعالى:

قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل

١- ١ مسند أحمد ٢: ٢٤٠ و ٢٧٢ بتفاوت يسير و ٢٩٠ في حديث قال فيه: «وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما».

٢- ٢ بحار الأنوار، المجلس ٩٩: ١٨٥، الطبعة البيروتية.

٣- ٣ المصدر نفسه.

ص: ١٧٨

وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم وما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين (١)

فالآية الكريمة صريحة البيان واضحة المعنى أن أعمالهم ليست مقبولة، وهي لا- شىء حتى يعملوا بما أمرهم الله من خلال الكتب السماوية المنزلة على أنبيائه.

عيسى عليه السلام كغيره من الأنبياء جاء بشيراً ونذيراً وهو بشر نبياً، لكن المسيحيين انقسموا فريقين من بعده: فريقاً كفروا وعادوا إلى وثنتهم. والفريق الآخر جعل من شخصية عيسى عليه السلام مرتكزاً للدين وأخذ الدين اسمه من عيسى المسيح، وأخذت كل المعتقدات المسيحية تتمحور حول عيسى؛ المسيح. الأعياد المسيحية الرئيسية تتعلق بأحداث في حياة عيسى المسيح. ورمز العقيدة المسيحية، وهو الصليب، يشير إلى عيسى المسيح. وصلوات المسيحيين موجهة إلى عيسى لأنهم يعتبرون أن الله نفسه لا يمكن أن يخاطبه إنسان عادى. وحسب ما يقوله المؤلف المسيحي فرتر رايدنور: «إن مفتاح العقيدة المسيحية هو أن عيسى المسيح كان في الواقع السبب في وجودها كلها، وأنه هو الذى يحافظ على تماسكها بأجمعه» (٢).

فهذه الملة من البشر جعلوا من أماكن ذكريات نبيهم، وما تجلى لهم من شخصه وشخصية أمه عبر تاريخه الى يومنا هذا، جعلوها أماكن حج دينية في أعيادهم السنوية... نذكر من هذه الأماكن المقدسة ما يلي:

١- اتجه بعض المسيحيين إلى بيت المقدس في فلسطين حيث الصليب الأصيل للسيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام اقتداءً بسنة الملكة هيلانة.

٢- واتجه قسم آخر إلى كنيسة روم في ايطاليا (Rome) rom.

٣- ومنهم من حج إلى لورد في فرنسا للمكان الذى ظهرت فيه السيدة العذراء لهم.

١- ١ المائدة: ٦٨.

٢- ٢ كيف تكون مسيحياً في عالم غير مسيحى: ١٧٦، نقلًا عن نظرة عن قرب في المسيحية، بربارة براون: ١٤.

ص: ١٧٩

٤- وتوجه منهم إلى كنيسة (فاطيمة) (Fatima) لتجلى السيدة النورانية صاحبة المسبحة فاطيمة.

٥- وآخرون توجهوا إلى أماكن متفرقة كقبور الأسلاف من موتاهم، أو إلى الجبال وغيرها من الطبيعة.

وسنحاول قراءة كل واحدة من هذه النقاط قدر استطاعتنا، وإلقاء الضوء على الموقع الجغرافي ونبذة عن تاريخها إن شاء الله تعالى.

الحج إلى بيت المقدس

التوجه في الحج إلى بيت المقدس، لم يرد فيه نص لا في التوراة ولا في الإنجيل، بل سُنَّه اتبعت نتيجة أسباب معينة، فعند النصارى

كان السبب الرئيسي هو اتباع سُنَّه الملكة، (هيلانة) (Helene) (ste) أم الامبراطور قسطنطين، التي اكتشفت العود الأصلي، الذي صُلب

عليه عيسى المسيح، فجعل ذلك اليوم مباركاً وعيداً يحج فيه إلى بيت المقدس الذي يحتضن العود المقدس...

«وهيلانة التي اهتدت إلى الدين المسيحي، وقامت عام (٣٢٦ م) بجولة تفقدية في الشرق، زارت خلالها الأماكن المقدسة في فلسطين،

وقامت ببناء كنائس في أورشليم وبيت لحم.

يُروى أنها عثرت على عود الصليب الحقيقي» (١).

ويُروى أنها «كرست اهتمامها لكشف مواضع الحوادث المهمة للمسيحيين، ولبناء كنائس تذكراً لها» (٢).

فالمسيحيون يكرمون «كنيسة القبر المقدس، التي تقوم على المكان التقليدي لجبل (الجلجثة)، الذي يعتقد المسيحيون أن

المسيح صلب عليه.

يحيط بالمدينة القديمة سور شيده السلطان سليمان القانوني عام (١٥٤١)، وفي شرق المدينة القديمة يقع وادي قدرون وبه بستان

جشمانى» (٣) و «حينما منع الأتراك السلاجقة، المسيحيين من زيارة بيت المقدس، وهدموا كنيسة القبر المقدس (الآن كنيسة القيامة)

قامت الحروب

١- ١ معجم الحضارات السامية، هنرى س. عبودي: ٨٩٦، طرابلس - لبنان.

٢- ٢ العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة: ٣٩٠، العربي للإعلان والنشر.

٣- ٣ الموسوعة العربية الميسرة.

ص: ١٨٠

الصلبية، فسقطت في أيدي الصليبيين عام (١٠٩٩) ...» (١).

والزيارة أو الحج إلى كنيسة القيامة (كنيسة القبر المقدس)، عادةً تكون في عيد الفصح السنوي وهو:

«العيد الرئيسي عند المسيحيين، وهو ذكرى قيامة المسيح بين الأموات في العقيدة المسيحية، ويقع بين (٢٢) مارس و (٢٥) أبريل

ويرتبط به عدد كبير من الأعياد الأخرى، ويُسبق بالصيام الكبير الذي يدوم أربعين يوماً، ويجمعه «آلام المسيح»...» (٢).

وعيد الفصح: عيد ديني تُمارس فيه أوامر ونواهٍ خاصة كالصوم والصلاة والدعاء والندور والأضاحي وغيرها، ويختلف بكثير عن عيد

الميلاد المسيحي المشهور، الذي تحوّل الى عيد قومي يُلزم به المتدين وغير المتدين من المسيحيين، وهو ذكرى مولد السيد المسيح،

يلصيام أربعين يوماً (هذا بالنسبة للملتزمين، أما غير الملتزمين فلا يعينهم هذا الصيام)، وهو يوم ٢٥ ديسمبر بالتقويم الغربي، ويوم ٢٩

كهيك بالتقويم القبطي، احتُفل به قبل (٢٠٠)، ثم انتشر وأصبح شائعاً وشعبياً في القرون الوسطى، التصقت به عادات وتقاليد قومية،

مثل غناء الترانيم، وتبادل الهدايا وإرسال التهاني، وغير ذلك، أما إقامة (شجرة عيد الميلاد) فهي عادة ألمانية الأصل (٣).

وهنا لا يهمنا هذا العيد، ولكن الشيء بالشيء يذكر، لأنهم يستحب لهم في عيد الميلاد زيارة (كنيسة القيامة المقدسة) إن استطاعوا،

وإلا فأى كنيسة أخرى.

أما الحج إلى (كنيسة القيامة) في بيت المقدس الشريف المُسن من قبل الملكة هيلانه، فهو ذكرى العثور على عود الصليب الأصلي

كما ذكرنا سابقاً، يحيون ذكراه، حتى أصبحت عادةً وسُنّة جيلاً بعد جيل، وكأنهم يحجون إليه لفريضة أو أمر إلهي شرعه له عيسى

المسيح عليه السلام فتركز في نفوسهم، أما حقيقة هذا الحج فهو التراث الذي

١-١ المصدر نفسه.

٢-٢ الموسوعة العربية الميسرة: ١٢٤٧.

٣-٣ انظر المصدر السابق.

ص: ١٨١

خلفته (هيلانه)، فهو تراث وحج مزيف وليس حجاً إلهياً حقيقياً.

كنيسة القيامة في القدس الشريف

رومة في إيطاليا [Rome] rom

تعدُّ روما من المدن المهمة والمقدسة للمسيحيين، وهي مركز ثقافي وفني وديني منذ عهد طويل ويطلق عليها: (المدينة الخالدة) وكذلك (المدينة المقدسة) وهي وسط إيطاليا قرب الساحل الغربي على ضفتي نهر «التير»، عاصمة إيطاليا،

دو فصلنامه «مقات الحج»، ص: ١٨٢

وفيها الفاتيكان مقر البابوية، وكان للإصلاح الكاثوليكي بعد عام (١٥٢٧) م أثر في استفادة البلاط البابوي - بعد أن خرب جنود شارل روما عام ١٥٢٧ م - وكذلك استعاد مكانته وسلطته الروحية. استمرت روما في الازدهار والإفادة من وفود جموع الحجاج عليها (١).

وروما من كبرى مدين إيطاليا، ويرقى تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد. كانت فيما مضى عاصمة الجمهورية الرومانية، ثم عاصمة الامبراطورية الرومانية، ثم عاصمة المقاطعات البابوية... وهي اليوم عاصمة الجمهورية الإيطالية، والعاصمة الإدارية والروحية للكنيسة الرومانية الكاثوليكية بوصفها مقر الكرسي الرسولي (في الفاتكان) (٢).

جاء في تاريخ الحضارات العام:

«فإننا نشاهد عناصر عديدة من المسيحيين تقوم في العاصمة روما، ملتحق جميع الملل والطوائف، ومحجّة الشعوب على اختلافها» (٣).

وروما المدينة الجميلة ذات الطبيعة الخلابة والآثار الجذابة ومقر الكنيسة الكاثوليكية ومقر الكرسي الرسولي، التي تستهوي القلوب المسيحية التي تعلق بشخص عيسى المسيح عليه السلام، اعتبرت كنيستها والآثار المحيطة بها، محجّة سنوية ومركزاً تجارياً وترفيهياً. والحج لهذه المدينة الأثرية - في اعتقادنا - ما هو إلا نزهة سنوية ترفيهية أكثر مما هي معنوية الهيئة أو روحية.

إن هذا النوع من النزهة السنوية ممكن في كل مكان وزمان، ولم يتوفر على أي من شروط الحج، ونحن نعتقد وتبعاً لما نعرف من الأوضاع الاجتماعية المتردية في الغرب، لا بد وأن يصاحب هذه السفرة السياحية قضايا وامور انحرافية لا أخلاقية مما لا يرضى الله بها ولا السيد المسيح نفسه، فكيف يطلقون على هذه النزهة «حجاً»؟!

١- ١ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ٨٩٨- ٩٠٠.

٢- ٢ انظر موسوعة المورد، منير البعلبكي ٨: ١٦٣.

٣- ٣ تاريخ الحضارات العام، اشراف مورييس كروزيه ٢: ٤٢٦.

ص: ١٨٣

والظاهر أن زيارة المسيحيين لرومه تكون عادةً في عيد القيامة، ويصاحبها استعمال البخور والماء المقدس في التطهير، وإيقاد الشموع وتقديم النذور وبعض الأضاحي (١).

كنيسة لورد في فرنسا Loord

ابتدع هذا الحج عام (١٨٥٨ م) أي بعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام بأكثر من ثمانية عشر قرناً، ويرجع سببه إلى ادعاء إحدى راهبات الكنيسة في فرنسا أنها شاهدت مريم العذراء، تجلت لها بجوار المغارة التي كانت بالقرب منها. ولورد: بلدة في الجزء الجنوبي الغربي من فرنسا. كانت في القرون الوسطى ذات موقع استراتيجي هام. أصبحت منذ العام (١٨٥٨ م) محجاً يقصده المرضى من الكاثوليك التماساً للشفاء بعد الذي أُذيع من أن العذراء تجلت غير مرة، في مغارة هناك لفتاة ريفية اسمها برنادت «(Bernadette)» (٢).

وتدعى الكتب المسيحية أن برنادت سويروس... المولودة عام (١٨٤٤ م) في لورد (فرنسا) ظهرت لها السيدة العذراء عام (١٨٥٦ م) أو (١٨٥٨ م)، أي كانت بالغة من العمر (١٢-١٤) عاماً، ودعتها إلى تأسيس معبد (لورد) الحالي، وكانت وفاتها عن عمر يناهز (٣٥) عاماً أي عام (١٨٧٩ م) (٣).

ومدينة لورد الواقعة بمقاطعة البرانس العليا جنوب غرب فرنسا يؤمها حوالي مليون زائر سنوياً، التماساً للعلاج عن طريق المعجزات (٤). ولا-شك أن (مودة) ظهور السيدة العذراء وتجليها للنصارى، أصبحت معروفة: وهي إما خيالات لمغالين أو لأغراض سياسية أو اجتماعية أو تبشيرية أو لأمور أخرى! علماً أن هذه المغارة أصبحت لهم (باب المراد) يطلبون حوائجهم منها وينذرون لها ما استطاعوا إليه سبيلاً أو أكثر، يحيون الليل بالبكاء والتضرع آملين من العذراء غفران الذنوب

١- ١ انظر قصة الحضارة ١١: ٣١٤-٣٢٠.

٢- ٢ موسوعة المورد ٦: ١٤٨.

٣- ٣ المنجد، لويس معلوف: ١٢٧، دار الشرق- بيروت.

٤- ٤ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ١٥٧٤.

ص: ١٨٤

وستر العيوب والشفاء من الأمراض.

وعجباً لسذاجة بعض المسيحيين، أن يطلقوا على هذه الأماكن، أماكن حج يُعبد فيها الرب الإله والرب يسوع عيسى وائمه، تذكرها كتبهم بكل جرأة ووقاحة...

تجرهم طفلةُ أحببت العذراء مريم عليها السلام وتعلقت بها وتخلتها مرّات، هذا تعليقنا على هذه القضية إنصحت الأخبار في نقلها...
كنيسة (فاطيمة) في البرتغال «Fatima»

وقصة فاطمة تتمحور في قضية مقدسة حدثت في أوروبا، اهتم بها العالم المسيحي. لأنها من شؤونه الدينية الخاصة، وقد ارتبطت هذه القصة باسم يمت إلى العالم الإسلامي بصله.

وفاطمة: قرية في شبه جزيرة (فيبري) غرب اسبانيا في مدينة ليشبون في البرتغال، فتحها عبد الرحمن عام (٧١٠ م) وبقيت تحت راية الإسلام حتى القرن الحادي عشر الميلادي، استولت عليها أوروبا وانجلى الإسلام عنها، وأصبح أغلب سكانها من المسيحيين. وفي عام (١٩١٧ م) أصبحت فجأةً محجةً للمسيحيين ومقصداً للزوّار، والمتابع لأخبارها يعجب للدين المزيج من التعاليم المسيحية والتعاليم الإسلامية، خصوصاً عند أهل القرية التي تحتضن كنيسة فاطمة...

وبدأت القضية هكذا: ثلاثة اطفال قرويين يفتحون عيونهم على حقيقة تجلت لهم في ضواحي القرية، لتصبح فيما بعد معيناً متدفقاً لاعتقاد عميق في حياة أبناء هذا البلد.

الأطفال هم: جاسنيتا - سبع سنوات - وفرانيسكو - تسع سنوات - ولوسيا - عشر سنوات - الشاهد الأصلي لهذه الحادثة هي لوسيا.

وتروى السنة الأطفال الثلاثة الحادث على النحو الآتي: في عام ١٩١٦، قبل عام واحد من رؤيتنا السيد التي تشع بالنور، تراءت لنا

ص: ١٨٥

«ملاكاً» ورددت هذه العبارة:

لا تخافوا... أنا «ملاك السلام».

وقالت أيضاً «إلهي! أنا أعتقد بك وأؤمن بك وأحبك، وإني أطلب الغفران لهؤلاء الذين لا يؤمنون، ولا يعتقدون بك، ولا يحبونك».

بعد ذلك تراءت لهم ملاكاً مرتين في الصيف والخريف، وفي كل مرة كانت تقول لهم: «قدموا الأضاحي، واستغفروا للمذنبين وادعوا لهدايتهم» وقد لعبت المواقف الثلاثة دوراً في تهيئة الأطفال لرؤية السيدة صاحبة المسبحة، وفي الثالث عشر من آيار (مايس) ١٩١٧ م، رأى الأطفال هالة النور مرتين، ثم أطل نور عظيم من أعلى شجرة البلوط، سيدة أشد ضياء من نور الشمس تسمى «فاطيمة» راحت تكلمهم:

- لا تخافوا، لا أريد أن اخيفكم

- من أنت؟

- فاطمة بنت الرسول

- من أين جئت؟

- جئت من الجنة

- ماذا تريد مني؟

- جئت لأطلب منكم أن تواظبوا على المجيء إلى هنا، وسأقول لكم فيما بعد ماذا أريد منكم. وأخذت تظهر كل شهر وفي لقائها السادس والأخير أظهرت معجزة كبرى أمام أنظار سبعين ألف شخص كانوا قد احتشدوا لرؤيتها... إذ شاهدت الحشود المنتظرة، توقف هطول المطر فجأة، واهتزت الشمس واستقرت، ثم دارت مرتين بنحو ظن الناس بأنها ستسقط في أي لحظة على رؤوسهم. ثم عادت الشمس إلى موضعها. وأولصحيفة نشرت هذا الخبر (صحيفة ليسبون) في الخامس عشر من تشرين الثاني من العام نفسه (١). وهناك مصدر آخر يقول: «ان فاطيمة قرية وسط البرتغال زعم أن السيدة العذراء ظهرت لثلاثة من أطفالها (اطفال القرية) في ١٣ مايو عام ١٩١٧ م. ومنذئذ أصبحت محجة يقصد إليها المسيحيون من مختلف أرجاء الأرض...» (٢).

١ - ١ «فاطيمة» مهوى الأفئدة وملاذ المتضرعين، الطاهرة، العدد ٧٠: ١١ - ١٢. والفلم التحقيقي الذي عرضه تلفزيون الجمهورية الإسلامية باللغة الفارسية.

٢ - ٢ موسوعة المورد، البعلبكي ٤: ١٠٨.

ص: ١٨٦

وتعتبر ليلة الثالث عشر من مايو- يوم الحادث- من كل عام ليلة الدعاء المهمة في مزار فاطيما، إذ ينبغي وفقاً لوصية السيدة صاحبة المسبحة، قضاؤها بالدعاء والتسبيح والاستغفار، وهو درس تعلمه الناس هنا من السيدة فاطيما؛ ليصبح فيما بعد واحداً من معتقداتهم وتصوراتهم الدينية. والطريف أن هذه الحشود البشرية، التي تقطع مئات الكيلومترات كل عام من شمال البلاد وجنوبها، قاصدة هذه المدينة المقدسة، لم يثنها عن مجيئها حرٌّ ولا برد، ولا ليل ولا نهار، بل وبعد انتهائها من الزيارة يتمم كل واحد بهذه الكلمات: «سيدتنا فاطيما! السيدة صاحبة المسبحة! السيدة هالة النور! أنا مضطر الآن للابتعاد عنك، ولكن أطلب من الله أن لا يجعل هذا اللقاء آخر لقاءى بك، وأن يكون هذا الالتماس وهذا الشوق حياً في وجودى دائماً يا فاطمة! فى أمان الله يا سيدتنا الطاهرة» (١).

وتعليقنا على هذه الواقعة التي جاءتنا من بعيد، من البرتغال أو بالأحرى من قرية نائية من البرتغال، من بيته مسيحية، واقعه شاهد آثارها عدد كبير، وزارها الباب نفسه (٢)...

وفى نفس الوقت تتعلق القضية بشأن إسلامي مهم هو ظهور السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وآله ذات المسبحة (٣). ونحن نحترم السيدة مريم العذراء عليها السلام، وفى الوقت نفسه نقدر السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، فهل يا ترى أن الذى ورد صحيح منه بالمئة؟ ذلك ما لا أستطيع أن أنفيه على الأقل...

ولكن أتساءل... لم نقرأ أن مجموعة من المسيحيين ومنهم صاحبة القضية الأصلية الراهبة (لوسيا) أنهم أسلموا مع أن القضية تستحق الإسلام، هذا اذا كان التجلى لشخص فاطمة الزهراء عليها السلام، وإذا كان التجلى لشخص مريم العذراء عليها السلام فلم نقرأ أن لمريم عليها السلام اسماً يشابه اسم فاطمة؛ لكى

١-١ «فاطيما» مهوى الافئدة وملاذ المتضرعين: ١٣.

٢-٢ فى عام ١٩٦٧ م. فى الذكرى الخمسين لإقامة المزار، زارها البابا بولس السادس تجليلاً للبقعة المقدسة وتكريماً لها. كما زارها الباب بولس الثانى عام ١٩٨٢ م.

٣-٣ الطريف أن حجاج تلك الكنيسة يحملون بأيديهم مسبحة ويسبحون كتسبيح الشيعة الإمامية أى: يذكرون الله ٣٤ مرة الله اكبر، ويحمدون الله ٣٣ مرة الحمد لله، ويسبحون الله ٣٣ مرة سبحان الله، كل بلغته الخاصة.

ص: ١٨٧

تسمى المنطقه باسمها.

ثم إن اهتزاز الشمس ودورانها مرتين ورجوعها إلى حالها منذ زمن قريب جداً (سنة ١٩١٧ م)... ليس أمراً عادياً، إنه أمر كوني تنقلب له الدنيا وتهتز له عقول العلماء الفلكيين، ولكن لم نسمع ولم نقرأ عن هذا الحدث الكوني شيئاً، في حين أن تسجيلات خسوفات وكسوفات عادية جاءت من آلاف السنين.

إن القضية أو القصة يجب أن تُقرأ بشكل مفصل نظرياً وميدانياً، والله أعلم ما وراء ذلك...

وقد سمعنا من أحد الناقلين القادمين من البرتغال أن التي تجلت لهم (١) كانت (فاطمة) بنت أحد الخلفاء المسلمين وليست بنت الرسول صلى الله عليه وآله، فإن كانت هذه أو تلك فالقضية تحتاج إلى دراسة أكثر كما ذكرنا أعلاه...

حجهم إلى مقدسات أخرى

إضافة إلى ما ذكرنا من مقدسات النصرى، هناك أماكن أخرى قدسها البعض منهم؛ كقبور الموتى وبعض الأشجار التي رُمز لها (بشجرة عيد الميلاد) وبعض الجبال وغيرها، ونذكر هنا تقديسهم وحجهم للقبور القديمة:

كانت طريقة الدفن المسيحية آخر ما تُكرّم به حياة المسيحى، ذلك أن من عقائد دينهم عودة الحياة إلى الجسم والروح، ولهذا كان يُعنى بالميت أشد عناية، فيقوم قسيس بالخدمة الدينية للميت وقت دفنه... فكان العمال يحفرون طرقات طويلة تحت الأرض مختلفة البعد عن سطحها، توضع فيها أجسام الموتى فى دياميس بعضها فوق بعض ممتدة على جانبى هذه الطرقات، وسار الوثنيون واليهود على هذه السنة نفسها، ولعلمهم فعلوا هذا ليسهلوا مشقة الدفن ونفقاته على الجمعيات التي كانت تقوم بهذه المهمة. ويبدو لنا أن بعض هذه الطرقات قد جعلت ملتوية عمداً، وقد يبعث على الظن بأنها كانت تستخدم كمخابىء فى أوقات الاضطهاد، فلما أن علا شأن المسيحية

ص: ١٨٨

وانتصرت على أعدائها زالت عادة دفن الموتى فى السرايب، وأضحت الديقاميس أماكن معظمه «يحجُّ» إليها الناس (١).
والظاهر أن هذه الديقاميس بقيت محجة لمئات السنين حتى حلَّ القرن التاسع الميلادى، سدَّت السرايب ونسيها الناس، ولم تُكشف إلَّا بطريق المصادفة عام (١٥٧٨) ميلادى (٢).

وكذلك عادة تقديس بعض الجبال وبعض الأشجار، فقد انقرضت بظهور عادة الحج إلى رومئ وفاطيمة ولورد والقدس وغيرها من المقدسات الحديثة...

تلخيص واستنتاج

والحج المسيحى هو الآخر ليس حجاً إلهياً صحيحاً، وذلك بسبب من أصل العقيدة التى اختاروها أو صنعوها ومزجوا بها بين الله والانسان، فديانتهم التى اختارتها عقولهم رأَت أن المسيح عليه السلام هو الإله (الابن) المكمل للإله الحقيقى، فالمسيحية هى ديانة ذات إلهين وليس إلهاً واحداً، وأن ديناً له أكثر من إله واحد ليس ديناً توحيدياً...

وكما ذكرنا فى المقدمة ما قالته (بربارة براون) الكاتبة الأمريكية التى أسلمت عن قناعه راسخه بعد أن رأَت أن المعتقدات المسيحية كلها تدور حول الإله الابن (عيسى عليه السلام) وقالت: «إنَّ المسيحية هى ديانة ذات إلهين وليس إلهاً واحداً» (٣)، والأعياد والصلاة و... و... كلها موجهة إلى عيسى المسيح...

وكذلك الحج عندهم ليس عبادة خالصة موجهة إلى الواحد الأحد- كما عند المسلمين- بل هى مرتبطة إما بشخص عيسى عليه السلام أو مكان ذكرياته كمسقط رأسه أو العود الذى يُصَلب عليه، أو المكان المرتبط بالسيدة العذراء مريم عليها السلام إذا تجلت لهم فى خيال أو تصور أو منام أحدهم أو للمغالين منهم...

ومن هنا تبيِن الانحراف والابتعاد عن الحج الحقيقى، الذى

١- ١ انظر قصة الحضارة ٦، ١١: ٢٨٥-٢٨٦.

٢- ٢ المصدر نفسه.

٣- ٣ نظرة عن قرب فى المسيحية: ١٣.

ص: ١٨٩

وضع الله الواحد الأحد هدفه الأسمى والأول والآخر، وغير ذلك لا- يمكن أن نعتبره حجاً بأى حال من الأحوال مهما كان صاحبه مخلصاً، ومهما عمل من الأعمال والمناسك الدينية...

فالحج عند النصارى إذن ليس مرتبطاً بالإله الحقيقى بالمرء، وإنما مرتبط بالإنسان الذى خلقه الله تعالى للبشر؛ لئيشر ويُنذر وليبين الحق من الباطل... والنبي عيسى عليه السلام ما هو إلا بشرٌ مثلنا يُشاركنا ونشاركه بالإنسانية، اصطفاه الله تعالى ليكون رسولاً نبياً. وأمه أيضاً لا يمكن أن تُعبد أو أن تكون فى مقام أم الإله اليسوع- كما يدعون-، فهى امرأة انسانية، لكنها وصلت مرحلة الأولياء الصالحين نتيجة علاقتها بالله وعبوديتها الحقّة له، ممّا جعلها سيده نساء زمانها، وأمّ نبي الله.

وأما النصارى فقد أشركوا بالله تعالى، حين جعلوا عيسى عليه السلام وامه عليها السلام مقام الإلوهية...

الهوامش:

ص: ١٩٢

من رحلات الحج الإيرانية (٣) مقتطفات من يوميات مكة لكريمة فرهاد ميرزا

ص: ١٩٣

من رحلات الحج الإيرانية (٣) مقتطفات من يوميات مكة لكريمة فرهاد ميرزا
هذه هي إحدى يوميات السفر إلى مكة، التي كُتبت في العهد القاجاري، وكاتبه هذه اليوميات هي كريمة فرهاد ميرزا (صاحب إحدى
يوميات الحج هو الآخر والتي طُبعت مراراً). وحسام السلطنة هو عمُّ الكاتب، وهو كاتب اليوميات المعروف باسم «سفرنامه مكة» والذي
طبع على شكل كتاب مستقل. وجدير بالذكر أن حسام السلطنة كان قد حضر حج العام نفسه، الذي تشرفت به كاتبه هذه اليوميات
بالحج ودوّنت هذا الكتاب، وكتب هو الآخر يومياته في السنة نفسها. وقد أورد الكاتبان ذكراً عن بعضهما الآخر في يومياتهما.
وأما ما يخص كريمة فرهاد ميرزا فلا نعلم عنها سوى أنها كانت زوجة وزير العسكر، وقد تكدر مزاجها كثيراً عند سماعها بالمرض
الشديد الذي أصاب وزير العسكر في أواخر سفرها.
وقد تعرضت هذه اليوميات كغيرها من اليوميات المؤلفة، في العهد القاجاري، إلى بيان منازل الطريق إلى الحج والمشاكل والعقبات،
التي يواجهها

ص: ١٩٤

المسافرون. وكانت القوافل إبان ذلك الوقت قلما تخلو من مواجهة المصاعب والمشاكل، وخصوصاً عند تعرّضها للهجمات، التي كان يقوم بها الأعراب وقطاع الطرق. وقد أطنب المؤلف في وصف تلك العقبات والمشاكل.

لقد سعى رجال البلاط في العهد القاجارى بجدّ إلى التعرف على الأدب والثقافة والتاريخ، وهو أمرٌ شمل عدداً محدوداً من نساء الطبقة العُليا لتلك العوائل.

والكتاب الذي بين أيدينا هو خير شاهد على مستوى الثقافة الذي تطلّعت به بعض نساء البلاط آنذاك، وتأتى أهمية هذا الكتاب إضافة إلى ما ذكر في كونه تأليفاً لامرأة، من طبقة الأشراف، حيث يعكس انطباعاتها بمهارة، وهو ما يميّزه عن باقي اليوميات المكتوبة في الفترة نفسها. وهذه اليوميات، التي تعود إلى العهد القاجارى هي الثانية بعد يوميات السفر المنظومة في العهد الصفوى من قبل امرأة مثقفة، وقد طبعت ونشرت.

وقد تمّت تهيئته هذا المتن طبقاً لنسخة كانت معروفة لدينا، هي نسخة محفوظة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامى رقم ٢ تحت رقم (١٢٢٥) (الفهرست، ج ٢، ص ١٧٢).

*** بداية الرحلة

هذه هي يوميات الرحلة إلى بيت الله الحرام، التي اكتبها بمعونة الله القادر المتعال مشروطةً بسلامة مزاجنا.

يوم الثلاثاء ٢٤ / شهر رمضان المبارك / ١٢٩٧ هـ، لأربع ساعات بقين للغروب. تحركنا بالطالع الحسن من دار الخلافة،...

بداية السفر إلى الحج (١) ليلة السبت، الثالث من شهر ذى القعدة الحرام، جلستُ حتى الساعة السابعة مشغولةً بالكتابة والتوديع وأردّد مع نفسى:

١-١ بما أن هذه الرحلة طويلة، فقد اقتبسنا منها ما يخصّ الحج فقط.

ص: ١٩٥

إلهي آمني حتى أرى ثانيةً وجه الأُحبة و عيون المحبِّين.

وبعد كتابة الرسائل أعطيت الظروف إلى الساعي، ثم نمتُ بعض الوقت، وبعدها سمعتُ صوت الطبل.

الحقُّ أنَّ رُوحِي تكاد تخرج من جسدي اليوم. فقمْتُ وتوضأتُ وأديتُ فريضة الصبح. فقيل: بسم الله، اركبوا. فجاء من كربلاء واحدٌ أو اثنان من المودِّعين. إنَّ التحرُّك اليوم أشدُّ وطأه من تحركنا من طهران. وبعده قولنا بسم الله، استودعنا الجميع بحفظ الله! وتحركنا من الحضيره من هناك ولساعتين بقيتا للغروب نزلنا، وكان الهواء حارًّا والسير غير طبيعي. عسى الله أن يتفضَّل علينا بالفرحة والسلامة في مسيرنا خلال هذا السفر الطويل.

يوم السبت، الثالث من شهر ذي القعدة الحرام، كان المنزل في «خان شور».

فقضينا الليلة هناك، وعند السحر دقَّ الطبل، وبعد أداء صلاة يوم الأحد الرابع، من الشهر نفسه، ركبنا وتابعا المسير. وفي أثناء الطريق كانت هناك قلعة وعين ماء تُعرف ب (عين سعيد). فغرس أمير الحاج عبد الرحمن هناك لواءً لأجل أخذ الماء، ويبدو أنَّه لا يمكن الحصول على الماء حتى اليوم التالي. فأقمنا في الخيام، وقد استعدت بالله واستعنت به على صعوبات الطريق وشدة حرِّ النهار، ورجوتُ أن لا أمرض.

ليلة الاثنين، الخامس من ذي القعدة الحرام، عند مُنتصف الليل ركبنا، ولساعتين بقيتا للغروب ترحلنا في صحراء لا يرى فيها إلَّا الرمال. وبقينا في هذه الصحراء إلى وقت السحر، ولساعتين بقيتا لانبلج الصبح تحركنا، يوم الثلاثاء، السادس من هذا الشهر الغروب تقريباً، ولمَّا وصلنا إلى المنزل، توقَّفنا فيه قليلاً من الليل، ثم تحركنا لساعتين بقيتا للأذان. ماذا أقول وكيف أصوِّر قلة الماء وحرارة الجو؟! أسأل الله أن لا يتعرض المسلم للهلاك في هذه الصحراء القاحلة، التي لا ماء فيها ولا زرع.

ص: ١٩٦

يوم الأربعاء وصلنا إلى مكان كانت فيه عدّة آبار، إلّا أنّ ماءها كان مالِحاً.

وهنا أيضاً ذُكِرَ أنّه لا مجال للحصول على الماء حتى منازل ثلاثة قادمة، فملئت القدور ماءً، ويوم الخميس والجمعة و ليلة السبت لم يكن هناك ماء. ولأنّ الجمالين لم يكونوا وصلوا بعد، ضُربَ الطبلُ في أول تلك الليلة وتحركنا. بعض المشاء كان يبدو عليهم أنهم على وشك أن تُقبَضَ أرواحهم. وفي ذلك المنزل أيضاً بدا أحدهم وهو من أهل شميران مريضاً فتوفى، وبعد مشقة كبيرة حصلنا على قربة من الماء، ودُفعَ تومان واحد وعشرا التومان كمقدمة لتغسيله، ثم دُفِنَ المسكين في تلك الصحراء بشكل من الأشكال. ركبنا وسرنا ساعة أو اثنتين حيث جاء كل جَمالٍ حاملاً الماء لرئيس القافلة. وكانت في هذه الليلة نوبة واحدة لأخذ الماء بشكل لا يمكن أن يذكر بالكتابة.

وبحمد الله تعالى فقد وصل الماء واستقرت أرواحنا. العجب من هذه الجمال التي ليس لها ماء ولا علف، وتسير النهار بطوله هنا! ثلاث ساعات بقين للغروب، وصلنا إلى بئر الماء التي قالوا عنها: إنها تحوى ماءً حلواً. في الصحراء الأحجار والصخور تحت الرمال، فإذا أردوا أن يغرسوا مسامير حديدية فيها من أجل ربط أطناب الخيام تحطمت تلك المسامير. فكان لا بد من ربط سرادق الخيام بالحجارة. كلما أزيل الرمل تكشفت الحجارة من تحتها. ويقولون: إنّ في هذه الصحراء مئة وثمانين بئراً، وإنها من عمل الغيلان! ويبدو أنّ الأمر هو كما يُقال، ذلك أنّه ليس بمقدور البشر أن يحفر في الصخر. ويبدو كذلك أنّ هذه الصحراء مخلوقة من الصخر. على أيّة حال سجبوا بعض الماء، والماء هنا حلواً، إلّا أنّ لونه أصفر كالزعران؛ وذلك من كثرة أوساخ الجمال وسقوطها فيه.

بعد مضيّ ساعتين من الليل أعلن نقيب القافلة أنّه لا وجود للماء في المنزلين القادمين. وعند السحر ركبنا وكانوا يسرون فيها أظنّ أربع عشرة ساعة أو خمس

ص: ١٩٧

عشرة ساعة في اليوم.

نحو جَبَل:

يوم الثاني من ذى القعدة الحرام، خرجنا من كربلاء، ويوم الجمعة السادس عشر وصلنا جَبَل. وفي هذه الأيام لم يُشاهد سوى تُراب الأرض والسماء. قبل وصولنا إلى الجبل بيوم واحد كانت هناك قلعة، وكانت هناك مزرعة للذرة. ولأجل تناول الطعام، توقفنا هناك ساعة أو اثنتين وشربنا فنجاناً من الشاي، وبعد أن تزودنا بالماء ركبنا. ولساعة بقيت للغروب نزلنا؛ ولأنّ هذه المنازل ليس لها اسم مُعَيَّن، لم يذكر هنا.

الجمعة السادس عشر، لخمس ساعات بقيت للغروب وصلنا «جَبَل» لنقضى فيه ليلة السبت السابع عشر ويوم السبت السابع عشر، جاء (الامير محمد خان) ملك «جَبَل» إلى الحجيج وزار مكانهم، وقد كان أنيقاً جداً في هيئته، وقد شدّ لفرسه لجاماً من الذهب، ولبس هو قباءً عُجْرَاتِيّاً مُدْهَباً. وأما غلماناه فكانوا مُزِينين تماماً ببنادق ذات محاجل فضيّه، وجلسوا خارج الخيمة. وبعد أداء التشريفات جلس هو وسط الخيمة، فيما جلس جميع رجاله في الخارج. وكعادة الأعاجم حيث يجب على الخادم أن لا يجلس قرب المخدوم، ولم تكن هنا من تلك التشريفات والمراسيم. وكانت لديه خمسة مدافع. وفي كل ليلة يطبخون عِدَّة جمال في معمله لإطعام رجاله وعُمَّاله.

ليلة الأحد، الثامن عشر وليلة الاثنين التاسع عشر، وبعد مضيّ ساعتين على النَّهار، ركبنا، فسيرنا حتى ساعة بقيت للغروب، ومن كربلاء وحتى جَبَل لم يُلح لنظرنا جَبَل على الإطلاق، ما عدا أرض مستوية وتراب ناعم لا غير. كانت ثلاثة من المنازل التي مررنا بها عبارة عن أرض رملية، ورمالها كانت حمراء، ويُعرف هذا النوع من الرمل برمل الصياغة حيث يُنظف به الذهب والفضة. كانت منطقة جَبَل التي تكاد تكون كلّها أرضاً جبليّة، تحيط كالسور بهذه الصحراء

ص: ١٩٨

المترامية، وفي بعض الاماكن كان الجبل يبعد عن مثيله مقدار مئة ذراع لا غير.
ولما رجعتُ ثانية من هناك كان يبدو أن سوراً كبيراً يُحيط بهذه الصحراء.

ليلة الثلاثاء العشرين، لأربع ساعات بقين للغروب، وصلنا إلى قرية يُسمونها (عربان مسته جدّه). ونزلنا خلف حائط بستان، ثم رددتُ نقيب القافلة ثانيةً صوته الكريه قائلاً: احملوا معكم ماءً كثيراً، لأننا لن نحصل على الماء خلال الأيام القليلة القادمة.
ليلة الأربعاء، الحادي والعشرين ركبنا من مسته جدّه لست ساعات مضين من الليل، ولأربع ساعات بقين للغروب أصبحنا في صحراء يدعونها (غراية).

وعلى بُعد فرسخين بدت لنا منازل. كانت هنا أرض الأمير محمد. وبعد يومين آخرين يخرجون من أرض محمد ويدخلون أرض حربي (١).

ليلة الخميس، الثاني والعشرين من ذي القعدة الحرام، بعد طلوع القمر، تابعنا المسير. حفظنا الله بفضلته وسلمنا من كل سوء خلال مسيرنا في هذا الطريق؛ لنصل مقصدنا إن شاء الله بسلام.

من ليلة الخميس، الثاني والعشرين وحتى ليلة الأحد الخامس والعشرين، لم يكن هناك ماء في منازلنا التي مررنا بها. يوم الأحد، وفي أثناء الطريق، وُجِدَت بئر ماء، فأخذوا من مائها الذي كان مُراً ومالحاً، بعدها لم نجد ماءً في المنازل الأخرى حتى يوم الثلاثاء، السابع والعشرين، حيث وُجِدَت بئر ماء أخرى.

وكانت تكثر في هذه الصحراء أشجار امّ غيلان، وكان يُظنُّ أنّ هذه الأشجار مزروعة باليد، وكلّها مُرتبة ومزروعة على شكل صفوف ثابتة. وأيضاً كانت هناك بعض المزروعات، والتي تُدعى (الدّفلى). وكلّما أمطرت اخضرت جميعها.
وكان أحد الحجاج وهو من جرجان، والذي كانت امرأته في نفس المحفّة التي كان شخصنا فيها، وقد تخلف يوم الأحد عن القافلة، وعندما نزلوا في الليل عَلِمَ أنّه بقي في الصحراء. فبعثنا أحدهم للبحث عنه، فجاء به صباح يوم الثلاثاء. وبعد

ص: ١٩٩

قدومه علمنا أن اثنين من العرب الفرسان وثالثاً كان راجلاً سألوه: يا حاج! لِمَ تخَلَّفت عن القافلة؟ فأخبرهم المسكين - والذي كُتِبَ له أجلٌ جديد - أن بعيره لا يستطيع السَّير. فأجابوه: إذا أعطيتنا نقوداً فسنحمل لك متاعك. وعلى أيَّة حال أنزل الفرسان الرجل المشار إليه من على بعيره، وحملوا متاعه على بعيرهم، وتحركوا ببطء شديد حتى غابوا عن أعين الحجيج، ثم أنزلوه، وكان معه (٦٠) تومناً من النقود فأخذوها منه واقتسموها بينهم، وأخيراً فكروا في قتله، ولَمَّا احسَّوا منه عجزاً شديداً انصرفوا عن قتله، ثم ضربوه ضرباً مُبرحاً، وأخرجوا ونهبوا ما تحت ثيابه، وبعد ذلك قالوا له: اذهب من هنا إلى حيث شئت. ففضى الحاج المسكين ليلته في تلك الصحراء بالبكاء والعيول حتى طلوع النهار. بقى الحاج على هذا الحال إلى الظهر حتى عثر عليه الرجال الذين خرجوا للبحث عنه، فأركبوه وهو في حالة يرثى لها وأوصلوه إلى قافلة الحجيج.

يوم الثلاثاء، السابع والعشرين، وصلنا رأس البئر، فملأنا الأواني ثانية بالماء، ثم ركبنا، ويبدو - إن شاء الله وبمساعده الأئمة الاطهار عليهم السلام - أننا سنصل بعد يومين موقع الإحرام.

يوم الاربعاء، الثامن والعشرين من شهر ذى القعدة الحرام، تحركنا بعد أداء فريضة الصبح، ولساعة بقيت للغروب وصلنا المنزل، وأما الماء وان كان حلواً ولكنه ليس ماءً مُستساغاً جداً.

يوم الخميس، التاسع والعشرين، تحركنا بعد فريضة الصبح، فلاحنا لناصر ملىء بأشجار أم غيلان، وبقدرة الله تعالى كانت تبدو وكأنها مرتبة من قبل بستاني. كان قسم من الصحراء يبدو وكأنه كالبستان. وكنا مستمرين في المسير. ليلة الجمعة غرة ذى الحجة، أنبئنا بأننا سنصل غداً (وادي عقيق).

ليلة السبت، الثاني من شهر ذى الحجة الحرام (١٢٩٧) وصلنا المحرم عند منتصف الليل. كان الجو لطيفاً تلك الليلة. وكان الغلمان والرجال الذين معنا، قد

ص: ٢٠٠

علمهمصهز السيد حاجي آخوند آداب الإحرام، حيث أحرموا في وادي عقيق.
وبقينا في الإحرام ثلاثة أيام.

يوم الأحد، الثالث من شهر ذي الحجة وصلنا (وادي ليمو). وكانت تلك البساتين موجودة هناك. ولم تلح لنا بيوت مسكونة في تلك المنطقة التي كان فيها الطريق كله من الوديان، أخذنا كمية من الليمون والنانج، والليمون الحامض هناك هو نفسه الذي يُعَصَّر في شيراز. عرب البادية لا يعرفون شيئاً عن الليمون الزيان.
مكة المعظمة:

الاثنين، الرابع من الشهر، وصلنا على بُعد فرسخ واحد إلى الاسفل من الوادي. وفي هذا اليوم لأربع ساعات بقين للغروب، بحمد الله وصلنا مكة المعظمة.

وعلى بعد فرسخين كانت توجد هناك بئر مشهورة باسم (بئر الإمام الحسن عليه السلام).
ويبدو أن جبل النور على بعد نصف فرسخ.

ليلة الخامس من ذي الحجة، جاءوا بقرب ماء من بئر زمزم، فاغتسلنا غسل الطواف، ثم تشرفنا بالحرم الشريف. وبعد أداء الطواف، أدينا السعي بين الصفا والمروة، وعندما رجعت إلى المنزل، كان بعضهم يقرأ المناجاة. ومن شدة الحر والتعب فإنني لم أتناول العشاء، فقد سقطت على الفراش لمدة يوم وليلة كالمصعوق. ثم تحاملت على نفسي بالرغم من ذلك وتشرفت في الليل بالذهاب إلى الحرم... والبيت الذي كان قد كُرى لأجلنا لم يكن فيه مجلس للخدم، فشهدنا البيت ثم غيرنا المكان، ثم جئنا إلى بيت آخر يعود لأحد الأشراف القدماء والذي يُدعى (الشريف مهدي). أعوذ بالله من الطابق العلوي لهذا البيت، فلوصول اليه يتحتمصعود (٥٦) درجة بحيث ينقطع نفس الشخص من التعب...

مع كل المشقة كنا نتشرف بزيارة الحرم الشريف مرتين في اليوم، مرة في

ص: ٢٠١

الصباح ومرة في الليل. وفي كل مرة من المرات الثلاث (١) كنا نؤدي الطواف ثلاث مرات أو مرتين.
نحو عرفات:

ليلة الجمعة، الثامن من الشهر، اشتهر بين السادة من أهل السنة أن اليوم هو يوم عرفة. والحمد لله رحل الجميع إلى منى. ليلة الجمعة كان الحرم الطاهر خالياً.

فاغتنمنا الفرصة هذه الليلة، وانشغلنا بالطواف حتى الصبح تقريباً، والحمد لله، كنا نقبل الحجر بكل قلوبنا. وأديت الطواف خمس مرات، وكل طواف سبعة أشواط.

الحمد لله الذي أنعم علينا بهذه النعمة، حيث اغتسلنا مجدداً صباح يوم الجمعة الثامن من الشهر، وتشرفنا بالحرم، ثم لبسنا الإحرام تحت ميزاب الرحمة، ثم ذهبنا إلى عرفات... وفي الظهر أدينا الوقوف في عرفات، وانشغلنا بالدعاء حتى الغروب. وفي الليل ركبنا وجننا إلى المشعر. فجمعنا الحصى، وكان أهل السنة قد ذهبوا إلى منى. وفي الصباح بعد طلوع الشمس جئنا إلى صحراء منى، وأتممنا رمي الجمرات، ثم قدموا القرابين. لم يكن بالإمكان الذهاب إلى مكة المشرفة لأجل الطواف.

منى:

ليلة الحادي عشر والثاني عشر قام السادة من الحجاج الشاميين والمصريين بألعاب نارية لطيفة، كل من جهته. كانوا قد نشروا ذلك على جبل باروط (٢)، وكان انطلاقها شيقاً وممتعاً. وقد انشغلوا بالألعاب النارية لمدة ثلاث ساعات بل أكثر من ذلك. وفي اليوم الحادي عشر رجع السادة إلى مكة. أنا كذلك جئت إلى المدينة وأديت طواف الحج وطواف النساء، ثم رجعت. وبقينا ليلة الثاني عشر كذلك، وبعد ظهر اليوم الثاني عشر ذهبنا إلى (مسجد الخيف) وأدينا الصلاة، ثم عدنا إلى رمي الحجرات ورجعنا بعدها إلى مكة. وفي الليل، وبالرغم من التعب والكلل، ذهبنا إلى بيت الله وأدينا الطواف، وسألنا الله تعالى أن يجيب دعوة

١-١ وكذا في الأصل.

٢-٢ كذا في الاصل.

ص: ٢٠٢

الساتلين ويعطيهم حوائجهم المشروعة في الدنيا والآخرة إن شاء الله.

كان الجو في منى رديئاً، وقد توَعَّكتصحة الكثير من الحجيج. ليله الثالث عشر ابتليت بالحُمى ووجع في العظام، واستمرت الحمى ثمانية أيام. إضافة إلى سوء حالتى العامة بحيث لم أستطع التحرك أبداً. بحمد الله تعالى نزلت رحمته، فقد استعدتُصحتى، وتشرفت بزيارة الحرم ليلاً مع ما كان بى.

فى يوم السبت الثانى والعشرين من الشهر، تحسنت حالتى قليلاً، فتشرفت بزيارة حضرة أبو طالب والسيدة خديجة الكبرى وعبد المطلب وعبد مناف والسيدة آمنه والدة رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم تشرفت بزيارة الحرم كذلك فى الليل مع ما كان بى، ولم أستطع الطواف أكثر من مرتين. وفى اليوم الخامس والعشرين من ذى الحجة، تشرفتُ عصرًا بزيارة الحرم الشريف ثم ركبنا وجئنا إلى المكان الذى يأخذون منه الناس إلى العمرة والمعروف ب (الشيخ محمود)، على أمل أن نركب ونسير غدًا. ثم تبين أن هذا العربى من آل حرب لا يملك أى بعير.

نحو المدينة:

لساعة واحدة بقيت للغروب من يوم الاربعاء، السابع والعشرين من ذى الحجة. تحركنا من موقف (شيخ محمود) وركبنا بعيراً من آل حرب ثم سرنا.

نعوذ بالله من هذه البُعران التى تسير مقدار فرسخ واحد كل ثلاث ساعات. قريب طلوع الصبح وصلنا إلى (وادي فاطمة). كان فيه ماء يجرى. ويبدو أن ماء العين المذكورة حارٌ لدرجة كأنه مغلّى.

لثلاث ساعات بقيت للغروب من يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر المذكور، ركبنا ثم سِرنا ليلة الشتاء بطولها حتى انبلج الصُباح. فلم يكن بإمكاننا تناول العشاء، ولا كان بالإمكان أخذ قسط من الراحة.

وبعد أداء صلاة الفجر ركبنا ثانية. وما إن انقضت ثلاث ساعات حتى وصلنا إلى منزل آخر. كانت تلك الجمال المنهكة تماماً تسير ثمانى عشرة ساعة. وفى

ص: ٢٠٣

الساعة التاسعة من تلك الساعات وصلنا إلى منزل (بئر طفلة)، وكانت هناك بعض البيوت. ويوجد هناك بطيخ أيضاً، إلا أنه لم يكن من النوع الجيد.

في يوم الجمعة، التاسع والعشرين من ذي الحجة، ركبنا ثم سرتنا، وعند الغروب تزلنا للصلاة، ثم أقمنا الصلاة. أستجير بالله من الجمالين، إنهم مجموعة من الغلمان السود، الذين يتسبون في جلب المصائب على الحجيج، لا يدعون الجمال يرفع قدماً عن قدم، يصيحون على الجميع ويصرخون: شوى شوى.

لأربع ساعات مضيئة من الوقت، نزلنا. وعند وقتصلاة الصبح نزل كذلك المطر.

ومع مرور عدة أيام على الشتاء، لا يمكن ارتداء شيء أبداً. حتى في داخل المحفة كنا نغرق. نعوذ بالله من الصيف إذ لا يعلم ماذا يحصل للناس!

يوم السبت غزوة شهر محرم الحرام ١٢٩٨، نزلنا في (بئر هندی). كانت هناك بعض الآبار وقليل من البيوت المبتية من القصب. عند الغروب من اليوم نفسه ركبنا، وعند انقضاء ساعة من الليل توقف الحجاج؛ لأن الطريق كان موحلاً ولا يمكن السير فيه، فصّفوا الجمال واحداً بعد آخر، وبمشقة كبيرة سرتنا هذه الليلة حتىصلاة الصبح. بعد أن أقمنا الصلاة ركبنا. ولأربع ساعات بقيت للغروب وصلنا منزل (رابغ) عند ساحل البحر. كنا لعشرين ساعة كاملة في المحفة، جاتين، دون قوت أو غذاء. منزل (رابغ) تكثر فيه النخيل، وفيه قلعة، وهناك جنود كانوا فيه رافعين علماً، وبعض المدافع كذلك توجد في هذه القلعة. يوجد الليمون والنانج كذلك في هذا المكان، ولم يبق للحجاج إلا التعب والمشقة...

ليلة الأحد الثاني من شهر محرم، لثلاث ساعات بقيت من الوقت ركبنا من منزل (رابغ)، وأدينا فريضة الصبح خلال الطريق، ثم ركبنا ثانية. وفي العصر نزلنا لأداء فريضة الظهر والعصر، ثم ركبنا ثانية حتى سبع ساعات مضيئة من الليل، سرتنا باستمرار حتى وصلنا إلى منزل (بئر عثمان). كانت هناك بعض آبار الماء في هذا المنزل. لا أحد يخطر بباله أن كل واحد منا ظل ركباً إحدى وعشرين

ص: ٢٠٤

ساعة! ومن قِلمة الجمال والحركة البطيئة للبقية الباقية منها، فقد كانت معاناة الحجاج بشكل لا يمكن وصفه في هذه السطور. الكل مُتعب وحيثان ودون عشاء، والجميع أصيبوا بالدهشة خاصة المشاة منهم!

وبعد مشقة وعناء ركبتنا ثانية، وكان الركوب المذكور في يوم الثلاثاء الرابع من شهر محرم الحرام. كان الطريق اليوم كله أودية مُحاطة بأشجار ام غيلان من طرفيها. ووقت صلاة العصر، نزلنا، وبعد أداء الواجب ركبتنا. لثلاث ساعات مضين من الليل، وصلنا ليلة الاربعاء الخامس من الشهر. كان الحجاج الشاميون ساقطين. وكانت الجمال كلها سائبة خلال الطريق بشكل لا يمكن وصفه.

وفي منتصف تلك الليلة قام الحجيج الشاميون بالطبخ، ثم تحركنا وقت أذان الصبح، وبقي الحجيج كلهم على الأرض. هذا المنزل الذي يُعرف ب (أبو زجاج) (١)، ويُقال (بتر قچی) و (شيخ علي) كذلك، ويقولون: إنَّ أهل هذه القرية كلهم من الشيعة، هذا المنزل تكثر فيه النخيل، وفيه قناتان أو ثلاث للماء الجارى أيضاً...

قضت القافلة أربع ساعات على هذا المنوال، لقد تحمل الحجاج المساكين الكثير من الأذى على يد هؤلاء الجمالين، كان لابد من الإتيان تدريجياً بالجمال السائبة، ثم ركبوا. تحركنا من منزل اليوم وهو (بتر قچی)، وقطعنا الطريق كله خلال الوديان. كان هناك قليل من الاماكن العامرة، وهناك الكثير من النخيل على سفوح الجبال، كما كانت فيها مياه جارية جيدة. مما جعله مكاناً لطيفاً وجميلاً جداً. الخميس، السادس من الشهر، لأربع ساعات مضين من الليل، وصلنا منزل (بتر قچی) وكان الماء يخرج من تحت أرض قچی. وفي الساعة الثامنة تناولنا الطعام ثم نمنا. وعند انبلاج الصبح، تحرك الحجيج الشامي وكان السيد صاحب السيمو حسام السلطنة دام اقباله العالی قد تحرك معهم، وبقي هنا الأمير ابو النصر ميرزا (٢) مع متاعه. بعد انقضاء ساعتين من النهار، ذهب أحد الحجاج إلى بستان

١-١ هكذا في الأصل.

٢-٢ ابو حسام السلطنة.

ص: ٢٠٥

كان هناك لكي يأتينا بالأبناء، ولحقه بعض المسلمين إلى المكان المشار إليه فوجدوه وقد أخذ كل شيء عنده فبادروا لإنقاذه منهم ومما يعانى من الآلام، وعلم أنه لو لم يذهبوا هناك لَقَتِلَ المشار إليه. تصوروا إلى أيَّ حَدِّ وصل الحقد والعداوة عند هؤلاء ضَدَّ (الشيعة)، اذ لم يتورَّعوا حتى عن قتل مساكين كهذا الحاج!

أربع ساعات مضين من يوم الخميس، ركبنا من منزل (بئر قجي) وسرنا.

مع حساب هذا اليوم بقى لنا منازل ثلاثة أخرى حتى المدينة المنورة. هذا هو منزل (بنى الحرين). قَسَمَ اللهُ الرحمن لنا الوصول بسلامة وبركة إلى تلك المدينة المباركة والتشرف بها وزيارتها. مضت أربع ساعات من ليلة الجمعة من محرم، وصلنا منزل (خيام). اسم هذا المنزل كما يبدو هو (عكّام)، فاذا وجدنا هنا أيَّ غلط أو اشتباه فالمَقْصَرُ فى هذا هو الزاوى.

صباح الجمعة السابع من محرم ١٢٩٨، تحرّكنا بعد طلوع الشمس، ولساعة ونصف الساعة بقيت للغروب، نزلنا لأداء صلاة الظهر والعصر، ومع كون الصحراء كلها مملوءة بالأشواك، إلّا أنّها صحراء نابضة بالحياة والجلال إلى حدّ لا يوصف. وقد كانت هناك بعض الاشجار التى لا تحتوى أوراقها على الاشواك، فسألنا عنها، قالوا: هى أشجار يخرج منها الصمغ فيصنعون منه دهن اللسان.

كان جذع البعض منها سميكاً جداً، ولها أوراق صغيرة خضر كأوراق الصَّعْتَرِ.

وعلى مسافة نصف ساعة أخرى من المسير، وجدّ بئرٌ وأشجار النخيل تملأ المكان فى الصحراء. ويبدو أنّنا سنصل إلى المنزل الآخر بعد انقضاء أربع ساعات من الليل. على أى حال فإنّ هذه الجمال الضعيفة المُتَعَبَةُ وكلاب الجمال السود هذه سارت ببطء شديد جداً حتى أنّنا وصلنا إلى الحجيج الشامى بعد أذان الصّبح، وكانوا على وشك التحرك. لقد ظلّ الناس المساكين جالسين فى محفّاتهم عشرين ساعة كاملة. أعان الله المساكين السائرين مَشْيًا حتى وكأنهم أوشكوا على الهلاك. وحتى نَصَبَ الخيام، تكون الصلاة قد فات وقتها. مَنَ اللهُ على القنصل

ص: ٢٠٦

بشيء من الإنصاف حتى لا يجعلوا الحجيج رهن هؤلاء السُّود الذين لا يفقهون حديثاً، وهذه الجمال النحيفة. إنَّ منزل هذا اليوم، السَّيِّب، الثامن من شهر محرم، يُقال له (بئر ماشى)، ويبدو أنَّه بقيت هناك سِنَّة فراسخ إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله. وَفَقْنَا اللَّهَ تَعَالَى لَنَكُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَيْلَةَ الْعَاشِرِ مِنَ الْمَحْرَمِ ذَكَرَى اسْتِشْهَادَ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَصَحْبِهِ. مَضَتْ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ مِنْ لَيْلَةِ الْأَحَدِ التَّاسِعِ مِنْ مَحْرَمِ الْحَرَامِ ١٢٩٨، تَرَكَنَا (بئر ماشى) رَاكِبِينَ ثُمَّ سَرْنَا، اللَّيْلَةُ هِيَ لَيْلَةُ التَّاسِعِ مِنَ الْمَحْرَمِ، وَعِنْدَ وَقْتِ فَرِيضَةِ الصَّبْحِ وَصَلْنَا مَسْجِدَ (الشَّجْرَةِ). وَأَقَمْنَا فَرِيضَةَ الصَّبْحِ فِي مَسْجِدِ الشَّجْرَةِ ثُمَّ رَكَبْنَا ثَانِيَةً. وَلَمَّا سَرْنَا بَعْضَ الشَّيْءِ، جَاءَ الْمَسْتَقْبِلُونَ مُصْطَحِينَ مَعَهُمْ حَيَالَةً، فَاصْطَفَ الْعَسْكَرَ جَمِيعاً، وَكَانُوا يَعزِفُونَ الْمَوْسِيقَى. وَيُؤَدُّونَ (الهوسه) مَعَ أَنَّ هَذِهِ اللَّيْلَةُ هِيَ لَيْلَةُ عَاشُورَاءَ، لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُنَاسِبِ وَلَا مِنَ اللَّائِقِ أَنْ تُعزَفَ هَذِهِ الْأَلْحَانُ...
المدينة المنورة:

وبعد أن سرنا شوطاً، بَأْنْتُ لَنَا قَبَةَ الْحَرَمِ الْمُبَارَكِ وَهِيَ قَبِيَّةُ خُضْرَاءَ، مَعَ مَنَائِرِ الْحَرَمِ كَذَلِكَ. وَبَعْدَ شُكْرِ اللَّهِ وَحَمْدِهِ الَّذِي جَعَلَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ مِنْ نَصِيبِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أُذِيْتُ سَجْدَةَ الشُّكْرِ.
مَضَتْ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ، التَّاسِعِ مِنْ مَحْرَمِ، حَيْثُ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ، فَتَرْنَا قُرْبَ الْحَرَمِ الْمُبَارَكِ فِي بَيْتِ الْمُؤَدَّنِ (الَّذِي هُوَ الْخُطِيبُ كَذَلِكَ)، وَسَكَنَّا فِي الطَّابِقِ الْأَعْلَى الَّذِي يَطُلُّ عَلَى بَسْتَانٍ وَعَلَى جَبَلٍ أَحَدٍ كَذَلِكَ، يَالِصْفَاءَ الْمَدِينَةَ وَطِيبَ هَوَائِهَا! الْحَقِيقَةُ أَنَّهَا كَالْجَنَّةِ! إِنَّ لِهَذِهِ الْجِبَالَ جَمَالاً يَسْلُبُ لُبَّابَ الْبَشَرِ! وَبِمَا أَنَّ الْوَقْتَ الْآنَ هُوَ الشِّتَاءُ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَنْضَجُ؛ مِنْ أَمْثَالِ الْبَاقِلَاءِ وَالْبَادِنِجَانِ وَالْخُضْرِ كَذَلِكَ وَالشَّيْبِهِهِ بِالزَّمْرَدِ.

وبعد دخولنا المنزل تناولنا الغداء، ثم اغتسلت، وتشرفت بعدها بالحرم المبارك. فقَبِلْتُ الضريح المبارك، وقرأنا الزيارة، ومن ثمَّ تشرفنا بحرم البقيع وزرنا

ص: ٢٠٧

ثم رجعنا أدراجنا. في الليلة الأولى تشرفنا بالحرم المبارك عن طريق باب الرحمة. وبعد قراءة الزيارة قضينا في الحرم المبارك أربع ساعات مضين من الليل. كانوا قد أناروا جميع المنائر. وكانت تبدو جذابة للناظر إليها من الرفاق. إن تلك المنائر التي كانوا قد أناروها هي على شكل ثلاث طبقات، وهناك ثمانى منائر وفي كل طابق منها بالطبع يضىء مثلنا مصباح. وكانت تضىء الحرم المبارك كذلك مصابيح كثيرة. وكانت أصوات هذه المنائر تُسمع من البيوت أيضاً. وكذلك صوت عَزْفِ عالٍ. وفي الحرم المبارك بعد صلاة العشاء مقابل مسجد النساء أمام منزل خواجهات الحرم، جلس جمعٌ من الناس في حلقة ذكر. ومجموعة أخرى كذلك مقابل الحرم المبارك كانت مشغولة بالذكر أيضاً، وكانوا يرددون (لا إله إلا الله) بلحن جميل. والحق أن ذلك المنظر كان ممتعاً للناظرين. لقد كانوا يرددون هذا الاسم المبارك بطريقة متواصلة بحيث ينقطع نفَسهم فيغشى عليهم ويسقطون على الأرض، وكان الآخرون من جماعتهم يمسحون أوجهم ورؤوسهم من عرق أولئك المغشى عليهم للتبرك. وكان يوجد في الحرم المبارك مقابل الضريح المبارك مَحْمَل رسول الله صلى الله عليه وآله ومحمل آخر. صباح يوم الاثنين الذى كان يوم الاستشهاد أى يوم عاشوراء، بعد أن تشرفنا بزيارة الحرم المبارك وقراءة الزيارة وزيارة عاشوراء، ركبنا العربة وتشرفنا بمرقد (حمزة). وزرنا المكان الذى تُحفظ فيه الأسنان المباركة، ومن هنا كصعدت إلى الأعلى وزرت باقى الشهداء حتى وصلت قريباً من الجبل حيث يوجد مسجد صغير وله محرابٌ كذلك. فدخلنا وصلينا ركعتين. فى هذا الجبل توجد شجرة نابتة من بين الصخور، وقيل: إنها انزلت على خاتم الأنبياء. فصعدنا قليلاً حتى وصلنا إلى شق الجبل. وهناك أيضاً أدينا الزيارة ورجعنا ليلة الثلاثاء، الحادى عشر من شهر محرّم الحرام ١٢٩٨ دخلنا من باب الرحمة، وتشرفنا بزيارة الحرم المبارك، وقرأنا زيارة النبي صلى الله عليه وآله والصديقة الطاهرة

ص: ٢٠٨

فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - وجئنا قرب عمود التوبة وصلينا وقرأنا كذلك الدعاء الخاص بالعمود ورجعنا. صباح الثلاثاء، الحادي عشر تشرفنا بالحرم الشريف من باب جبرئيل. وبعد الزيارة جئنا إلى (بيت الاحزان). وأقمنا مجلس العزاء، وبعد الاستماع إلى ذكر المصيبة... قرأنا زيارة السيدة فاطمة بنت أسد في مكانين، الأول في البقعة التي تقع خلف البقيع، والشيخ أبو سعيد مدفون هناك كذلك، فقرأنا الزيارة، والثاني في الحرم المبارك للإمام الحسن عليه السلام، وقرأنا زيارة السيدة فاطمة بنت أسد - سلام الله عليها - ورجعنا إلى البيت، وبعد تناول الغداء تشرفنا بزيارة عبد الله عليه السلام والد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. قرأنا الزيارة ثم رجعنا. ليلة الأربعاء، الثاني عشر من شهر محرم، بعد صلاة العشاء، تشرف السادة بزيارة الحرم المبارك، وبعد زيارة سيدنا خاتم الانبياء صلى الله عليه وآله والصديقة الطاهرة عليها السلام رجعنا إلى البيت. صباح الأربعاء تشرفنا بالدخول إلى الحرم المبارك من باب جبرئيل، ومن هناك ذهبنا إلى البقيع وقرأنا زيارة أئمة البقيع. ورجعنا إلى المنزل.

صباح الخميس، الثالث عشر من محرم تشرف بزيارة الحرم المبارك عن طريق باب جبرئيل، وبعد الزيارة ذهبت إلى البقيع وزُرت أئمة البقيع عليهم السلام وعند الرجوع، رأيت الحجاج خلال الزقاق وقد وصلوا حديثاً، فجئنا إلى البيت. وفي ليلة الجمعة الرابع عشر، وبعد الصلاة، تشرفنا بالدخول إلى الحرم الشريف عن طريق باب السلام، فقرأت زيارة خاتم الرسل صلى الله عليه وآله والسيدة الصديقة الطاهرة عليها السلام تمصّلت بالقرب من عمود أبو لُبابة، ودعوت هناك ثم رجعنا...

صباح السبت، الخامس عشر من الشهر، وكالعادة تشرف بزيارة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله والصديقة الطاهرة عليها السلام، وبعد الزيارة رجعت إلى المنزل، ليلة الأحد وليلة الاثنين وليلة الثلاثاء الثامن عشر كذلك كنت كل يوم وكل ليلة - بحمد الله تعالى - تشرف بزيارة الحرم المبارك، وعندما نقلوا محفة النبي صلى الله عليه وآله ومحفة عائشة، لم يسمحوا كالعادة للحجاج الفرس من الاقتراب من الضريح المبارك وذلك حتى

ص: ٢٠٩

الساعة الرابعة. والعجب أنّ هؤلاء الأشخاص الذين لا يتورّعون ولا يحتاطون من أيّ شكل من أشكال النجاسة، لكننا نرى معزهم متروكةً وسائبةً في الأزقة، وفي الليل تذهب هذه الحيوانات إلى بيت مالِكها دون أن يفكر أحد في سرقتها. السّير نحو جدّة:

لقد تقرر أنّ يحرك الشريف الحجاج القادمين عن طريق البحر يوم الثلاثاء.

فحملت الأمتعة ثم توقفت العملية. وصباح يوم الأربعاء السابع عشر من محرّم الحرام، وبعد مضيّ خمس ساعات على القافلة، تحركن من المدينة المنورة وبعد مشقّة وعناء كبيرين استطعنا اجتياز الأزقة والأسواق. وكانوا يوقفوننا في كلّ تحرك مطالبين بالإتاوة. على أي حال خرجنا من المدينة، وتوقفنا خارجها لكي يلحق الحجاج بعضهم ببعض.

ليلة الأربعاء الثامن عشر من الشهر وهي الليلة الأولى من ليالي منتصف الشتاء توقفنا خارج المدينة. وفي الواقع الجو هنا يشبه جوّ الربيع وهو مُنعش كثيراً. إنصحراء وجبال المدينة شبيهتان بالجنّة، نسأله تعالى أن يمنّ علينا مرّة أخرى بأن تأتي ونشرف بتقبيل عتبة ضريح هؤلاء الأعاظم بحقّ أولئك الأشراف المدفونين في هذه البقعة. إنّ قبلةً واحدةً على العتبة الشريفة أنستنا كلّ مصاعب الطريق والجمالين السود.

صباح الأربعاء، ركبنا من خارج البوابة، كان الهواء متغيّراً قليلاً. وبعد مضيّ قليل من الوقت، بدأت السّماء تمطر. وأما السادة الأشراف الذين كان أهل الحاج قد أكرؤوا منهم الجمال. فقد ذكروا أنّهم لم يصلهم شيء من السيد حسام السلطنة، ولم يدفعوا نصف الأجرة ورحلوا عن طريق الشام، وعلى هذا قالوا: إنّنا سنمنع هذه الأميرة من الرحيل، وسنحتجزهم في المطر حتى نأخذ مئة تومان. فجاءوا ومنعونا من السّير فقبل لهم: لِمَ تمنعونا من السّير؟ فأجابوا قائلين: يُريدون اتاوة. فقال رجالنا: لقد دفعنا كامل الأجرة، وأعطينا خلعةً كذلك. فأجاب المؤجرون:

ص: ٢١٠

لقد أعطيتم الاجرة إلى محمد الكائني (١) وليس لنا. ورأيت الوضع سيئاً، فقلت لرجالنا: ارجعوا إلى المدينة إلى الوالي هناك وأنهوا المسألة مع الحكومة، واللَّعنة على هؤلاء، سأذهب مع حُجَّاجِ جَبَل. سأعطى هذا الوصل إلى والي المدينة ليأخذ النقود من الشريف. فلَمَّا رَأَى أولئك أنَّ هذه الأرض لا تقبلُ بذرهم، ولا مكان لحيلهم ومكائدهم، جاءوا يتوسَّلون، فذهب كلُّ الحُجَّاجِ الشيرازيين و«نصير المُلْك» والآخرون جميعاً، فظَلَّتْ جمالُ الشريف هذه التي أكرهاها لنا. وبعد المسير اشتدَّ نزول المطر، وأثناء سيرنا، صادفنا نهراً أماننا، ولم يكن باستطاعة الجمال عبوره. فعَيَّرنا الطريق، ومعنا أحد الاشخاص يدعى (كامل أفندي)، وهو يقول:

إنني لستُ خادماً لإيران بل إنَّ القنصل ترجى مني أن ارافق الحُجَّاجِ. إنَّه رجل شاطر وليب. ولما غيَّرنا مسيرنا قليلاً، صادفنا مجرى نهر آخر قد تكون من أثر الفيضان. لا مناص من عبور النهر، مع أنَّ المياه تكاد تجرف معها الجمال. ومع مشقَّة وعناء كبيرين اجتزنا النهر، وحتى ساعة ونصف بقي من الوقت للغروب، كان الرُّعد والبرق لا يزالان يقصفان، وكان الهواء كذلك ضَبائياً، ثم طلعتِ الشَّمسُ، أقمناصلة الظهر والعصر ثم ركبنا. بحمد الله تعالى وصلنا المنزل بسلام مع أنَّ عددنا كان قليلاً، أي نحن وخدمنا وسط هذه الصحراء والجبال. ولما وصلنا (قبَّة الرود)، كانت قد مضت من الليل ثماني ساعات. بعد الوصول ونصب الخيام، جاءت عيال عبدالحسين خان قائد اللِّواء للاعتذار قائلة: إننا لم نكن نعلم.

فأجبتُها قائلة: بحمد الله سار كلُّ شيء بسلام، لكن ما كنتُ أعلم أنَّ شخصاً مثل نصير الملك إلى هذا الحد يكون مقصِّراً، حيث يترك العسكر ويذهب تاركاً القافلة دون أن يكلف فيها حتى أربعة مسلَّحين ليكونوا برفقتها، فيبعث قائلاً: إن شاء الله ينتهي هذا الأمر بخير.

مضت خمس ساعات من يوم الخميس العشرين من محرَّم الحرام تحرَّكنا من منزل (قبَّة الرود)، ومع أنَّ السماء غائمة، إلَّا أنَّه لا يوجد مطر، وبعض الأماكن

ص: ٢١١

اكتست أرضها ببساط أخضر كالزمرّد.

مضت تسع ساعات من ليله الجمعة، الحادى والعشرين من الشهر، وصلنا الى منزل (بيراية). كان فيها بعض المنازل، وقد شوهد فيها كذلك بئر ماءٍ وغنمٍ وماعز. ست عشرة ساعة، سرنا خلالها ستة فراسخ، بسبب رداءة جمال آل حرب هذه وبطئها فى السير. فى يوم الجمعة، الحادى والعشرين، بعد مضيّ ستّ ساعات على القافلة، ركبنا. إنّ طريق اليوم كلّهُ أوديهٌ وجبال. وتوجد بعض الممرات الضيقة التى اصطدمت المحفّات والهوادج بجبالها. وليس هناك جمال تسير. تصوّروا أنّ قطاراً من التمل يسير. لقد اصبّت بنزلة شديدة وبدأ صدرى يؤلمنى كذلك. وبقيت مستلقية فى هودجى فى حالة رديئة لا توصف.

كانت هناك الكثير من الأحمال تُثقل من (ينبع) إلى (المدينة)، وبعض الحجاج الذين قدموا عن طريق البحر والذين نفدت نقودهم، ظلّوا فى مكة المعظمة. واليوم شوهوا يأتون عن طريق ينبع للتشرف بالذهاب إلى المدينة. كانوا قد ذهبوا من مكة إلى جدة، وعادوا عن طريق ينبع.

فى ليلة السبت، الثانى والعشرين من الشهر، بعد مضيّ ستّ ساعات من الليل وصلنا إلى منزل (بئر خلع)؛ يوم السبت، لخمس ساعات بقين للغروب، تحررنا من منزل (بئر خلع)، وفى الليل حيث لم نصل إلى المنزل بعد، سمعنا أصوات اللصوص من جهاتنا الأربع. بعد ذلك علّم أنّه وخلال الطريق، سُرق هيمان ابن الحاج عبدالهادى الاسترآبادى الذى يشتغل بالتجارة فى بغداد، سُرق من تحته معصرة ثيابه. كانوا يقذفون الحجارة نحو طاس المشعل الامامى لكى يطفئوه، حتى يتمكّنوا من الولوج داخل صفوف الحجيج. وتشبه هذه العملية إلى حدّ بعيد تلك التى ينقلونها عن حسين كزّد فى الكتب.

هذه الليلة وبحمد الله تعالى وصلنا بسرعة إلى المنزل. اسمُ هذا المنزل هو (بئر الحسان). وتقتصر العمارة هناك على بعض الآبار وبضعة منازل ودكان أو اثنين،

ص: ٢١٢

ولمَّا ذهب الحجاج المساكين ليأخذوا قسطاً من الراحة، علَّت أصوات تقول:

لصوص، لصوص. لقد سرق اللصوص ابأله من حَمِيل حسن خان نامى من أهالى شيراز، وأراد أن يُظهر شيرازيته هنا إذ خرج فى منتصف الليل يقفو أثر اللصّ فضربَ على أم رأسه بالنبوة وعادَ ورأسه كان مشدوخاً. وقد تبين أن اللصوص قد سرقوا الكيس الذى كان فيه مقدار من الرز والطحين معصرةً ثيابه. وأما ما بقى له فهو رأسه المكسور.

ولأننا قد وصلنا إلى المنزل بسرعة، وبعد مضي ساعة على طلوع الشمس، تحرّكنا من منزل (بئر الشيخ) وبدأنا فى السير. إنصحراء اليوم عبارة عن أرض مُنبسطة لا ماء فيها ولا كلاً. إن هذين المنزلين، أى بئر الحسان وبئر الشيخ، لا يوجد فيهما ماءً حسن، فطعمه غير مُستساغ، وهو مالح المذاق كأنه يحتوى على الزرنِيخ. والمنازل التى فى طريق مكة المشرفة كلها كانت فيها مياه، وكان الماء فيها عذب طيب. فلا معنى لأى عاقل يسلك غير هذا الطريق ويترك العسكر، ويُسلم عقله إلى الجمال. ما أريدُ قوله: إنَّ الأسف والتدم على الماضى لا يؤدى إلى نتيجة. إنَّ الظنَّ بالله المتعال هو أن تنقضى الأيام القليلة الباقية بسلام كذلك.

مضت أربع ساعات من يوم الاثنين، الرابع والعشرين من محرّم، وصلنا إلى منزل (مستورة). وانفصلت قافلته هندية قبل ساعتين أو ثلاث عن الحجاج الفرس حتى وصلنا. وارتفع صوتٌ من جهة الهند. فعلم أن الصندوق الذى يحتوى على الأوراق والمستندات وسبعمئة ريال فرنسى قد سُرق.

الهواء فى هذه الليلة بارد بحيث يميل المرء فيه إلى ارتداء اللباس وإشعال النار.

بعض الاشخاص من أمثال الشريف وأخيه وكامل افندى وبضعه افراد آخرين، ومنذ رحيل السيد حسام السلطنة هم فى خيمة الخدم. من الليل حتى الصباح هم مشغولون بشرب الشاي والشيشة. وهناك أفراد يتناوبون فى الحراسة. وقرروا فى

ص: ٢١٣

الصباح أن يتحرَّكوا لساعتين بقيتا للغروب؛ لكي يصلوا إلى المنزل الآخر وقتصلاة الصبح، على أساس أنه لو حدث نقص في الأحمال أثناء الليل فإنَّ الجمال سيتحمَّل المسؤولية، هذا في الوقت الذي كان قد سُرِقَ كيس ابن الحاج عبدالهادي من على دابته، ولم يُعَوِّضه أحد عن ذلك.

الماء في (مستورة) مُرٌّ إضافه إلى كونه مالِحاً، وقد كان طعام العشاء مُرّاً، فلم يكن هنالك بُدٌّ من ذلك إذ قلتُ لهم: بأن يتناولوا الغداء ويصلُّوا صلاة الظهر والعصر وأن يركبوا بعدها.

أربع ساعات بقيت للغروب، في يوم الاثنين، الرابع والعشرين من محرّم الحرام، ركبنا من منزل (مستورة) وسرنا نحو منزل (رابغ). صحراء هذا اليوم عبارة عن أرض منبسطة كذلك، وكلُّ تحرُّكنا من المدينة إلى الآن هو باتجاه القبلة.

في النهار مع كون السِّماء غائمة، إلّا أنه مضت بضعة أيام من الجدى. مُقدِّم الهُودج مائل إلى الأرض. مع أننا لم نرتدِ إلّا واحداً، فالعرق يجري من جسمنا.

عند وقتصلاة المغرب نزل الحجيج يقيمون الصلاة، ثم ركبوا، وبعد مضيّ ثماني ساعات من ليلة الثلاثاء، الخامس والعشرين من الشهر، وصلنا الأرض النَّخَالَةَ في (رابغ). بسبب وجود المياه أمامنا تعطلَّ الحجاج. فتح الجمالون السود البلهاء قيود جمالنا وتركوها ترعى حوالى ساعتين ونصف في الصحراء. لقد ذهبوا في جميع الجهات إلّا أنهم لم يجدوا طريقاً سالكة. وبعد مشقة وعناء اجتزنا الحاجز المائي وحتى تمكّنوا من إيجاد الطريق ونصب الخيام، صار وقتصلاة الصُّبح. أقمنا الصلاة وشربنا الشاي.

في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر محرم، بقينا في (رابغ) ليلة الأربعاء السادس والعشرين، ووقت طلوع الشمس، وفي يوم الأربعاء، السادس والعشرين، ركبنا من المنزل المذكور. ولساعتين بقيتا للغروب نزلنا لأداء الفريضة، وبعد أداء الصلاة، نزلنا. وبعد مضيّ ساعتين من الليل، سدَّ الجمالون

ص: ٢١٤

الطريق قائلين تُريد أن نفرغ الحمولة. أرادوا أن يمنعوا ذلك. وبدأوا يخادعون مدّعين أنّهم ضلّوا الطريق. على أى حال فأى شخص له ذرّة من العقل والإحساس لن يُسلم نفسه بيد جيّالين سود مجانين كهؤلاء. الحقّ أنّ الكُتب التى ألّفها الناس حول ذمّ وإهانة طريق الجبل هذا، التى تخيف كلّ من يقرأها لا تخلو من الصّحة والحقيّة.

وفى أثناء الطريق انتزع الهميان الذى كان تحتصاحبه فى الهودج بعد قطعه. كانصاحبه المسكين يحسّ بأنّ الهودج مائل، إلّا أنّه اعتقد أنّ الجمال يحاول شدّه وتسويته. ثمّ علّم أنّ طرفاً من الكيس كان قد سُرِق. والعجب من أنّ الدولة تعلم علّم اليقين كلّ ما يجرى من مبدلة للحجاج. وإذا ما تمّ تقديم شكوى أو احتجاج نتيجة ذلك، لا وجود للعدل هناك. الواقع أنّ مجموعة من الحجاج ظلّوا أسيرى هؤلاء الغلمان السّود وتحت رحمتهم. كلّما واجه الحجاج مشكلة فى طريق «جبل»، كانّ يوجد على الأقلّ شخص ما، يمكن سؤاله والحصول على الجواب منه.

على أى حال، بعد مضى عشر ساعات من ليلة الخميس، السابع والعشرين من الشهر، وصلنا منزل (قطيمة)، وتوقفنا نهراً، ولثلاث ساعات بقين للغروب من يوم الخميس، السابع والعشرين، تحرّكنا من المنزل المذكور، وفى الساعة السادسة من اللّيل، أوقف الجمالون الحجاج خلال الطريق قائلين: لقد ضلّلنا الطريق. وبعد أن أبدوا قليلاً من الخداع تابعوا السّير، ولما ساروا مقداراً من الطريق، تجمّعوا كذلك وعلاصوت الصياح والضوضاء. قال أحدهم: هوذا بحر! وصاح الآخر: إنّهُ مُستنقع! وبعد مدّة من التّأخير، علّم أنّه هو قليل من ماء المطر.

كان أحد المسؤولين عن المشاعل قد تأخر فى إيصال المشعل. لقد مُزّق الهميان من تحتنا كما يظهر، وقد سُرِق ما كان فى الهميان. كان قد بقى فرسخ واحد حتى منزل (خيطة) عندما اوقف الحجاج قائلين لقد ضلّلنا الطريق، يجب أن نتوقّف هنا. كلّ

ص: ٢١٥

الحجَّاج اجتمعوا، أرادوا أن يُصرفوا هؤلاء الغلمان السود الأربعة عن ذلك، فلم يكن بالإمكان فعل شيء. فكان لابدّ من النزول. لم يكن هناك قدر يكفي من الماء حتى للوضوء للتهيؤ لصلاة الصبح. وبعد مشقة وعناء كبيرين أقمنا الصلاة على أي حال، ثم ذهبوا على بعد فرسخ وجاءوا بماءٍ وحلٍ وسخ كثيراً تسبح فيه كل أنواع الجراثيم. يالها من مصيبة تلك التي يصبونها على رؤوس الحجيج! الواقع أن ذلك لا يمكن تدوينه هنا.

في يوم الجمعة، الثامن والعشرين من الشهر، قضينا الوقت فيصحراء لا اسم لها، ولأربع ساعات بقيت للغروب من اليوم المذكور تحرّكنا وبدأنا المسير، لنرى ما سيحصل هذه الليلة، هل سيوصلون الحجّاج المشدوهين إلى جِدَّة أم أنّهم سيختلقون لُعبةً أخرى في هذه الصحراء. بعد مضي ساعة واحدة من الغروب، نزلنا لأداء صلاة المغرب. وبعد أداء الفريضة ركبنا، وفي الساعة السادسة، سَمِعْصوتصياح يقول: إنَّ البعير قد سُرِقَ مع حِمْلِهِ. فخرجوا لاقتفاء الأثر، فلم يجدوا فرصةً لسرقه الجَمَلِ إذ تركوه في البرية وهربوا، وكان الصندوق ملكاً للحاج ميرزا محمدصهْهر الحاج محمدصادق الأصفهاني التاجر المعروف. تحرّكت هذه الجمال وسارت كَسَيِّير النملة من الليل حتى الصباح. لأجلصلاة الصبح نزلنا أرضاً جميلة، فيها كل أنواع الورود والزروع، وكان يكثر فيها الخطمي الوردى والزهور الصفراء. كانت الصحراء كالزمرد الأخضر بعد طلوع الشمس. ومع أنّ الأرض هنا رَمَلِيَّةٌ، فإنَّه بقدره الله نَبَت كل هذه النباتات من خلال قطرتين.

ويبدو أنّ المطر لم يهطل في هذه البلاد منذ أربع سنوات، والحمد لله فإنَّه بسبب قدوم الحجّاج الميمون هذه السنَّة هطلت أمطار كثيرة مفيدة.

بقيت أربع فراسخ حتى مدينة جدَّة، جاء القنصل للاستقبال. وقد أصرَّ كثيراً علينا للذهاب إلى القنصلية. ولأنه لم يكن لديه عيال (زوجة) فلهدا السَّبب لم أذهب. لقد أبدى منتهى الأدب.

ص: ٢١٦

في جدة:

مضت ستّ ساعات من يوم السبت، التاسع والعشرين من محرّم الحرام سنة (١٢٩٨)، وصلنا مدينة جدة. لقد نزلنا في طابق علوى من بيت حيث يُشاهد البحر كلّ. هذه الليلة الوابور (السفينة البخارية) واقف على البحر دون حراك. ليلة الأحد، غزّة شهر صفر المظفر (١٢٩٨) رأينا الهلال من السطح، وحمدنا الله لكوننا سالمين لحدّ الآن! نتمنى من حضرة البارى سبحانه أن يحفظ أرواحنا وتنجو من هذا البحر العظيم. يعلم الله أين سنكون غزّة ربيع الأول.

«اللهم اجعل عواقب امورنا خيراً بحقّ محمّد وآله».

صباح يوم الأحد، غزّة شهر صفر، جاء الحاج عبد الله ديرباج بالباخرة وقال: هذه السفن البخارية ليست جيّدة، فعلى الحجاج أن يتوقفوا هنا عدّة أيام حتى تصل سفينة جيّدة أخرى. فى كلّ عصر كنتُ أنظر إلى البحر بالمنظار. هذا هو تقدير الله، فأين أنا من جدّة والتفرّج على البحر؟! فى الحقيقة أنّ الانسان يجهل عاقبه اموره أين تؤول. لحدّ اليوم وهو يوم الثلاثاء، لم يكن أثر للسفينة. فى حين لا تزال السفن البخارية السبع مرابطة فى مكانها السابق فى البحر.

إنّ بيوت جدّة كبيوت مكة المعظمة. هذا المنزل الذى نساكن فيه حالياً، فيه ثمانون درجة سيّلم من الأسفل حتى السطح، والى هذه الغرفة التى نقيم فيها هناك أربع وستون درجة. ليومين متتالين تهبّ الريح هنا. وما دامت هناك ريح فإنّ الهواء بارد بحيث يميل الفرد إلى ارتداء السترة. وبمجرد توقّف الريح، يصبح الجوّ حارّاً.

منذ اليوم الأول لدخولنا الجزيرة العربية، والذى كان فى أوائل برج الميزان، وحتى الآن وهو الوقت الذى يقترب فيه من انتصاف الشتاء، تُرى هذه الحالة فى كلّ وقت وفى كلّ مكان. إلى الوقت الذى يكون فيه هناك نسيم، فالجوّ جيّد، وليس حارّاً، ومتى ما انقطع النسيم، فالجوّ يشبه جهنّم إلى حدّ كبير. والآن ومع هبوب النسيم ليومين متتالين، إلّا أنّ الماء ما زال بارداً داخل الجرار. عجّل الله فى مجيء الوابور

ص: ٢١٧

إن شاء الله ووصوله. ما أجمل أن يعرف الانسان عاقبة الأمور! فبدل التأخير الذي تحمّلناه في جدّه، ألم يكن من الأجدر أن نقضيه في المدينة المنورة، التي هي في الحقيقة جنة عامرة تجدد الحياة والروح في الإنسان؟! روي فداك يا رسول الله صلى الله عليه وآله: أناشد الله بحق ذلك العظيم أن يرزقنا التشرف ثانية بزيارة ذلك الضريح المبارك الشريف.

عندما تحرّكنا من مكة المعظمة باتجاه المدينة الطيبة، سلكنا طريق (فرع).

وأما أسماء المنازل المذكورة هي: وادي فاطمة، عسفان، قطيمة، رابع، بئر رضوان، أبو عاع، ريان، قصير، بئر ماشى، المدينة الطيبة. وأما الرجوع فكان عن طريق (السلطاني)، وذلك بحسب هوى الجمالين والشريف عديمي الإنسانية.

إنّ الميزة التي كانت في طريق (السلطاني) هي المرتفعات والمنخفضات التي فيه، إلّا أنّه من حيث الماء والجمال لا مقايسة بينه وبين طريق (فرع) على الإطلاق.

والمنازل التي مرّت بنا عند الرجوع من المدينة إلى جدّه عن طريق (السلطاني) هي: قبة الرود، عار، بئر حسان، بئر الشيخ، مستورة، رابع، قطيمة، خيط، جدّه.

إنّ مدينة جدّه مدينة كبيرة؛ وهي أكبر من المدينة الطيبة. وقد وُضِعَتْ سبعة مدايق متجهة نحو البحر وقريباً منه. كان هناك كلّ أنواع المأكولات في المدينة الطيبة، في حين لا توجد هنا إلّا بعض الأشياء مثل النباتات الخضرية والنانج.

وأما البرتقال والليمون فيوجدان بكمية ضئيلة في السوق. وبالنسبة إلى الخيار الأخضر فهو على عدد الأصابع. وان كان لا ينفع الندم ولا الحسرة، إلّا أنّ التأخير هنا لو كان في المدينة لكانت تلك نعمة جزيلاً. ما أسوأ أن نتوقّف قرب منزل واحد عن مكة المعظمة ولا يكون بالإمكان التشرف بها...!

إنّ ما يحزّ في نفسي هو أن أكون في منزل قرب مكة المعظمة ولا نُسعدُ بالتشرف بزيارة الحبيب مرة أخرى. لم يبدِ المرافقون أيّ همّة أو جدارة وإلّا كنّا

ص: ٢١٨

تشرّفنا بالزيارة. على أيّ حال، الآن أنا تحت رحمة طابق علوى فى جدّة...

نحن بانتظار الوابور كلّ يوم. لقد توقّف العمل فى وابور الحاج موسى بسبب عدم رغبة الحجيج إليه، فكانت الأجرة فى بداية الأمر ثلاثين ريالاً وأربعين ريالاً للشخص الواحد، والآن وصلت الأجرة إلى خمس عشرة ريالاً واثنى عشر ريالاً كذلك. ولأنّ الحجّاج تأخروا فى جدّة طويلاً، لم ينتبهوا إلى الثالث عشر منصفراً، حيث تحرّك فى يوم الخميس الثانى عشر منصفراً (٨٣٠) شخصاً من الحجيج على وابور الحاج موسى. حفظ الله الجميع.

نحن الآن ما نزال مقيمين فى جدّة، حتى نرى ما يكون من التقدير المقدّر، والحصول على إذن من أمّ البشر للرحيل. ومن فرط النسيان لحدّ اليوم وهو الثانى عشر من شهر صفر، لم اتشرّف بزيارة جدّتنا (حواء)، والآن وبعد التحقّق فى الأمر، ذكّر أنّها قريبة من المنزل، فلم نجد بُدّاً من الذهاب مشياً. وبينما كنّا نمرّ خلال الزقاق، لمحنّا ساحه دارٍ ودهلز فخمين كانا قد وُضِعَ فيهما كراسى ومقاعد كثيرة، وقد وقف شيخٌ على باب الدار. فتقدّمنا وتفرجنا ثم أردنا العبور. فأفهمنا الشيخ بالعربية أنّ هناك أشخاصاً فى الداخل. ومتى أردتم التفرج على الطابق العلوى، فذلك ممكن. وكانت معنا زوجة عبدالحسين خان قائد اللّواء، واخت سهام الدولة، ودخلنا إلى الطابق العلوى. كان الطابق العلوى قد دخل بعضه فى بعض.

وقد وضعوا المقاعد هناك. كانت سيدة البيت وهيصاحبه البيت قد ذهبت فى زيارة خارج الدار. كانت هناك ابنتان صغيرتان وبعض الإماء الحبشيات الحسنات. قال الشيخ باللّغة العربية: تفرجوا على كلّ مكان جيداً. كانت بنايةً فاخرة. كان فيها حمّام جميل من المرمر. وقد بنوا قبة كذلك كما هو متعارف لدينا.

كانوا قد نصبوا زجاجاً. وهناك حنّية ماء بارد واخرى للماء الحار آيتان من الخارج. كان الحمّام فاخراً جداً. سألت الشيخ: أين مولاك؟ أجاب: فى السوق.

خرجت من هناك والمسافة طويلاً حتى بيت الجدّة. والهواء حارّ كذلك. على

ص: ٢١٩

أى حال وصلنا. قبر أم البشر، السيدة حواء عليها السلام على هيئة أو شكل ميزاب سحب من طرفيه إلى الأعلى. وعند القدم توجد فتحة شباك حديدية، فقبلنا وقرأنا الفاتحة، ثم طلبنا إذن الخروج. وتفصيل ذلك كما هو مكتوب من قبل السيد العالى معتمد الدولة - روى فداه - فى كتاب «يوميات السِّفر إلى مكة المعظمة» (١). وهذه البقعة هى محل الشِّرة المباركة. هناك بقعتان اخريان كذلك بين تلك شبيهان بقبر السيدة حواء حيث بُنى حائط وعُمِّر المكان. ويبدو من الذى ذكره السيد العالى فى كتابه اليوميات أن أحدهم هو قبر عثمان باشا والآخر هو أحد أقرباء عثمان باشا.

ياله من عمل قبيح هذا الذى فعلوه حيث دفنوا آخرين مقابل جسد السيدة! بعد الزيارة حصلنا على الإذن للخروج، ثم رجعنا. بمجرد الدخول إلى المنزل أخبرونا أن الوابور قد وصل، وإن شاء الله سنذهب الى بوشهر. اليوم غادرَ وابوران وعادَ وابوران. وبما أن اليوم هو يوم الجمعة والثالث عشر من صفر، فإنه قد توقفنا أربعة عشر يوماً فى جدة. ليس لدينا عملٌ إلَّا الهمَّ والغمَّ. الهواء حارٌّ جداً منذ عدة أيام وليال، ومع ارتداء لباس واحد وفى مكان عالٍ يتم الوصول اليه بصعود ستين أو سبعين درجة، إلَّا أن العرق يجرى باستمرار. الحمد لله على كل حال حيث هطل مطرٌ نافع قبل وصولنا إلى جدة، وإلَّا لا أحد يعلم ما كان سيحصل من قلة المياه خصوصاً وأنهم يقولون: إنَّ المطر لم يهطل هنا منذ أربع سنوات، وكيف كُنَّا سنتحمل كل ذلك التأخير؟!

اليوم، الحجاج الذين تأخروا عنَّا عندما كُنَّا نغادر المدينة، وهم كانوا ما يزالون يدخلونها، جاء بعضهم عن طريق (يشع) والبعض الآخر عن طريق (رابغ) فراراً. لقد أعطوا ألف ريال إلى مسؤول القافلة كإتاوة. وقد أخذ مسؤول القافلة الأموال وهرب. وفى (رابغ) سيَدوا الطريق أمام الحاج مطالبين إياهم بالإتاوة، وبما أن هؤلاء الحجاج المساكين كانوا قد أعطوا أموالهم إلى مسؤول القافلة فقد أوقفوهم هناك، وهرب البعض الآخر. ويبدو أن الحجاج الذين جاءوا عن طريق

ص: ٢٢٠

(ينبع) قد قابلوا الشريف في (ينبع).

إِنَّ الخُدَع التي أرادوا أن يمرّوها علينا أيام كُنّا نخرج من المدينة، فقد مرّوها على الحجاج المساكين. أنزل الله البلاء على رأس شريف هؤلاء، وبقينا أن رسول الله صلى الله عليه وآله برىء من هذه الذريرة. العجب كل العجب من هذه الطائفة التي تقول: لا إله إلا الله ولا يتورعون أو يحتاطون من أى شكل من أشكال النجاسة، ففي نفس المكان الذي يتبولون فيه، يتوضؤون على الفور ويسرون حفاة فيه.

هنالك أشياء غريبة تُشاهد من هؤلاء. وقد بنوا دورة المياه بشكل لا يمكن تحاشي ترشيش الماء على الانسان. ومع عدم اكتراثهم وعدم تحوطهم، فهم يدخلون حرم رسول الله صلى الله عليه وآله في حين كانوا يمنعون الفرس المساكين عن الحرم!!!...

الهوامش:

زعماء مكة

ص: ٢٢١

زعماء مكة

قاسم محمد

نحاول أن نتحدث عن إمامة تاريخية سريعة عن تاريخ الزعماء، الذين انيطت بهم إدارة مكة المكرمة من أول الأنبياء آدم عليه السلام حتى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله. وعن المشاريع والتشريعات والأحداث التي حدثت لكل واحد من هؤلاء الزعماء والقادة. وقد تشرفت مكة في هذه الفترة أن يكون من بين زعمائها مجموعة من الأنبياء عليهم السلام والصالحين من القادة؛ ولذا حظيت مكة بأفضل الأنساب وأفضل القيادات، وصدرت منها أفضل التشريعات، حتى في الجاهلية التي احتفظت ببعض الأعراف والتقاليد الجيدة وعندما جاء الإسلام أقر الكثير منها، ثم إن الكثير من الأحداث التي حدثت فيها تعد أحداثاً عالمية تأثرت بها معظم الأمم والشعوب، وتحدثت عنها الكتب السماوية المقدسة بما فيها القرآن الكريم، وامهات الكتب التاريخية المهمة، وما حظيت مدينة في العالم من الاهتمام كالذي حظيت به مكة.

ص: ٢٢٢

أهمية مكة

تعود أهمية زعماء مكة، إلى أهميتها من الناحية التاريخية، والمعنوية والاقتصادية.

الناحية التاريخية والخلاف في قدم مكة

فمن الناحية التاريخية. فقد اختلف في تاريخ مكة، هل كانت قائمة قبل إبراهيم عليه السلام ثم عرض عليها الخراب بعد ذلك فجدها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أم أن تاريخ بنائها وإنشائها يعود إلى إبراهيم عليه السلام؟ ذهب بعض أهل التفسير وكتاب التاريخ من المسلمين إلى أنها أسبق من إبراهيم عليه السلام ويعود تاريخها إلى آدم عليه السلام، مستدلين على ذلك بمجموعة من الروايات والأقوال والأقاصيص. في حين ذهب الرأي الآخر إلى أن هذه الروايات أخبار آحاد. والأقوال والأقاصيص خرافات وإسرائيليات، وبعضها يعتمد على ما حُرّف من التوراة والإنجيل، فلا مجال للاعتماد عليها. وإنما المتيقن أن إبراهيم هو أول من بناها. كتاباً وسنةً صحيحةً.

وبعضهم توقف عن الحكم. وقالوا: الله أعلم؛ لأنّ العقل لا مجال له للحكم في هذا الباب سلباً أو إيجاباً (١).

دافع السيد الطباطبائي (٢) عن الرأي القائل بقدم مكة: فقال في معرض تعليقه على هذه الأخبار «ونظائر هذه المعاني كثيرة واردة في أخبار العامة والخاصة وهي وإن كانت آحاداً غير بالغة حدّ التواتر لفظاً أو معنى، لكنّها ليست معادمة النظر في أبواب المعارف الدينية ولا- موجب لطحها من رأس» وفي موضع آخر أثناء رده على الرأي الآخر: قال: «ما ذكره لا يخلو من وجه في الجملة إلّا أنّه أفرط في المناقشة، فإنّ التناقض أو التعارض إنما يضرّ لواحد بكلّ واحد منها.

أما الأخذ بمجموعها من حيث هي - بمعنى لا يطرح الجميع لعدم اشتغالها على ما يستحيل عقلاً أو يمنع عقلاً - فلا يضره التعارض الموجود فيها، هذا بالنسبة لأخبار المعصومين (الأنبياء والأئمة عليهم السلام)، أما غيرهم من المفسرين فحالهم حال

١- ١ الكاشف، مغنية: ٢٠٣ الهوامش.

٢- ٢ الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي ١: ٢٨٥.

ص: ٢٢٣

غيرهم من الناس، وحال ما ورد من كلامهم الخالي عن التناقض حال كلامهم المشتمل على التناقض، وبالجملة لا موجب لطرح رواية أو روايات إلا إذا خالفت الكتاب والسنة القطعية، أو لاحت منها لوائح الكذب والجعل» (١).

ويمكن إضافة بعض المرجحات التي تدعم هذا الرأي:

المرجح الأول: ما جاء في الكتاب العزيز عند قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم) (٢).

فقول إبراهيم عليه السلام عند بيتك المحرم يدل على أن البيت كان قبل ذلك، إلا أنه دخل عليه الخراب. نعم هناك توجيهات أخرى للآية كأن يقال: إن كلام إبراهيم عليه السلام هذا كان آخر عمره بعد بناءه للبيت الحرام. وعندما سكنته جرهم.

وهذا يمنع أن يكون دليلاً، ولا يمنع أن يكون مرجحاً. وكذلك الكلام في قوله تعالى: (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) (٣).

فيمكن حمل الأول على أقدم بيت وضع للعبادة في عصر آدم عليه السلام لا كونه أقدم من القدس كما في بعض التفاسير.

المرجح الثاني: ما ورد في خطبة القاصعة في نهج البلاغة (٤). قال أمير المؤمنين: (ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه) إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس

قياماً؟) وفيه صراحة أن البيت وضع من لدن آدم عليه السلام.

المرجح الثالث: مرجح عقلي، وهو أن الله سبحانه وتعالى بعد إخراج آدم من الجنة. لا يعقل أن يتركه من غير أن يعلمه مراسم عبادته تناسب موقعه الجديد حتى يأنس بها ويروى غريزة العبودية لله تعالى. وعلى قول الشهيد الصدر رضوان الله عليه: (٥) إن العبادة حاجة إنسانية ثابتة في نفس الإنسان في جانبها الحسي المعنوي.

والقبلة والحج من أبرز المظاهر العبادية الحسية والمعنوية. فما المانع أن يكون البيت الحرام ولد مع آدم عليه السلام ليلبي تلك الحاجة. ونحن نعلم ما للحج من فضيلة وأثر في هذا

١-١ الميزان ١: ٢٨٨.

٢-٢ إبراهيم: ٣٧.

٣-٣ آل عمران: ٩٦.

٤-٤ نهج البلاغة ٢: ١٤٦، الكافي ٤: ١٩٩.

٥-٥ الفتاوى الواضحة: ٥٩٧.

ص: ٢٢٤

المجال؟! فقد ورد عن الباقر عليه السلام (١): «لا زال الدين قائماً ما قامت الكعبة» وعن أبي عبد الله عليه السلام: «الحج أفضل من الصلاة والصيام».

وإن القرآن الكريم قرن ترك الحج بالكفر إذ قال تعالى: (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) (٢).

وغير هذا كثير.

وإذا ثبت هذا عند ذلك نقول: إن زعامة مكة بدأت بآدم عليه السلام وبأوصيائه من بعده، إلى أن دب الفساد في بني آدم، عند ذلك هجروا الكعبة. وبقيت مهجورةً من زمن نوح عليه السلام بعد الطوفان، من غير زعامة ولا سكن إلى أن جاء إبراهيم عليه السلام فأعاد بناءها وجدّد مناسكها. وظهر ماء زمزم فيها، ثم بقيت قائمةً شامخةً تهوى إليها أفئدةً من الناس إلى يومنا هذا.

الأهمية المعنوية

ولعلها الأهم في هذا الباب؛ لأنها الدافع الأول للتنافس على زعامتها، ولأن غالباً ما تمتد الزعامة المعنوية إلى أبعد من مكة والجزيرة، لتشمل العالم كله.

ولأهمية زعامتها هذه نجد كثيراً من الأحيان أن يتقاسم هذه الزعامة مجموعة من الوجوه أو القبائل، كل له جانب من جوانب تلك الزعامة، وسميت بأسماء بقيت موضع فخر لمن حاز طرفاً من تلك الزعامة، وأحياناً يزداد عدد الزعماء والمهام، فيتألف بذلك نظام حكومي أشبه ما يكون بالجمهوريات المعاصرة.

وتعود أهمية مكة المعنوية إلى كونها المنطلق الأول للبناء التكويني للحضارة الإنسانية، وكذلك البناء التشريعي حيث عرف الإنسان أول الشرائع على يد آدم عليه السلام في مكة المكرمة. واضيفت إليها تشريعات جديدة كلما تجددت الحياة. وعندما تحرك الإنسان من هذه الأرض حمل معه ميراثه من هذه الشرائع. إلّا أنه للأسف الشديد عمد إلى تغييرها وتحريفها، تدفعه إلى ذلك المصالح الشخصية والأهواء النفسية. ومع ذلك بقيت مكة محط أنظار العالم تنطلق منها بين الفينة

١-١ علل الشرائع للشيخ الصدوق: ٣٩٦.

٢-٢ آل عمران: ٩٧.

ص: ٢٢٥

والأخرى أنوار هدى يستضيء بها العالم. وبقية معظمة من قبل جميع الأديان والقوميات، يقدمون لها الهدايا والقرايين والنذور ويزورونها للدعاء حتى قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها. فكان الهنود يعظمونها ويقولون: إنَّ روح «سينا» وهو الأقوم الثالث عندهم حلَّت في الحجر الأسود. حيث زار سينا مع زوجته بلاد الحجاز (١).

وكانت الصابئة من الفرس والكلدانين يعدونها أحد البيوت السبعة المعظمة. وربما قيل: إنَّه بيت زحل لقدم عهده وطول بقائه (٢)، وكان الفرس يحترمون الكعبة أيضاً زاعمين أنَّ روح هرمز حلَّت فيها (٣). وكان أسلافهم يقصدون البيت الحرام ويطوفون به تعظيماً له ولجدهم إبراهيم. وكان آخر من حجَّ منهم ساسان بن بابك. وقد أهدى غزالين من ذهبٍ وجواهرٍ وسيوفاً وذهباً كثيراً، فدفن في زمزم. وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام وقال:

وما زلنا نحجَّ البيتَ جمعاً ونلقى بالأباطح آميناً

وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف دينا (٤) وكان اليهود يعظمونها ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم عليه السلام وبها صور وتمائيل منها تمثال إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام وصور العذراء والمسيح عليهما السلام ويشهد ذلك على تعظيم النصارى لأمرها (٥). وموضع البيت الحرام يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض. ويدعو عنده المكروب، فكلُّ من دعا هناك استجيب له. وكان الناس يحجُّون إلى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم عليه السلام لما أراد عمارة بيته وإظهار دينه وشريعته (٦).

ولم أهبط منذ أنزل الله آدم عليه السلام إلى الأرض محرماً بيته تتناسخه الأمم والملل امه بعد امه ومله بعد مله (٧). وكان النبي من الأنبياء إذا هلكت امته لحق بمكة، يتعبد فيها ذلك النبي ومن

١-١ الميزان ٤: ٤١٤.

٢-٢ مروج الذهب، للمسعودي ٢: ٢٢٨.

٣-٣ الميزان ٤: ٤١٤.

٤-٤ مروج الذهب ١: ٢٤٢.

٥-٥ الميزان ٤: ٤١٤.

٦-٦ أخبار مكة للأزرقي: ٥١.

٧-٧ أخبار مكة للأزرقي: ٥٥، معجم البلدان - الكعبة.

ص: ٢٢٦

معه حتى يموت فيها، فمات فيها نوح وهود وصالح وشعيب، وقبورهم بين زمزم والحجر (١). وبين زمزم والركن قبور سبعين نبى (٢). ومن هذا نعلم مدى أهمية زعامة مكة عالمياً، وليس فقط بالنسبة للجزيرة والعرب.

الأهمية الاقتصادية

يمكن إيجاز الأهمية الاقتصادية لمكة بكونها الممر التجارى للقوافل، التى تنقل البضائع من مختلف بقاع العالم، وتكون حلقة وصل بين الحضارات المختلفة؛ لذلك أنشئت فى مكة مجموعة من القنصليات لمختلف الدول والممالك المحيطة بالجزيرة العربية كالأحباش، والروم، والفرس، وعين فيها ممثلون لبعض الممالك العربية التى أسست على أطراف الجزيرة العربية. وأنشئت مجموعة من الأسواق للتبادل التجارى بين هذه الأمم. كسوق عكاظ وذات المجاز وغيرها، وأنشئت أحلاف وعلاقات للحفاظ على هذه التجارة وحركة القوافل بين القبائل والممالك المختلفة.

والشئ الآخر الذى أعطى مكة أهمية اقتصادية هو الهدايا والندور والقرايين التى تقدم للكعبة والحرم، وقد خصص مكان لجمع هذه الهدايا والندور.

زعامة آدم عليه السلام

عندما أنزل الله سبحانه وتعالى آدم إلى الأرض حمّله الأمانة على هذه الأرض (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً) (٣)

ثم أخذ منه ومن ذريته ميثاق الربوبية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) (٤)

وعندما أحسّ آدم وحواء عليهما السلام بالوحدة والوحشة طلبا من الله سبحانه

١-١ أخبار مكة: ٦٨.

٢-٢ أخبار مكة: ٧٣.

٣-٣ الاحزاب: ٧٢.

٤-٤ الاعراف: ١٧٢.

ص: ٢٢٧

وتعالى أن يأتيهما صالحاً يأنسا به، فأوحى الله إلى آدم: (سأخرج منصلبك من يسبحني ويحمدني، وسأجعل فيها بيتاً ترفع لذكري، وأجعل فيها بيتاً أخصه بكرامتي واسميه بيتي، وأجعله حراماً آمناً... تعمره أنت يا آدم ما كنت حياً، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك...) (١)

ولما حقق الله له ذلك، وأصبحت له ذرية ورعية، واجه آدم في زعامته المشكلة الأولى، وهي الصراع بين قابيل وهايل. وعلى ما في بعض الروايات احتكموا إليه في أمر زواج كل واحد من توأم أخيه الآخر، وكانت توأم قابيل أكثر جمالاً، فحكم عليهم أن يقربا قرباناً تأكل النار من تقبل منهما ويستحق الأخت الجميلة (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يُتقبل من الآخر) (٢)

فاستشاط قابيل غيظاً عندما جاء الحكم ليس بصالحه ورفض الحكم، وقتل أخيه هايل بعد أن قال له هايل (لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك) (٣)
لكن قابيل (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله) (٤)

ومن هذا الحدث الخطير انقسمت الانسانية ومنذ عصر آدم عليه السلام إلى قسمين:
أهل الخير وأهل الشر. احتفظ أبناء آدم الخيرين من ذرية آدم بموقعهم قرب الكعبة في جبال مكة وضواحيها. بينما ذهب قابيل وبنوه إلى سهول الجزيرة واليمن، واندفعوا في أرض الله الواسعة بعيداً عن نور النبوة ومشعل الهدى فراحوا في ظلام الجهل يتخبطهم الشيطان، يفعلون المنكر ويأتون الشهوات ويعيشون في الأرض فساداً، وتعلموا الطرب والغناء وما شابه ذلك من الموبقات.
زعامة شيت

عندما مرض آدم عليه السلام مرضه الأخير. جعل الوصية لابنه شيت، وأمره أن يكتف علمه عن قابيل حتى لا يفعل به ما فعله مع هايل، ومنع بنيه من الاختلاط

١-١ الكامل في التاريخ ١: ٣٩-٤٠.

٢-٢ المائدة: ٢٧.

٣-٣ المائدة: ٢٨.

٤-٤ المائدة: ٣٠.

ص: ٢٢٨

بأبناء قاييل، حتى يحصنهم من الأمراض التي انتشرت بين أبناء قاييل من اللهو واللعب والفساد والافساد. ومن نشاطات شيت (١): أنه بنى الكعبه من الحجارة والطين بعدما كانت من الخيام.

واستطاع شيت أن يضبط من كان تحت ولايته على المنهج الإلهي الصحيح فترة حياته، وينجح في عزلهم عن أبناء قاييل؛ ليحافظوا على الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها، والأمانة التي أودعها سبحانه وتعالى، ويلتزموا بالميثاق الذي أخذه الله على الإنسان. وعندما حضرته الوفاة أوصى لابنه أنوش ما أوصاه آدم عليه السلام إليه. وما زال أبناء آدم الذين سكنوا الحرم محافظين على التزامهم ما لم يختلطوا بأبناء قاييل وذريته، ويتوارد زعامتهم صالح بعد صالح إلى أن جاء «برد» فنزل بعض ذرية شيت من الجبل، واختلطوا بذرية قاييل التي عمها الفساد ومن بعد «برد» «اخنوخ» وقيل: إنه إدريس النبي عليه السلام (٢) فزاد الاختلاط وكثر الفساد حتى بين أبناء شيت، ولم يبق من الصالحين إلّا نفر قلائل، فنقضوا الميثاق وعبدوا الأوثان، وبدأت مرحلة العمل الاصلاحى التي تزعمها نوح عليه السلام.

زعامة نوح:

وفى زمانه استشرى الفساد وعبدوا الأوثان كما ذكر القرآن الكريم (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً) (٣)

. ولما طالت دعوته دون أن يستجيب له أحد، بل وجد الأبناء أشر من الآباء اعتذر نوح إلى ربه (قال ربّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً* فلم يزدتهم دعائى إلّا فراراً) (٤)

فأجابه ربه: (أنه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن...) (٥)

عند ذلك دعا نوح ربه: (ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) (٦).

١-١ أخبار مكة ١: الكامل فى التاريخ ١: ٦٢.

٢-٢ مروج الذهب ١: ٣٩، الكامل فى التاريخ ١: ٦٧، يعقوبى ١: ٣٤.

٣-٣ نوح: ٢٣، ٢٤.

٤-٤ نوح: ٦-٣٠.

٥-٥ هود: ٣٦.

٦-٦ نوح: ٢٦.

ص: ٢٢٩

فاقتضت الحكمة الإلهية أن تطهر الأرض من الكافرين لتبدأ دورة حياة جديدة للإنسان. فأمر الله تعالى نوحاً أن يصنع الفلك (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) (١).
 وفعلاً تحقق أمر الله فيهم وعلّموا ما كانوا يجهلون (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) (٢).
 وحتى لا تنقرض الحياة على هذا الكوكب (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلّا من سبق عليه القول ومن آمن) (٣).
 واستثنى الله تعالى ابن نوح (... إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) (٤).
 ثم جاء أمر الله إلى السماء والأرض (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) (٥).
 ولم ينفع ابن نوح الذي اعتصم بأحد الجبال الشاهقة حيث (لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم) (٦).
 وعندما طهرت الأرض من الظالمين (وقيل بعداً للقوم الظالمين) (٧).
 عند ذلك جاء الأمر الإلهي الآخر (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء) (٨).

وبهذا بدأت دورة حياة جديدة للإنسانية. وزّع عناصرها نوح عليه السلام - مما بقي معه في السفينة - على الكرة الأرضية (٩). فكان سام الابن الأكبر لنوح ووصيه كذلك، جعله في القسم الذي فيه مكة.
 وفي الفترة بين نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام لم يحدثنا التاريخ أنّ مكة بنيت في هذه الفترة أو مضرت. إلّا أنّها بقيت مقدسة، وكان يأتيها المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ويدعو عندها المكروب، فكلّ من دعا هنالك استجيب له. وكان الناس يحجّون إلى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم عليه السلام (١٠).
 زعامة إبراهيم

في خضم الصراع البشري بين الحق والباطل وبين الإيمان والكفر. ينتصر إبراهيم عليه السلام لرسالة الحق بعد أن ادّخره الله وحفظه بالاعجاز من طاغوت عصره النمرود؛ ليكلفه تبليغ رسالة السماء. وتكلفه هذه الرسالة الشيء الكثير، وتضطره للهجرة هنا وهناك، والتنقل من بلاد إلى أخرى، وابتليته الله تعالى كما ابتلى سائر

١-١ هود: ٣٧.

٢-٢ هود: ٤٠.

٣-٣ هود: ٤٠.

٤-٤ هود: ٤٦.

٥-٥ القمر: ١٢.

٦-٦ هود: ٤٣.

٧-٧ هود: ٤٤.

٨-٨ هود: ٤٤.

٩-٩ الكامل في التاريخ ١: ٧٥، المروج ١: ٤١، اليعقوبي ١: ٥١.

١٠-١٠ أخبار مكة للأزرقي: ٥٢.

ص: ٢٣٠

الأنبياء والرسل، ويمتحنه عدة امتحانات، ومما امتحن به إبراهيم عليه السلام خلوه من الولد- بعد أن بلغ من العمر عتياً- ليكون وصيه يحمل هم الرسالة من بعده. فمد يد الضراعة إلى الله والسؤال (رب هب لي من الصالحين) (١)

ويأتي الجواب من رب العالمين (فبشرناه بغلام حليم) (٢)

لكن لا من زوجته ساره. وإنما من هاجر، التي وهبتها سارة لإبراهيم عليه السلام. بعد أن دفعته مشاعر الحنو إليصوت الطفولة؛ لبيد سكون البيت الممل. ولكن لما ولدت هاجر اسماعيل انقلبت المشاعر إلى مشاعر الغيرة الكامنة في النفس، فتطلب سارة من إبراهيم أن لا يسكننا مع هاجر في مكان واحد. فيأتي الأمر الإلهي لإبراهيم عليه السلام أن يهاجر بهاجر وابنها إلى حرم الله. ولما انتهت الرحلة بأرض مكة القاحلة، توجه إبراهيم إلى ربه (ربنا إنني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم) (٣)

فاستجاب له ربه أن هيأ أسباب الحياة في ذلك الوادي، فنبع الماء من تحت قدم إسماعيل، ثم جاء الخير الذي ترجوه هاجر بعدما دلت الطيور النازلة في ذلك الوادي على الماء، فاجتذبت تلك الطيور إحدى القوافل إلى ذلك الوادي فوجدوا هاجر وابنها تحت عريشها، فاستأذنها بالهبوط معها في ذلك الوادي، فأذنت لهم مستبشرة بذلك، ولما علموا أنها حرم إبراهيم وهذا ابنه إسماعيل زادوها احتراماً، واهدوا لولدها مجموعة من الماعز، ولما بلغ إسماعيل عليه السلام مبلغ الرجال تزوج منهم زوجته الأولى.

وكان لإبراهيم عليه السلام ثلاث زيارات لإسماعيل قبل بناء البيت، وعند زيارة إبراهيم الأولى، لم يجد إبراهيم الحفاوة والتكريم المعهود في عصره من زوجة إسماعيل بعد أن كان إسماعيل غائباً عنها في الصيد. فترك رسالة شفوية رمزية.

تقول له: «غير عتبه دارك» (٤). ومفادها أن يطلق زوجته فامثل إبراهيم عليه السلام أمر أبيه وطلق زوجته وتزوج بثانية. وعندما زاره للمرة الثانية وجد الحفاوة التامة والكرم حتى إنها (زوجة إسماعيل الثانية) غسلت رأسه من غبار التعب. فترك إبراهيم عليه السلام رسالة شفوية أخرى تقول له «حافظ على عتبه دارك» (٥).

١-١ الصافات: ١٠٠.

٢-٢ الصافات: ١٠١.

٣-٣ إبراهيم: ٣٧.

٤-٤ الكامل في التاريخ ١: ٩٠، مروج الذهب ٢: ٤٧، ٤٨.

٥-٥ الكامل في التاريخ ١: ٩٠، مروج الذهب ٢: ٤٧، ٤٨.

ص: ٢٣١

وأما الزيارة الثالثة. فقد جاء بأمرٍ عظيم. ألا وهو الأمر الإلهي ببناء الكعبة؛ لتكون مثابة للناس وأمناً (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) (١)

ولما فرغ إبراهيم وإسماعيل من البناء أتاه جبرئيل عليه السلام وأقاما مراسم الحج معاً؛ لتكون سنّة للأجيال القادمة، وعندها دعا إبراهيم الناس للحج (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) (٢)

اسماعيل عليه السلام

الذبح: عندما تقترن الزعامة بالنبوة. تصبح لها نكهة خاصة، تجذب إليها النفوس الكريمة، وتهوى إليها الافئدة الطاهرة، ويقترب منها الصالحون. وعندما يختار الله سبحانه وتعالى عبداً لحمل رسالته، يدخله في دورة من الابتلاءات والامتحانات حتى تكتمل شخصيته، ويكون مؤهلاً لحمل الرسالة. وإسماعيل عليه السلام كان واحداً من أولئك العباد الصالحين، الذين اختارهم الله لرسالته، وادخله دورة تأهيلية لحمل النبوة. ومن مفردات تلك الدورة قصة الذبح. حيث يرى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل (يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك) (٣)

ورؤيا الأنبياء صادقة كالقطعة. فلبى إبراهيم أمر ربه، وفي رحلة الحج أو غيرها يقف إبراهيم على إسماعيل وهو يصلح النبل للصيد، ليبلغ إسماعيل عليه السلام بالأمر الصعب. فهل يستجيب له كما استجاب في المرات السابقة من الطلاق وبناء البيت والحج وغيرها؟ (يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) (٤)

ويحاول إبراهيم أن ينفذ الأمر في ابنه (فلما أسلما وتله للجبين) (٥)

تنفيذاً لأمر الله وعندما وضع السكين على رقبة أدركته الرحمة الإلهية فجاءه النداء الإلهي (... أن يا إبراهيم* قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين* وإن هذا لهو البلاء المبين* وفديناه بذبح عظيم) (٦)

وانطلق إسماعيل يبدأ خطى الحياة من جديد. بعد أن أصبح مؤهلاً للزعامة

١-١ البقرة: ١٢٧.

٢-٢ الحج: ٢٧.

٣-٣ الصافات: ١٠٢.

٤-٤ الصافات: ١٠٢.

٥-٥ الصافات: ١٠٣.

٦-٦ الصافات: ١٠٤-١٠٧.

ص: ٢٣٢

الدينية والدينية. ويحسن إدارة مكة مستعيناً بأبنائه الاثنى عشر وعلى رأسهم نابت وقيدار، الذين يرتبط نسب العرب المستعربة بهم، والذين نزل القرآن بلغتهم. ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وآله يقول: أنا ابن الذبيحين يعنى إسماعيل وعبدالله. وورد عنصلى الله عليه وآله كذلك. «إذا افتتحت مصر فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمّة ورحماً» وكان يقصد هاجر أم إسماعيل المصرية ومارية أم ابراهيم زوجة النبي صلى الله عليه وآله القبطية المصرية. ولما حسنت إدارة مكة على عهد إسماعيل وبنيه، كثرت الهجرة إلى مكة وتمصرت، خاصة بعد خراب سد مأرب حيث انتشرت الأقوام المحيطة فى السد، وقسم منها هاجر إلى مكة. ويستدل من بعض الأخبار أنّ مكة قد عمرت بالسكان فى عهد إسماعيل حتى كان لها نظام حكم وسلطة وإدارة، خصوصاً أنّ مكة كبرت واتسعت وتشابكت مصالح سكانها، وأصبحت لها مواسم تختلف مهماتها من طقوس دينية وعروض تجارية وغير ذلك (١). وبقيت هكذا تزدهر إلى أن توفى إسماعيل، وجاء من بعده ابنه نابت، وكان الرئيس بعده والقائم بالأمر والحاكم المطلق فى مكة والناظر فى أمر البيت وزمزم. ثم جاء بعد نابت قيدار بن إسماعيل وسار بالطريقة التى سار بها أخوه نابت وأبوه إسماعيل عليهما السلام.

زعامة جرهم:

اختلف المؤرخون فى إدارة مكة بعد نابت وقيدار، فمن قائل: إنّ إدارتها كانت لجرهم بعدهما، وآخر ينسب ذلك إلى العماليق، وثالث يقول: إنّها كانت مشتركة بين جرهم والعماليق، ثم حدث صراع بينهم أدى إلى نفي العماليق عن مكة، والى سيطرة جرهم عليها. وآخر يعيد ذلك الحدث من الصراع الى «طسم» أو أبناء قنطورا. إلّا أنّ أشهر الأخبار تشير إلى أن الذين تولوا إدارة مكة بعد أبناء إسماعيل هم جرهم، وهم الذين تزوج إسماعيل منهم زوجته، إلّا أنّ ذلك اختلف فى كيفية استيلائهم على الإدارة، هل كانت بالحرب والقوة أم بالسلم؟ واختلف كذلك هل

ص: ٢٣٣

كانت جرهم تسكن مكة أو قريباً منها قبل إبراهيم وزوجته هاجر وابنها، أم أنها كانت غير مسكونة، وإنما اتفق مجيء قافلة من جرهم، وفي أثناء مرورهم علموا من نزول الطير وجود ماء في وادي مكة، وعثروا على هاجر وابنها في تلك الحال (١)؟ ثم إنه هناك من يقول: إن جرهم اثنان. الأولى ابيدوا على يد القحطانيين.

والثانية هي التي تولت إدارة مكة بعد أبناء إسماعيل (٢).

وعلى كل حال أن جرهم تصاهرت مع إسماعيل وكانوا يتكلمون العربية، وأن إسماعيل أخذ منهم اللغة العربية بعد أن عاش بين ظهرانيهم منذ نعومة أظفاره حتى وفاته.

ثم إنه في أيام إدارة جرهم، لم يكن أحد يقوم بأمر الكعبة غير ولد إسماعيل تعظيماً لهم. فقام بأمر الكعبة بعد ثابت أمين، ومن بعده يشجب بن أمين، ثم الهميع، وبعده أدر الذي عظم شأنه في قومه وجل قدره، وأنكر على جرهم أفعالهم، وهلك جرهم في عصره (٣). على إحدى الروايات وفي رواية المسعودي في المروج (٤): أن أول ملوك جرهم بمكة مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هيتي بن نبت بن جرهم بن قطحان، ثم بعده عمرو بن مضاض، ثم الحارث بن عمر، ثم عمر بن الحارث، ثم مضاض بن عمر الأصغر. وفي رواية أخرى لليعقوبي (٥)؛ أن أول ملوك جرهم مضاض بن عمر، ثم الحارث بن مضاض، ثم عمر بن الحارث، ثم المفسم بن ظليم، ثم الحواس بن جحش بن مضاض، ثم عداد بن ضداد بن جندل، ثم محص بن عداد، ثم الحارث بن مضاض بن عمر، وكان آخر من ملك من جرهم.

دفاع جرهم عن مكة: وقد دخلت جرهم في حروب متعددة دفاعاً عن موقعها، فمن ذلك أن الحارث بن مضاض أول من ولي البيت، وكان كل من دخل مكة بتجارة عشرينها عليه في أعلى مكة. وملك العماليق السמידع بن هوبز بن

١-١ اليعقوبي ١: ٢٧٠.

٢-٢ دائرة المعارف الإسلامية ٦: ٣٥٠، تاريخ ابن خلدون ٢: ٣.

٣-٣ تاريخ اليعقوبي ١: ٢٧١.

٤-٤ مروج الذهب ١: ٥١.

٥-٥ تاريخ العقوبي ١: ٢٧١.

ص: ٢٣٤

لاوى بن قيطور بن كركر. وكان يعشر من دخل مكة من ناحيته، وكانت بينهما حروب فتارة تكون على الجرحمين وأخرى لهم، واستقام الأمر لجرهم آخر المطاف (١) وينقل حسين أمين في موسوعة العتبات المقدسة (٢): أن في أيام الحارث ابن مضاخ الجرحمي نشطت حركة بنى إسرائيل، وزحفوا يريدون مكة من الشمال، فقاتلهم الحارث بن مضاخ، فهزمهم واستولى على تابوت من الكتب يحملونه، وفيه ما انتحلوه من الزبور.

سقوط جرهم

وردت أخبار متباينة في كيفية سقوط جرهم. فمن ذلك ما ذكره ابن هشام (٣): أن جرهماً بغوا بمكة واستحلوا حلالاً من الحرمه، فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها، ففرق أمرهم، فلما رأت بنو بكر ابن عبد مناة من كنانة، وغبشان من خزاعة ذلك أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة، وكانت مكة في الجاهلية لا تقر فيها ظلماً ولا بغياً، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته، ولا يريد لها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه. فيقال: إنها ما سميت بكة إلا لأنها كانت تبك أعناق الجابرة إذا أحدثوا فيها شيئاً. فلما أحس عمرو بن الحارث الجرحمي خرج بغزالي الكعبة وبحجر الركن فحذفها في زمزم، وانطلق هو ومن معه إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا عن أمر مكة وملكها حزناً شديداً، فقال عمرو بن الحارث بن عمرو بن مضاخ في ذلك شعراً:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فقلت لها والقلب منى كأنما يلجلجه بين الجناحين طائر

بلى نحن كنا أهلها فأزالنا صروف الليالي والجدود الغوائر

وكنا ولأه البيت من بعد نابت نظوف بذاك البيت والخير ظاهر ولهذا الشعر قصة لطيفة: إن عمرو بن الحارث كان قد نزل بقنونا من أرض

١-١ مروج الذهب ٢: ٤٩، سيرة ابن هشام ١: ١١٧، بدل العماليق مطورا.

٢-٢ سيرة ابن هشام ١: ١١٩.

٣-٣ سيرة ابن هشام ١: ١١٩.

ص: ٢٣٥

الحجاز، فضلت له إبل فبغاها حتى أتى الحرم، فأراد دخوله ليأخذ إبله، فنادى عمرو بن لحي: من وجد جرهماً فلم يقتله قطعت يده. فسمع بذلك عمرو بن الحارث، وأشرف على جبل من جبال مكة، فرأى إبله تنحر ويتوزع لحمها، فانصرف بائساً خائفاً ذليلاً وأبعد في الأرض، وبغربته يضرب المثل، ثم قال هذا الشعر.

وفي رواية اليعقوبي (١). أن جرهم لما طغت وظلمت وفسقت في الحرم، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى إليها، سلط عليهم النذر فاهلكوا عن آخرهم.

ورواية المسعودي (٢) تقول: لما بغت جرهم في الحرم وطغت حتى فسق رجل منهم في الحرم بامرأة، بعث الله على جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات، فهلك كثير منهم. وكثر ولد إسماعيل وصارو ذوى قوة ومنعة، فغلبوا على أخوالهم جرهم، وأخرجوهم من مكة فلحقوا بجهيته، فأتاهم في بعض الليالي السيل فذهب بهم. مشاريع جرهم:

١- حلف الفضول: من مشاريع جرهم حلف الفضول الأول. وذلك أن نفرًا من جرهم وقطوراء يقال لهم الفضيل بن الحارث الجرهمي والفضيل بن وداعة القطورى المفضل بن فضالة الجرهمي اجتمعوا فتحالفوا أن لا يقرؤا ببطن مكة ظالماً. لا ينبغي إلا ذلك لما عظم الله من حقها. ثم درس ذلك فلم يبق إلا ذكره في قريش، إلى أن أعيد في حياة النبي صلى الله عليه وآله في دار عبد الله بن جدعان، وقبل البعثة النبوية الشريفة (٣).

٢- بناء الكعبة: والحدث الآخر بناء الكعبة بعد أن أخذها السيل وزادوا في بناء البيت، ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام (٤).

٣- الإطعام: والشئ الآخر إطعام الطعام للوافدين إلى مكة، وطبخوا الكثير

١- ١ تاريخ اليعقوبي ١: ٢٧١.

٢- ٢ مروج الذهب ٢: ٥٠.

٣- ٣ الكامل في التاريخ ١: ٤٧٣.

٤- ٤ مروج الذهب ٢: ٥٠.

ص: ٢٣٦

وسمى المكان بطابخ (١).

بعد سقوط جرهم عادت مكة لأبناء إسماعيل. وكان أول من تولى الزعامة من ذرية إسماعيل عليه السلام أباد بن نزار بن معد، لكن لم يستتب الأمر إلى أباد حتى نشب نزاع بين أباد ومضر، فكانت بينهم حروب كثيرة حتى ظهرت مضر على أباد، فأنجلوا من مكة إلى العراق قرب الكوفة، واجلاهم كسرى أنوشيروان إلى تكريت والجزيرة والموصل، ثم نزحوا منها إلى بلاد الرومان والشام (٢). وذكر اليعقوبي (٣) أن أباداً لما أرادوا الرحيل من مكة حملوا الركن على جمل فلم ينهض به، فدفنوه وخرجوا، وبصرت بهم امرأة من خزاعة حين دفنوه فلما بعدت أباد اشتد على مضر وأعظمته قريش وسائر مضر، فقالت الخزاعية لقومها: اشروطوا على قريش وسائر مضر أن يصير إليكم حجاب البيت حتى أدلكم على الركن ففعلوا ذلك، فلما أظهروا الركنصيروا إليهم الحجاب.

تضاربت الأخبار في كيفية وصول خزاعة إلى زعامة مكة، وكذلك اختلفوا فيهم هل هم من قحطان أو من عدنان؟ هناك رأى يذهب إلى أن قبيلة خزاعة كانت تنزل حول الحرم في أيام جرهم، وأن أصلها من اليمن كالجرهميين، وقد هاجرت بسبب ما كان ينتظر من الدمار، الذي خلفه السيل وأقامت في مكة، فقامت خزاعة في وجه جرهم ووقع القتال بينهما، واعتزل بنو إسماعيل القتال، فتغلبت خزاعة على جرهم، وانتزعت منهم الإمارة وأجلتهم عن مكة (٤).

في حين كتب الدكتور حسين أمين في الموسوعة نفسها (٥): أن خزاعة خزاع من قبيلة الأزد العربية الكبيرة، ويضيف أن معظم النسابة ينسبون هذه القبيلة إلى عمر بن لحي بن حارثة. ويذكر المسعودي (٦) أن سبب تسميتهم خزاعة لما خرج عمر بن عامر وولده من مأرب انخزع بنو ربيعة فزلوا بتهامه، فسموا خزاعة لانخزاعهم. أما صاحب الميزان (٧) يُسميهم الإسماعيليين، ثم نسبهم إلى عمر بن لحي، وهو أول زعيم لخزاعة على مكة. ويعتقد الأخباريون أن أول من نصب

١- ١ سيرة ابن هشام ١: ١١٨، مروج الذهب: ٥١.

٢- ٢ موسوعة القرن العشرين، فريد وجدى ٦: ٢٤٧، مروج الذهب ٢: ٢٧٤.

٣- ٣ انظر موسوعة العتبات المقدسة قسم مكة: ٢٨.

٤- ٤ المصدر السابق: ٦٨.

٥- ٥ المصدر السابق: ٦٨.

٦- ٦ مروج الذهب.

٧- ٧ الميزان.

ص: ٢٣٧

الأوثان على الكعبة هو عمرو بن ربيعة، وهي لحي بن حارثة بن عمر بن عامر الأزدي، أبو خزاعة، ويعتبر أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وسيب السائب، وبحر البحيرة وحمى الحمى (١). ويذهب ابن الأثير (٢) إلى أن أول من ولي البيت بعد جرهم عمرو بن ربيعة وقيل وليه عمر بن الحارث العسائي ثم خزاعة بعده. وقال: إن خزاعة أبقّت لمضر ثلاث خصال: الإجازة بالحج من عرفة وذلك الى الغوث بن حر بن اد، وهو صوفى. والثانية الإضافة من جمع إلى منى، وكانت إلى بنى زيد بن عدوان. والثالثة: النسب للشهور الحرام فكان ذلك إلى القلمس.

الاصنام:

يذكر أن أول من أدخل الأصنام إلى مكة هو عمر بن لحي (٣). وقصة ذلك:

عندما مرض عمر بن لحي وصفوا له أحد العيون فى البلقاء من ربوع الشام، أن من يغتسل بها يشفى، ولما استحّم بها وبرئ من مرضه، رأى أهل ذلك البلد يعبدون الأصنام، ولما سألهم عنها أجابوه: هذه أرباب نتخذها لنا نستنصر بها ونستشفى بها. عند ذلك طلبصنماً منها فأعطوه «هبل» فوضعه بعد عودته فوق الكعبة، ومن ذلك اليوم بدأت تنتشر الأصنام بين العرب، وأصبح لكل قبيلة صنم، ومع ذلك بقيت ثلة مؤمنة على دين الحنفية دين إبراهيم عليه السلام.

كانت نهاية خزاعة على يد قصي بن كلاب، والذي اسمه الحقيقي زيد بن كلاب. مات أبوه وتركه صغيراً، فتزوجت أمه من ربيعة بن حزام كبير بنى عذرة، فنقلها إلى بلد عذرة من مشارف الشام، وحملت معها زيدا لصغره، فشب فى حجر ربيعة، وسمى قصياً لبعده عن دار قومه. ولما عيره أخوه لأمه الفضاعى بالغربة، رجع إلى أمه وسألها عما قال. فقالت له: يا بنى أنت أكرم منه نسباً ونفساً أنت ابن كلاب بن مرّة، وقومك فى مكة عند البيت الحرام. وعندها شدّ الرحال إلى مكة وأقام مع أخيه زهرة، ثم خطب إلى حليل بن حبشة ابنته فزوجه، وحليل يومئذ يلى الكعبة وهو شيخ كبير. فولدت لقصي أولاده عبد مناف وعبد العزى وعبد

١- ١ بلوغ الأرب ٢: ٢٠٠، الأغاني ١٣: ١٠٩.

٢- ٢ الكامل فى التاريخ ١: ٤٧٥.

٣- ٣ مروج الذهب ١: ٢٧٤، ابن هشام ١: ٧٨.

ص: ٢٣٨

قصي. وكثر ماله وعظم شرفه، ولما هلك حليل أوصى بولاية البيت لابنته حبي.

فقال: إني لا- أقدر على فتح الباب وإغلاقه، فجعل فتح الباب إلى ابنه المحترش، فاشترى قصي منه ولاية البيت بزق خمر وبعود فضربت العرب المثل فقالت:

أخسر صفقه من أبي غبشان. وقيل: أحليل من حبشه أوصى قصياً بذلك، وقال:

أنت أحق بولاية البيت من خزاعة. عندها جمع قومه وأرسل إلى أخيه من فضاة يستنصره، فحضر فضاة في الموسم. وكانت صوفة تدفع بالناس من عرفات وتجزهم إذا تفرقوا من منى. فأتاهم قصي ومن معه من قومه ومن فضاة فمنعهم وقال: نحن أولى بهذا منكم، فقاتلوه وقاتلهم قتالاً شديداً فانهزم صوفة، وغلبهم قصي. فانهزمت خزاعة بعد أن عرفت أنه سيمنعهم كما منع صوفة، وكثر القتال بين خزاعة وبنى بكر من طرف وقصي وفضاعة من طرف آخر. ثم تداعوا إلى الصلح، على أن يحكموا بينهم عمرو بن عوف بن كعب بن ليث من كنانة، ففضى بينهم بأن قصياً أولى بالبيت من خزاعة، وإن كل دم أصابه من خزاعة وبنى بكر موضوع يشدخه تحت قدميه، وإن كل دم أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وبنى كنانة ففي ذلك الديه مؤداة (١).

زعامة قريش

الزعيم الأول قصي:

تولى قصي الزعامة بعد أن حكم له عمرو بن عوف بالأحقية في ولاية البيت، وهو أول رئيس. ووردت الأخبار أنه لم شعث قومه وجمعهم من الأودية والشعاب والجال إلى مكة، وابتنى مقر رئاسته وسمى دار الندوة، يجتمع فيه أعيان قريش ويقرن ما شاءوا من الأحكام في أمور السلم والحرب، فكان يشبه المجلس النيابي أو مجلس الشورى. وسنّ تشريعات جديدة تقضى بعدم أحقية من لم يبلغ الأربعين من السنين أن يدخل هذه الدار. وكلما توسعت مكة وكثر سكانها وروادها

١-١ الكامل في التاريخ: ١: ٤٥٨-٤٦٠، موسوعة العتبات المقدسة: ٦٨، طبقات ابن سعد: ١: ٤٦-٤٧، ابن هشام: ١: ١٣٠.

ص: ٢٣٩

والمهاجرون إليها، كلما تعددت الأغراض وتوسعت المهام واحتاج الوضع إلى نظام إدارى أفضل، وخاصة بعد أن أصبحت مكة وأسواقها المركز التجارى الأول فى العالم؛ للاختلال الذى وقع فى النقل البحرى بسبب الصراع القائم بين الدول العظمى والروم والفرس والأحباش، فأصبح الممر التجارى البرى أكثر أماناً، فاندفعت آلاف الإبل تنقل البضائع وتحط الرجال فى مكة المحطة العالميه الأمينه، خاصة بعد انهدام الممالك العربيه فى أطراف الجزيرة ودخول الأحباش لها.

عند ذلك عمد قصى إلى أن يؤسس نظاماً إدارياً أشبه ما يكون بالنظام الجمهورى، فكان هذا النظام قائماً على أساس تقسيم المهام وتوزيعها على مجموعة أفراد. والمهام هى:

١- السدانة: وهى الحجابة، وباستطاعة المتولى فتح الباب وغلقها لأن المفتاح بيده.

٢- دار الندوة: ويمكن أن نعبر عنها مجلس الشورى والقضاء.

٣- اللواء: وهو الراية فكان لقريش راية اسمها العقاب، وكانوا إذا أرادوا الحرب أخرجوها. فإذا اجتمع رايهم على واحد سلموه إياها، وإلا فإنهم يسلمونها إلیصاحبها.

٤- السقاية: وهى عبارة عن حياض من آدم (جلود كانت على عهد قصى توضع فى فناء الكعبة، ويسقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل ويسقاه الحجاج).

٥- الرفادة: خرج من المال كانت قريش تخرجه من أموالها فى كل موسم فتدفعه إلى قصى يصنع به طعاماً للحجاج يأكله من لم يكن معه سعة ولا زاد.

٦- القيادة: هى إمارة الركب وتقودهم إلى القتال فى الحرب ويتزعمهم فى قيادته وفى الخروج للتجارة.

وتفرعت من هذه المناصب مناصب أخرى أهمها (الاشناق) وهى تنظر فى

ص: ٢٤٠

الدييات والغرم. (القيّة) وهى تجهيزات الجيش فى الحرب. (الاعنة) وهى تدبير شؤون الخيل عند قريش فى الحرب (المشورة) وهى منصب مهمته إسداء النصيحة والمشورة. (السفارة) وهى القيام بالاتصال بين قريش وغيرهم من القبائل إذا وقعت حرب، أو تطلب الأمر مذاكرة وصلحاً. (والايسار) وهى الأزلام التى كانوا يستقسمون بها للاستخارة مما يشبه سحب القرعة. (الحكومة) وهى التى تحكم بين الناس إذا اختلفوا أشبه بالقضاء. (الأموال المحجرة) وهى الأموال التى كانت تخص آلهتهم من النقد والحلى والسلاح، وهى تشبه بيت المال فى الإسلام. وكانت ولايتها فى بنى سهم.

(العمارة) ويراد بها أن لا يتكلم أحد فى المسجد الحرام يهجر ولا يرمث ولا يرفعصوته. ويمكن أن يوصفصاحبها المسؤول والمحافظ على حرمة البيت (١) وهذا النظام جعل مكة عامرة ذات أمجاد وشهرة انفردت بها بين جميع المدن العربية قبل الإسلام. وتعطى هذه المناصب وتوزع على وجهاء بطون قريش لاسترضائهم للمشاركة فى فعاليات مكة وضمان وحدتها.

الصراع على الزعامة

لما كبر قصى وعلم قرب وفاته أجمع على أن يقسم أمور مكة بين بنيه.

فأعطى عبدالدار السدانة ودار الندوة واللواء، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة (٢). فى حين يرى يعقوبى (٣) أن قصياً جعل السقاية والرئاسة لعبد مناف، والدار لعبدالدار، والرفادة لعبد العزى، وحافى الوادى لعبد قصى.

ولما مات قصى حدث صراع بين عبد مناف وعبدالدار فى الاستئثار بالمناصب، وانقسمت لذلك قريش فطائفه مع بنى عبدالدار، وأخرى مع بنى عبد مناف، فكان صاحب أمر بنى عبد مناف عبد شمس ومعه من قريش بنو أسد بن عبدالعزى، وبنو زهرة بن كلاب وبنو تميم بن مرة وبنو الحارث بن فهر. وكان صاحب أمر بنى عبدالدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبدالدار، وكان بنو

١-١ موسوعة العتبات المقدسة مكة: ٤٠-٤٤.

٢-٢ أخبار مكة: ٦٦.

٣-٣ تاريخ يعقوبى ١: ٢٩٢.

ص: ٢٤١

مخزوم بن مرة، وبنو السهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو جمح بن عمر بن هصيص، وبنو عدى بن كعب مع بنى عبدالدار. وخرجت عامر بن لؤى ومحارب ابن فهر فلم يكونوا مع واحد من الفريقين. وعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً، وضعوها لاحتلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتحالفوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم، فسموا المطيبين. وتعاقد بنو عبدالدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً فسموا الاحلاف. ويقال إنهم وضعوا أيديهم في دم جزور ذبحوها، ولعق أحدهم من ذلك الدم فسموا الأحلاف ولعقة الدم. ثم تداعوا بعد ذلك للصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبدالدار كما كانت، و تحاجز الناس عن الحرب (١).

زعامة عبد مناف

قام عبد مناف بن قصي على أمر أبيه بعده، وأمر قريش، واحتفظ بمكة رباعاً بعد الذي كان قصي قد قطعه لقومه. ولما جل قدره وعظم شأنه وشرفه وكبر أمره، جاءته خزاعة وبنو الحارث ابن مناة بن كنانة يسألونه الحلف؛ ليعزوا به فعقد بينهم الحلف الذي يقال له حلف الأحابيش (٢).

زعامة هاشم:

وهو أكبر أبناء عبد مناف واسمه عمرو العلاء. وإنما سمي هاشماً؛ لأنه أول من هشم الثريد لقومه وأطعمهم. ويمتاز بشخصية قوية ونفوذ واسع لما قدم من خدمات لقومه، وما ابتدع من مشاريع. وكان منها حفر الآبار. مثل بئر (سجله) وبئر بدر. وهاشم أول من سنّ الرحلتين لقريش رحلة الشتاء للحبشة. ورحلة الصيف

١-١ سيرة ابن هشام ١: ١٣٨، ابن الأثير ٢: ١٤.

٢-٢ تاريخ يعقوبى ١: ٢٩٢.

ص: ٢٤٢

الى غزوة وبلاد الشام... ذكرها القرآن الكريم (لإيلاف قريش* إيلافهم رحلة الشتاء والصيف).

وهو الذى أخذ الحلف من قيصر لقريش على أن تأتي قريش للشام وتعود آمنه (١).

ومن أخلاقه وكرمه أنه خرج بتجارة عظيمة يريد الشام، فجعل يمرّ بأشراف العرب، فيحمل لهم التجارات مجاناً، ولا يلزمهم مؤنة حتّصار إلى غزوة فتوفى فيها (٢).

كما كان هاشم يخرج مالاً كثيراً، ويأمر بحياض من آدم فتجعل فى موضع زمزم، ثم يسقى فيها من الآبار التى بمكة، فيشرب منها الحاج، وكان يطعمهم بمكة ومنى وعرفة وجمح، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق، ويحمل لهم المياه حتى يتفرق الناس إلى بلادهم فسمى هاشماً (٣).

وكان يخطب الناس ويحثهم على إكرام ضيوف الله فيقول: «يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته فهم أضياف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره. فأكرموا ضيفه وزواره فإنهم يأتون شعناً غبراً من كل بلد على ضوامر كالقداح وقد أعيوا ونفلوا وقملوا وارملوا فأقروهم وأغنوهم»، فكانت قريش ترافد على ذلك (٤).

صراع أمية وهاشم

ويبدو أن ما أصاب هاشماً من علو المكانة وسمو المجد أثار حسد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وكان ذا مال فيتكلف أن يصنع صنيع هاشم فعجز منه، فشمت به ناس من قريش فغضب، ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة، فكره هاشم ذلك لسنه وقدره فلم ترعه قريش وأحفظوه، قال هاشم: فإني أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها بطن مكة، والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضى أمية بن عبد شمس بذلك، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وهو جد عمرو بن

١-١ تاريخ اليعقوبى ١: ٢٩٤، سيرة ابن هشام ١: ١٤٣.

٢-٢ تاريخ اليعقوبى ١: ٢٩٥.

٣-٣ تاريخ اليعقوبى ١: ٢٩٣، سيرة ابن هشام ١: ١٤٣.

٤-٤ تاريخ اليعقوبى ١: ٢٩٣.

ص: ٢٤٣

الحمق ومنزله بعسفان، وقد قضى لهاشم بالغلبة، فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضره، وخرج أمية إلى الشام عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة بين هاشم وأميه (١).

وقد أجاد في شعره مطرود بن كعب الخزاعي عندما مرَّ برحل مجاور في بني هاشم وفيه بنات له وله امرأة في سنه شديدة:

يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد مناف

هبلتكَ أمك لو حلت بدارهم ضمنوك من جوع ومن إقراف

عمرو العلي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف

نسبوا إليه الرحلتين كليهما عند الشتاء ورحلة الاصياف الآخذون العهد في آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف (٢) تولى الزعامة بعد هاشم بن عبد مناف أخوه المطلب بن عبد مناف، وكان أصغر من عبد شمس وهاشم وذا شرف في قومه وفضل وكان سيداً مطاعاً في قومه، وكانت قريش تسميه الفيض لسماحته، فولى بعد هاشم السقاية والرفادة، وهو الذي عقد الحلف لقريش مع النجاشي في متجرها، وخرج مرّةً لتجارة إلى أرض اليمن، وتوفي بردمان من بلاد اليمن (٣).

زعامة عبد المطلب

لما أراد هاشم الخروج إلى الشام حمل امرأته سلمى بنت عمرو إلى المدينة؛ لتكون عند أبيها وأهلها، وكان معه ابنه (شيبه). فلما توفي هاشم في سفره، أقامت بالمدينة مع ابنها. واتفق أن مرَّ رجل من تهامة بالمدينة فرأى غلماناً يتناضلون فإذا غلام منهم إذا أصاب يقول: أنا ابن سيد البطحاء، فقال له الرجل: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا شيبه بن هاشم بن عبد مناف، وانصرف الرجل حتى قدم مكة، فوجد المطلب جالساً في الحجر، فقصَّ الرجل على ما رأى من ابن أخيه، فقال

١-١ طبقات ابن سعد ١: ٥٦، ابن الأثير ٢: ١٠.

٢-٢ تاريخ اليعقوبي ١: ٢٩٥.

٣-٣ سيرة ابن هشام ١: ١٤٤، طبقات ابن سعد ١: ٦٢، اليعقوبي ١: ٢٩٦.

ص: ٢٤٤

المطلب: أغفلته أما والله لا أرجع إلى أهلى حتى آتية.

ثم خرج على راحته حتى أتى بنى عدى بن النجار، فلما نظر إلى ابن أخيه قال: هذا ابن هاشم فأردفه خلفه وعاد به إلى مكة، وقال البعض من غير علم أمه، وزعم الآخرون كان بإجازة من أمه.

فلما استقبل أهل مكة المطلب وهم يرحبون به ويحيونه ويقولون: من هذا الذى معك؟ فيجيب هذا عبدى ابتعته بيثرب. وبقيت قريش إذا رآته تقول: هذا عبدالمطلب، فلج اسمه عبدالمطلب وترك شبيهة (١). هذه هى قصة اليتيم الثانى بعد قصى، وكل كان له زعامة استثنائية، ومنتظر اليتيم الثالث فى مكة، الذى تزعم الإنسانية كلها وإلى الأبد، ذلك رسول الله محمد صلى الله عليه وآله.

ولما حضر رحيل المطلب إلى اليمن قال لعبدالمطلب: أنت يا بن أخى أولى بموضع أبيك فقم بأمر مكة. فتوفى المطلب فى سفره، فقام عبدالمطلب بأمر مكة.

إعادة حفر زمزم

لما تكامل لعبدالمطلب مجده، وأقرت له قريش بالفضل، رأى وهو نائم فى الحجر، آتياً أتاه فقال له: قم يا أبا البطحاء واحفر زمزم، وتكررت الرؤيا وفيها علامات تدل على مكان زمزم، فانطلق فأتى بمعول وابنه الحارث وحيداً، واجتمعت إليه قريش فقالوا: ماذا تفعل؟ فقال: أمرنى ربى بما يروى الحجيج الأعظم، فاعترضوا ولم يكثرث باعترضهم. فلم يحفر إلا قليلاً حتى بدا الطى فكبر، واجتمعت قريش وعلمت لما رأت الطى أنه صادق. وحفر حتى وجد سيوفاً وسلاحاً وغزالين من ذهب، فضرب من الأسياف باباً للكعبة، وجعل أحد الغزاليين صفاً ذهب فى الباب، وجعل الأخرى فى الكعبة (٢).

يدعى الأخباريون أن عبدالمطلب لم يكن له من الولد أولاً إلا الحارث، فنذر لله إن رزقه الله عشرة أولاد أن يذبح ولداً قرباناً لله، ولما تكاملوا عشرة بولادة عبدالله وهو أجملهم وأكثرهم خصالاً كريماً، جمعهم وأقرع بينهم فكانت القرعة

١-١ تاريخ اليعقوبى ١: ٢٢٧، ٢٧٦، سيرة ابن هشام ١: ١٤٤-١٤٥.

٢-٢ تاريخ اليعقوبى ١: ٢٢٨-٣٠٠، مروج الذهب ٢: ١٢٧، ابن هشام ١: ١٢٠-١٥٥.

ص: ٢٤٥

على عبدالله خصمهم على أن يفى بنذره ويضحى بولده المذكور، ولما عرفت قريش منه الجدل في ذلك اجتمعت عليه؛ لتصرفه عن هذا الأمر، لئلا يصبح سنه بين العرب، واقترحوا عليه أن يأخذ مائة من الإبل ويقرع بينها وبين عبدالله، ففعل ذلك ثلاث مرات فجاءت القرعة في كل مرة على الإبل فنحرها وتركها للناس، فتواثبوا عليها من كل جانب. ويذكر أن دية القتل لهذا أصبحت مئة من الإبل (١).

حادثة الفيل

ومن الأمور التي حدثت أثناء زعماء عبدالمطلب وأعطته دفعه معنوية، وجعلت الناس تكن له الاحترام وتهابه؛ قصة الفيل التي ذكرها القرآن الكريم في سورة الفيل (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول).

وخلاصة القصة التي ذكرتها جميع التفاسير وكتب التاريخ المطولة والمختصرة هي: أن إبرهه الأشرم أحد قواد النجاشي الحبشي العظام، لما فتح اليمن بنى كنيسة كبيرة أراد بها أن يصرف العرب عن حج مكة إليها. فتغوط بعض العرب فيها، وقيل هدموا بعض جدرانها بقصد الإهانة، فعزم إبرهه أن يسير إلى مكة فيهدمها.

وإن مقدمات إبرهه أصابت نعماً لقريش، فأصابت فيها مائتي بعير لعبدالمطلب، فاستأذن عبدالمطلب الملك، فلما رآه أكرمه ونزل من سريره وجلس بجانبه، ثم قال له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن تردّ إلي إبلي فاستصغره الملك، فأجابه عبدالمطلب: أنا اكلمك أيها الملك في مالي، ولهذا البيت ربّ يحميه فراغ ذلك الملك.

وإن عبدالمطلب أمر قريشاً أن يخرجوا إلى رؤوس الجبال، بعد أن قالوا: لا طاقة اليوم لنا بأبرهه وجيشه، بينما التجأ عبدالمطلب إلى الكعبة وهو يدعو:

لا هم أن المرء يمنع رحله فامنع جلالك.

لا يغلبوا بضيلبهم ومحالهم عدواً محالك.

١-١ سيرة المصطفى هاشم معروف الحسنی: ٤٠، اليعقوبی ١: ٣٠٣، ابن هشام ١: ١٦٠، المروج ٢: ١٢٧.

ص: ٢٤٦

فأظهر من الجلد والشجاعة والثقة بالله ما لم يظهره أحد غيره، فكان لهذا أثره البالغ عند عامة العرب، وتضاعفت ثقتهم به فاتسعت زعامته في خارج مكة، بعد أن رأوا مكر الله بأبرهه وجيشه وفيله، وهي لا تلوى على شيء، فارة مذعورة، والظير وراءها يسقط عليهم تلك الأحجار فأين ما وقعت قتلت صاحبها، وآخر من قتل ابرهه على مشارف اليمن فانشقت بطنه فإلى لعنة الله (١).

ومن مفاخر عبدالمطلب أنه من القلائل، الذين أقروا بالتوحيد وتركوا عبادة الأوثان، وبقي على دين ابراهيم عليه السلام (٢). وكذلك حضانتة لرسول الإنسانية حتى كان يقدمه على أولاده. وبالرغم من وجود أمه وانصرافها إليه، فلقد أصبح الشغل الوحيد لعبدالمطلب وأعز شيء لديه، وأوكل امر إرضاعه إلى جارية لولده أبي لهب تدعى ثويبه، وضم إليه اليتيم وأمه، ثم رأى أن يرسل حفيده إلى بادية سعد؛ ليرضع هناك وينشأ، ويتعلم في البادية النطق بالكلمات كما كانت عادة الأشراف في مكة. وكان عبدالمطلب قد تعود أن يستظل نهاراً بالكعبة على فراش مرتفع يحيط به ولده وأشراف مكة، فيأتي محمد صلى الله عليه وآله وهو غلام صغير فيشب على فراش جده، فيأخذه أعمامه ليصرفوه عنه فيقول لهم: دعوه إن لابني هذا شأناً عظيماً (٣).

وعند وفاته أوصى عبدالمطلب إلى ابنه الزبير بالحكومة وأمر الكعبة، وإلى أبي طالب برسول الله وسقاية زمزم وقال له: قد خلفت في أيديكم الشرف العظيم الذي تطأون به رقاب العرب.

وروى عن رسول الله أنه قال: إن الله يبعث جدي عبدالمطلب أمه واحدة في هيئة الأنبياء وزى الملوكة. فكفل رسول الله بعد وفاة عبدالمطلب أبو طالب عمه فكان خير كافل، وكان أبو طالب سيداً شريفاً مطاعاً مهيباً رغم إملاقه. قال علي بن أبي طالب عليه السلام أبي ساد فقيراً وما ساد فقير قبله (٤).

١-١ الميزان ٢٠: ٤١٩، اليعقوبي ٢: ٣٠٤، وجميع التفاسير وكتب التاريخ.

٢-٢ مروج الذهب ٢: ٢٢٧، اليعقوبي ٢: ٣٣١.

٣-٣ سيرة المصطفى: ٤٦، ابن هشام ١: ١٧٧.

٤-٤ اليعقوبي ٢: ٣٣٥.

ص: ٢٤٧

الهوامش:

مهمّات مشبوهة في الديار المقدّسة (٤)

ص: ٢٥١

مهمّات مشهوهة فى الديار المقدّسة (٤)

بيركهارت: المستشرق الرحالة... فى خدمة الدوائر البريطانىة!

حسن السعيد

فى الثامن عشر من تموز (يوليو) ١٨١٤ م. نزل فى جدّة أحد أخطر الرحالة الغربيين فى القرن التاسع عشر. وسار منها إلى الطائف لمقابلة الخديوى محمد على باشا، ثم قصد مكة المكرمة؛ لإداء فريضة الحج على ما يدعى متخفياً تحت اسم مستعار هو «الشيخ إبراهيم».

إنّه الرحالة السويسرى الأصل البريطانى الجنسية «يوهان لودنج بيركهارت» أهم الرحالة الأوربيين، وأغزرهم علماً وثقافةً وأبعدهم صيتاً وشهرةً.

فمن هو بيركهارت هذا؟

وماهى طبيعته مهمته؟

وماذا أنجز منها؟

بطاقته الشخصىة

يسميه الإنجليز «جون لويس»، مستشرق سويسرى رحالة. ولد فى لوزان عام ١٧٨٤ م، وتخرّج من لىزيج وغوتنجن فى الكيمياء، وزار إنجلترا وتعلّم فى كمبرج الطب وعلم الفلك واللغة العربىة (١٨٠٦-١٨٠٩ م)، وتجنّس بالجنسىة

ص: ٢٥٢

البريطانية، ثم قصد حلب حيث أتقن اللغة العربية، وقرأ القرآن وتفقه في الدين الإسلامي، وتظاهر باعتناقه عام ١٨٠٩ م، وتسمى بإبراهيم بن عبد الله.

زار تدمر ودمشق ومصر وبلاد النوبة وشمالى السودان، ثم مضى إلى الحجاز، فأدى مناسك الحج! ليعود إلى القاهرة عام ١٨١٥ م، وقد أخذ منه الاعياء كل مأخذ. وفي السنة التي بعدها زار سيناء وعاد إلى القاهرة في حزيران (يونيو) ١٨١٦؛ لبدأ منها رحلة جديدة للاستكشاف، ولكنه مرض وتوفى في القاهرة عام ١٨١٧ م.

تلك هي - باختصار شديد- أبرز محطات حياة بيركهارت، وبالإمكان القول: إن بيركهارت يُعدّ نقله نوعيته، في تأريخ الرحالة الاوروبيين؛ وذلك لتضافر ثلاث حلقات تمازجت فتكاملت.. فكان بيركهارت.

فمن طبيعة المناخ الدولي الذي شهدته اوروا عقب حملة نابليون على مصر، وماأفرزته من تداعيات، علىصعيد التنافس بين الدول الكبرى، لا سيما بين فرنسا وبريطانيا.

إلى طبيعة الإعداد الخاص الذي تلقاه بيركهارت في أروقة لندن وجامعه كمبردج بالذات، تمهيداً لتكليفه بمهمة خاصة، ليست بمنأى عن الاستخدام الاستعماري للحقول الاستشراقية.

ثم إن طبيعة الاستعدادات الخاصة لدى بيركهارت؛ من نزوع إلى المغامرة، وشغف بالعلم، وقدرة على تحمّل الصعاب، ومهارة مدهشة على التخفي بعباءة الإسلام، ومَلَكة عالية لقراءة الحاضر والمستقبل.. كل ذلك أضفى على طبيعة مهمته أهمية خاصة؛ نظراً لأنها دشنت مرحلة جديدة في تأريخ الاستشراق.

ولابدّ من إلقاء بعض الأضواء الكاشفة، ولو بشكل سريع:

حملة نابليون: تداعيات التنافس

كان احتلال نابليون مصر عند مطلع القرن التاسع عشر

ص: ٢٥٣

(١٧٩٨-١٨٠١) منطلقاً لمرحلة جديدة من العلاقات الفرنسية مع الامبراطورية العثمانية، التي تميّزت بمزيد من التركيز والحزم. ومنذ ذلك الحين أدركت فرنسا أنّ دورها لم يعد يقتصر على حماية الكاثوليك، بل عليها أن تناضل في سبيل الحفاظ على هيبتها ونفوذها، في وجه المنافسة العنيفة الجديدة، في الامبراطورية العثمانية، من قبل دول عظمى كروسيا وبريطانيا وألمانيا. وقد كتب المؤرخ تويني يقول:

«... كانت الضربة الحاسمة غزوة نابليون لمصر (١٧٩٨-١٨٠١)، تلك الغزوة التي تركت طابعاً لا يُمحي على الخيال الشرقي، ولم يكن لهزيمة فرنسا، في المرحلة الأخيرة من مراحل حروب نابليون أي أثر سيّئ في محو هذا الطابع. وكانت بريطانيا العظمى التي كانت قد أتت ثورتها الصناعية، في أثناء حرب ١٧٩٢-١٨١٤، قد انتزعت من فرنسا حصّة الأسد في التجارة مع بلدان المشرق. غير أنّه لجميع الشعوب الشرقية غربي برزخ السويس، وغربي نهر الفرات ظلّت اللغة الفرنسية والآداب الفرنسية، والنظريات السياسية الفرنسية، منبع الحضارة الغربية (١).

يقول البروفيسور ادوارد سعيد: «إذا اتخذنا حملة نابليون..

تجربة أولى مقوية للاستشراق الحديث، فإننا نستطيع أن نعتبر إبطالها المدشّنين- في الدراسات الإسلامية، ساسي ورينان ولين (٢) المرجع السابق، فصل «المدنية المنورة في المراجع الغربية»، (٣)- بناءً للحقل، خالقين لتراث، وأسلافاً للأخوة الاستشراقية. وما فعله ساسي ورينان ولين هو أنّهم منحوا الاستشراق أسساً علمية وعقلانية. وقد نتج عن ذلك لا- كتاباتهم النموذجية وحسب بل خلق مفردات وأفكار يمكن أن تستعمل بصورة لا شخصية، من قبل أي إنسان يرغب في أن يصبح مستشرقاً، وكان تدشينهم للاستشراق انجازاً كبيراً؛ إذ إنه جعل وجود مصطلحات علمية أمراً ممكناً، ونفى التعقيد الابهامي وأنشأ شكلاً

١- ١ جعفر الخياط: مكة في المراجع الغربية، مقال مفصل منشور ضمن موسوعة العتبات المقدسة، ج ٢، قسم مكة، بإشراف جعفر الخليلي، ط ٢، بيروت ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م: ٢٦٤.

٢- ١ جعفر الخياط: مكة في المراجع الغربية، مقال مفصل منشور ضمن موسوعة العتبات المقدسة، ج ٢، قسم مكة، بإشراف جعفر الخليلي، ط ٢، بيروت ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م

٣- ج ٣، قسم المدينة: ٢٤٢.

ص: ٢٥٤

خاصاً من الاضائة للشرق، وأسس شخصية المستشرق بوصفه السلطة المرجعية المركزية للشرق؛ ومنح الشرعية لنمط خاص من العمل الاستشراقى الذى يمتلك انسجاماً وتماسكاً محددين؛ وأدخل إلى مجال الاستعمال الثقافى نوعاً من العملة النقدية الاستطراذية أصبح الشرق، بسبب حضورها، من يتحدّث، منذ الآن، باسمه؛ وفوق كلّ شىء، فإنّ عمل المدشنيين قد اقتضى حقلاً دراسياً وعائلاً من الأفكار، كان بمقدورها هى بدورها أن تشكّل مجتمعاً من الباحثين كانت الوشائج بينهم، وكان تراثهم، وطموحاتهم، فى آن واحد، داخلية تنبع من الحقل الدراسى، وخارجية بما يكفى لضمان التمتع بمزايا خاصة. وبمقدار ما ازداد فرض اوروبا لنفسها على الشرق وعبورها لحدوده، خلال القرن التاسع عشر، بمقدار ما ازداد اكتساب الاستشراق للثقة العامة به (١).

وحيث نبدأ بمعاينة الاستشراق بوصفه نمطاً من الإسقاط الغربى على الشرق وارادة السيطرة عليه؛ فلن يواجهنا إلّا عدد قليل من المفاجآت، وذلك أنه إذا كان صحيحاً أنّ مؤرخين مثل ميشليه، ورانكه، وتوكفيل، وبيركهارت، يحكون سردهم «كقصه من نمط خاص» فإنّ الشىء نفسه يصدق على المستشرقين الذين حبكوا التاريخ الشرقى، والشخصية الشرقى، والمصير الشرقى لمئات من السنين.

لقد أصبح المستشرقون، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، جماعة أكثر جدية؛ لأنّ آماذ الجغرافيا التخيلية والواقعية كانت، بهذا الوقت، قد تقلّصت، إذ إنّ العلاقة الشرقى-الاوروبى كانت قد تحدّدت بتوسّع أوروبى لا يُصدّد بحثاً عن الأسواق، والمصادر الطبيعية، والمستعمرات. وأخيراً؛ لأنّ الاستشراق كان قد انجز تقمصه وتحوّله من إنشاء بحثى إلى مؤسسه امبريالية (٢).

وهكذا غدا التراث الاستشراقى

١- ٣ خير الدين الزركلى: «قاموس الأعلام»- ٨: ٣٣٤ ط ٧، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٦ م، نجيب العقيقى: «المستشرقون»- ٢: ٥٢ ط ٤، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠.

٢- ٤ زين نور الدين زين: «الصراع الدولى فى الشرق الأوسط وولادة دولتى سوريا ولبنان» بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧١: ٣٤.

ص: ٢٥٥

بمثابة دليل للاستعمار في شعاب الشرق وأوديته، من أجل فرض السيطرة على الشرق وإخضاع شعوبه واذلالها «فالمعرفة بالأجناس المحكومة أو الشرقيين التي تجعل حكمهم سهلاً ومجدياً. فالمعرفة تمنح القوة. ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة.. فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية (١)».

ابحثوا عن التبشير.. و عن كمبردج

وفيما يخصّ بحثنا، وتحديداً الموقف البريطاني، الجهة الممولة والمكلفة لبركهارت في مهمته، فمرة اخرى؛ كانت القوتان الاستعماريّتان الرئيسيتان بريطانيا وفرنسا، رغم أنّ روسيا وألمانيا لعبتا بعض الدور كذلك.

وكان الاستعمار في البدء يعني تمييز بل، بالفعل، خلق المصالح وتحديداتها؛ المصالح التي قد تكون تجارية، أو دينية، أو ثقافية، أو متعلقة بالاتصالات، فقد شعرت بريطانيا، مثلاً، فيما يتعلّق بالإسلام والبلدان الإسلامية أنها، بوصفها قوة مسيحية، ذات مصالح مشروعته ينبغي المحافظة عليها. وقد نما جهاز معقد لرعاية هذه المصالح. فبعد المنظمات المبكرة مثل «جمعية نشر المعرفة المسيحية» (١٦٩٨)، و «جمعية نشر الإنجيل في المناطق الأجنبية» (١٧٠١)، تشكّلت جمعيات دعمتها مثل «جمعية التبشير الإنجيلية» (١٧٩٢)، «جمعية التبشير الكنيسية» (١٧٩٩)، «جمعية الكتاب المقدّس البريطانية والأجنبية» (١٨٠٤) و «الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود» (١٨٠٨). وقد شاركت هذه الارساليات بصورة صريحة في التوسّع الاوروبي.

فإذا أضفت إليها الجمعيات التجارية، والجمعيات المتفقهة، ومؤسسات الإستكشاف الجغرافية، ومؤسسات الترجمة، وغرس المدارس، والبعثات، والمكاتب القنصلية، والمصانع، والجاليات

١ - ٥ فيما عُرف الأولان بعدائهم السافر للإسلام، أقام الثاني في مصر بين سنتي ١٨٣٣ - ١٨٣٥ متستراً بالإسلام وراء اسم «منصور أفندي»!

ص: ٢٥٦

السكانية الأوروبية الواسعة، أحياناً، في الشرق، فإنّ مفهوم «المصلحة» يكتسب قدراً كبيراً من المعنى. ولقد أصبحت هذه المصالح تُحمى، فيما بعد، بحماسة شديدة ونفقات عالية (١).

ومن هنا، لسنا بحاجة إلى التأكيد على أن الطابع السياسي العسكري قد غلب على مجمل العلاقات البريطانية مع الشرق، والذي تُوجّ بالغزو العسكري الاستعماري، بعد أن مثل مستشرقو بريطانيا طليعة هذا الغزو وجهاز الرصد والاستطلاع لنجاحه. وكان معظم هؤلاء المستشرقين - إن لم نقل جميعهم - قد تخرجوا من المعاهد البريطانية ومؤسساتها، للقيام بهذه المهمة الدبلوماسية تحت ستار العلم والاكتشاف (٢).

ويأتي في مقدمة المعاهد البريطانية، التي خدمت المصالح البريطانية في الشرق صرحان أكاديميان هما: جامعة أكسفورد التي يعود تأسيسها إلى القرن الثاني عشر الميلادي، وجامعة كامبردج التي تأسست سنة ١٢٥٧ م. وفيما يتعلّق الأمر بالجامعة الأخيرة، لأنّ بيركهارت، أحد أبرز خريجيها، فلقد كانت أول ما أسست كرسياً للدراسات العربية في بريطانيا، وكان ذلك سنة ١٦٣٢، بفعل «السير توماس آدامز» الذي كان من كبار تجّار الجوخ في بريطانيا. وطبيعي أن لا يكون الهدف «العلمي الصافي» هدفاً أساسياً وراء هذا التأسيس، بل يتجاوزة إلى الناحية التجارية ثمّ السياسية والعسكرية أيضاً. وهذا ما عبّر عنه بكلّ وضوح، دون أي لبس أو غموض، أول استاذ قام بترأس كرسى للدراسات العربية في جامعة كامبردج، وهو «ابراهام ويلوك» في رسالته موجهة إلى مؤسسها «آدامز» بقوله: «إنّها لا تهدف فقط تنشيط الآداب ونشر المعرفة، ولكن أيضاً لخدمة الملك والدولة في مجال التجارة مع البلدان الشرقية، وتوسيع آفاق

١-٦ ادوارد سعيد: «الاستشراق: المعرفة. السلطة. الإنشاء» تعريب كمال أبو ديب، ط ٢، بيروت، ١٩٨٢: ١٤٥.

٢-٧ المرجع نفسه: ١٢٠.

ص: ٢٥٧

الكنيسة ونشر الديانة المسيحية بين القابعين في الظلام».

وبدأت بريطانيا تتطور في هذا المضمار، كما بدأت تطوّر من أساليبها أيضاً، خصوصاً بعد أن برز عدد من المستشرقين فيها على جانب كبير من الأهميّة... ولعلّ أهمّ حادثة جرت في القرن الثامن عشر، بالنسبة إلى الاستشراق، هي تأسيس «الجمعية الآسيوية في البنغال» سنة ١٧٨٤، على يد السير وليم جونز.

في هذا الإطار، أنّ عدداً من مستشركي هذا العصر كانوا ممّن عملوا في السلك الدبلوماسي، أو ممّن انخرطوا في سلك الجندية، وعملوا في خدمة التاج البريطاني كضباط، أو كانوا أبناء ضباط، أو موظفين في وزارة المستعمرات البريطانية. وفي أوائل القرن التاسع عشر شرعت جامعة كمبردج، تحت قيادة «ادوارد غرنول براون»، في تنظيم دروس للموظفين الملحقيين في السلك القنصلي في المشرق، والذين سيتولون أعمال الترجمة، وهكذا كان ينظر إلى تعلّم لغات الشعوب الإسلامية في كمبردج من ناحية تطبيقية، وليس فقط من الناحية الأكاديمية، كما كانت الحال في سائر الجامعات البريطانية (١).

والسؤال المطروح هو: أين موقع بيركهارت من كل هذا؟

في خدمة الامبراطورية العظمى

ثمّة تجربة مريّة عاشتها عائلة بيركهارت، تركت آثارها العميقة على توجهاته، تلك هي أنّ عائلته أُجبرت على الفرار من موطنها سويسرا، بعد الاحتلال الفرنسي، واستقرت في ألمانيا، حيث أكمل بيركهارت دراساته، قبل انتقاله إلى بريطانيا.

ولكن... لماذا انتقل بيركهارت إلى بريطانيا؟

وهل هناك علاقة بين هذا الانتقال وحالة العداة الذي يضمّره لفرنسا التي احتلت دياره، وسببت مأساة التشريد لعائلته؟!

وهل لعب والده، الذي كان

١- ٨. د. صالح زهر الدين: «الإسلام والاستشراق»، بيروت، ١٤١٢ هـ ١٩٩١: ١٠٧.

ص: ٢٥٨

ضابطاً فى الجيش، دوراً فى دفع ابنه إلى التوجه لخدمة التاج البريطانى، بغضاً بعدوّه التقليدى فرنسا؟ ليس بين أيدينا أدلّة وثائقية، بيد أننا نميل كثيراً إلى أنّ الدافع الأكبر لانتقال بيركهارت، ومن ثمّ تجنّسه بالجنسية البريطانية، لم يكن علمياً بحثاً، خاصه وأنّ لندن كانت مزدهرة، فى تلك الفترة، بنشاط محمود لتدجين المشرق وتحويله إلى «حقل للعلم الأوروبى» كما يقول ادوارد سعيد (١)، وذلك فى ظل التنافس المتزايد بين بريطانيا وفرنسا.

فى لندن تعرّف بيركهارت إلى سير جوزيف بانكس عضو الجمعية الأفريقية، التى كانت مؤلّت رحلات استكشافية سابقة إلى منطقة النيجر، انتهت جميعها بوفاة المستكشفين. أمّا الباحث البريطانى «بيتر برينث» فيؤكّد أنّ بيركهارت قد ذهب إلى لندن؛ لوضع نفسه تحت تصرّف الجمعية الأفريقية.. وكانت هناك مجموعة من العلماء والتجار الارستقراطيين نصف الامبرياليين تتوق لحل سر غموض افريقيا الغربية ومجرى نهر النيجر، وذلك لنشر النفوذ البريطانى على ضفاف ذلك النهر.

كان أحد الطرق إلى ذلك النهر لا يقع إلى الشرق من سواحل غامبيا، وهو الطريق الذى سلكه هو ثورن وبارك من قبل، بل يقع فى جنوب غربى مصر، عبر واحة فزان ومنها إلى النهر. وهناك كانوا يأملون أن يجدوا الطريق فى مكان ما فيما وراء الصحراء، حيث توقع أولئك الذين يسلكون هذا الطريق أن يجدوا تمبكتو على أحد جانبيها، ومصّب النهر المجهول على الجانب الآخر (٢).

وعندما قدّم بيركهارت فكرته ببلوغ تمبكتو بمرافقة قوافل الحجّاج العائدة من مكة المكرمة تبنتها الجمعية، ووظفته بقيمة جنيه استرليني فى اليوم (٣). وما ان قبلت الجمعية الجغرافية بيركهارت كمثل لها، فى هذه المغامرة الخطرة، حتى قرر أن يعدّ نفسه اعداداً كافياً لتلك الحياة

١- ٩ أدوارد سعيد: م. س؛ ١٢٤.

٢- ١٠ د. صالح زهر الدين: م. س؛ ١٠٨.

٣- ١١ المرجع نفسه: ١١٠، ١١١.

ص: ٢٥٩

المليئة بالمصاعب والاختبارات والمحن التي تنتظره (١). فالتحق بجامعة كمبردج عام ١٨٠٨؛ لدراسة اللغة العربية والطب وعلم الفلك وعلوم اخرى. وراح يعوّد نفسه على الحياة الصعبة (٢)، حتى وهو في انكلتره، نجد أنه قيد حياته بقيود جعلته يهجر حياة الترف الغربيّة، فينام على الأرض مثلاً، ويمشي ساعات طويلة، ويأكل الخضر فقط (٣)، ليخطو بعد ذلك أولى خطواته تجاه شواطئ آسيا، وهو يحمل في جوانحه المعتقدات العنصرية للغرب، من قبيل نظرية التفوق القائمة على قانون المركز والأطراف ونهب الثاني لحساب الأول، ومن قبيل أنّ الغرب هو موطن الحضارة؛ لذا فبريطانيا (رائدة الغرب) مدعوّة لحمل رسالة (الرجل الأبيض) ولقيادة (البرابرة) و (المتوحشين) نحو الحضارة!!

وليس من شك أنّ كلّاً من هذه الاستعدادات والتصورات تنطوى على مهمّة سرّيّة ليست عادية، إذ معلقة اللغة العربية بعلم الفلك؟ وماذا يربطهما بالطب؛ ليتعلمها بيركهارت في وقت واحد، وفي كمبردج صاحبه التاريخ العريق في المبادرات الاستعماريّة، ومحاولات تشويه الإسلام؟!

إنّ بعضاً من خفايا المشهد الخلفي لمهمّة بيركهارت يتضح حينما نعلم أنّ بريطانيا كانت وقتئذٍ مدفوعةً بحماية طرقها إلى الهند من جهة، ولموجهة المضايقة والنفوذ المتزايد من فرنسا، أو محاولة إيقافه من جهة اخرى إذ إنّ فرنسا، بعد هزيمتها في الهند، عملت على مضايقة الجزء الشرقي من الامبراطورية البريطانية باعتراض طرقها عن طريق مصر المسلمة، لكلّ هذا أخذت بريطانيا تظهر مزيداً من الاهتمام بالشرق، ولا سيما مصر (٤).

وفي الوقت الذي كانت فيه شبه الجزيرة العربية تشهد احتدام المواجهة بين محمد علي باشا والوهابيين، الذين مدّوا سيطرتهم من نجد إلى الحجاز..

١- ١٢ للمزيد يراجع كتاب الإستشراق لأدوارد سعيد، فصل «الجغرافية التخيلية» صفحة: ٨٠ وما بعدها.

٢- ١٣ بيتر برينث: «بلاد العرب القاصية؛ رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب»، ترجمه خالد أسعد عيسى، وأحمد غسان سبانو، بيروت، ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م: ١٠٨.

٣- ١٤ رلى الزين: «أوروبيون في الشرق»، الحلقة الخامسة، صحيفة الحياة لندن الإثنين ٢٧ نيسان ابريل ١٩٩٢- ٢٥ شوال ١٤١٢ هـ. العدد ١٠٦٧١: ١٥.

٤- ١٥ بيتر برينث: م. س

ص: ٢٦٠

وصل الشام أحد الرحالة الذي امتاز بالذكاء والنشاط وتعدّد المواهب، فأصبح مثلاً ونموذجاً لأولئك الذين حاولوا اختراق شبه الجزيرة العربية، وإثبات مصداقية الاسطورة العربية (١).

ولم يكن هذا الرحالة سوى بيركهارت، الذي بدأ مهمته في مدينة حلب السوريّة... وليشرع في مغامرته الكبرى.

الشام: خطوة في مسيرة الألف ميل

أمضى بيركهارت سنتين في هذه المدينة، وهناك أتم ثقافته ليس في اللغة العربية فحسب، بل في آداب اللغة العربية ولا سيما القرآن الكريم وتفاسيره، لدرجة أنه استطاع ان يستحوذ على احترام اولئك الذين كانوا يحرصون على النقاش في المعاني الداخلية لأي نص من النصوص، فقد ظهرت مهارته واتقانه في هذا المضممار (٢)، كما أظهر براعته عندما أكمل ترجمته لكتاب «روبنسون كروز» ودرس الدين الإسلامي بالجديّة ذاتها. واتخذ لنفسه اسم إبراهيم بن عبد الله.

خلال إقامته في سوريا كان يتجول مع البدو، خصوصاً قبيلة «عنيزة». ووصل إلى تدمر والفرات، ونشرت نتائج زيارته وأبحاثه تباعاً، وهي تشكل اليوم أول دراسة اثنوغرافية لقبيلة في الصحراء. وعن ذلك الوقت كتب بيركهارت:

«أمضيت بين البدو أسعد الأيام في حياتي. وفي الوقت ذاته أمضيت ساعات صعبة ومملة. وكنت أنتظر- في بعض الأيام- بفارغ الصبر غياب الشمس؛ لأنني كنت أعلم أنّ حفلات الغناء والرقص في المساء ستخرجني من لعبة الداما مع رفاقي (٣).

وخلال إقامته في سوريا- وجزيرة العرب لاحقاً- دوّن ملاحظات طريفة عن أعراف وعادات البدو الذين أحبهم واعجب بهم. وكانت ملاحظاته هي أول مسعى «موضوعي» لدراسة

١-١٦ رلى الزين: م. س

٢-١٧ بيتر برينث: م. س، ورلى الزين: م. س أيضاً.

٣-١٨ د. حلمي خضر ساري: «صورة العرب في الصحافة البريطانية»، ترجمة عطا عبد الوهاب، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،

ص: ٢٤١

المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبدو (١).

في شباط (فبراير) ١٨١٢، شعر بيركهارت بأنه مستعد لمتابعة رحلته نحو النيجر، وتحرك ببطء من سوريا إلى القاهرة، مكتشفاً في طريقه آثار البتراء في الأردن (٢)، وبتوغله إلى الجبال المتاخمة للبحر الميت اعتبر أول أوروبي شق طريقه، خلال تلك الصخور الناتئة، المحيطة بعاصمته الأنباط القديمة التي قهرت «سيتزن»، فلم يستطع الوصول إليها. وقد استطاع أن يرسل وصفاً لمدينة البتراء الأسطورية، مما أدهش العالم حينذاك (٣).

وبينما كان يستعد للرحيل إلى القاهرة، كانت «الليدي هستر ستانهوب» قافلة من هناك، في طريقها إلى مقر إقامتها في لبنان، حيث كانت هي الأخرى تقوم بمهمة سرية، من مفرداتها رصد عيون نابليون من الفرنسيين في الشام، والعمل على استمالتهم، وتجنيدهم كجواسيس لبريطانيا... وأثناء عودته ستانهوب، وفي مدينة الناصرة تحديداً، فوجئت يوماً بدخول شاب غربي السمات، عربي الملبس، قدّم نفسه لها على أنه «الشيخ إبراهيم» وأخذ يحادثها بانجليزية سليمة، ولم يكن هذا الشاب سوى الرحالة الكبير بيركهارت... مكتشف البتراء، وآثار أبي سمبل (٤).

وعلى ما يبدو أنّ بيركهارت كاشفها بمهمته أو بعض خباياها، وخاصة فيما يتعلق بجهوده المضنية مع بدو الصحراء، وما حققه من إنجاز معهم، بحاجة إلى تواصل وتوظيف.

وقد قررت ستانهوب، بعد فترة قصيرة من وصولها لبنان، السفر إلى دمشق، ومنها بدأت اتصالاتها بالبدو، وعقدت معهم صداقات، كما قامت برحلة إلى تدمر.. واتصلت بشيوخ القبائل في بادية الشام، ولم يبخل عليهم بالمال، فكانت بعملها هذا أول امرأة أوروبية وطئت قدماها أرض مدينة زنوبيا التاريخية (٥).

وليس من المستبعد أبداً أن

١- ١٩ بيتر برينث: م. س؛ ١٠٨.

٢- ٢٠ المرجع نفسه.

٣- ٢١ صحيفة الحياة: م. س

٤- ٢٢ للمزيد يراجع كتاب: «صورة العرب في الصحافة البريطانية» م. س: ٤٤ هامش ٩٥.

٥- ٢٣ صحيفة الحياة: م. س

ص: ٢٤٢

يكون بيركهارت قد لعب دور العزّاب، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في مهمّة ستانهوب الصحراوية هذه. كما أنّ ستانهوب بدورها قد زوّدت بيركهارت - على الأرجح - برسالة خاصة إلى محمد علي باشا، الذي تحتفظ بعلاقات وطيدة معه، حتى إنه لم يرد لها طلباً، على حدّ تعبيرها (١)، لا سيما وأنها أقامت في ضيافته شهراً كاملاً من تلك السنّة، آيار (مايو)، وهاهي قادمة توّاً من القاهرة. وبذا تكون ستانهوب قد اختزلت كثيراً من الجهد على بيركهارت، تماماً كما ذلّل لها، هو الآخر، كثيراً من المتاعب، في تحركها على بادية الشام.

تطواف في وادي النيل

شقّ بيركهارت طريقه صوب القاهرة، بعد أسابيع قليلة من لقائه بستانهوب. وصل إلى هناك في أيلول (سبتمبر) ١٨١٢، وحلم الوصل إلى تمبكتو يحدوه، ويشغل كلّ اهتمامه، وحال وصوله القاهرة قابل محمد علي باشا، وهو يأمل أن يجد طريقاً أو قافلة تنقله إلى المناطق الغربية، في المرحلة الأولى لرحلته إلى نهر النيجر، ولكن الصحراء الكبرى تمتد أمامه وتقلّل من فرص نجاحه (٢). ولم يمض وقت قصير، حتى علم بيركهارت أنّ القافلة المتجهّة إلى أفريقيا الغربية لن تتحرك قبل حزيران (يونيو) ١٨١٣. وهذا يعني أنه سيمكث حوالي تسعة أشهر في القاهرة. لم يرق له الأمر، وقرّر أن ينزل إلى النيل، على أمل إيجاد طريق تتجه غرباً من بلاد النوبة، وفكر أنّه حتى لو لم ينجح في ذلك، فيكون استكشاف مناطق جديدة، إذ لم يكن أي أوروبي دخل الأراضي الواقعة جنوب أسوان بعد.

وتمكن بيركهارت من اجتياز ٢٠٠ ميل إلى الجنوب، مكتشفاً في طريقه «معبد أبي سمبل». وهناك واجه صعوبات مع الحكام المحليين.

وعندما اتضح له أن لا مجال لمتابعه

١- ٢٤ بلاد العرب القاصية: م. س؛ ١٠٩.

٢- ٢٥ د. محمود السمرة: «اليدى هسترستانهوب» تعريف بكتاب الشهر، مجلة العربي الكويتية، العدد ٩٩- شوال ١٣٨٦ هـ - شباط ١٩٦٧: ١٣١ وما بعدها.

ص: ٢٤٣

سيره جنوباً أو غرباً، قطع النيلصعوداً وعاد إلى نقطة انطلاقه. وفي اسيوط، بعدما اقتنع بأن ذهابه إلى افريقيا الغربية لن يحصل قبل سنة، اتخذ قرار التوجه إلى الحجاز، ولعلّ ماشجعه على تغيير وجهته وجود محمد علي باشا هناك، إذ كان يتابع حملته على الوهابيين، ولعلّها الأوامر قد صدرت إليه من مرؤوسيه بالتوجه إلى مكة.

وتبعاً لطريقته المنظمة، خلف بيركهارت وصفاً دقيقاً لأمتعته: كان يرتدى قميصاً وسروالاً وعباءة عربية، وعلى رأسه قبعة لفّ حولها قماشة، وحمل معه دفترين وقلماً وسكينه وبوصلة و ٥٠ دولاراً أسبانياً وقلادتين من الذهب. وذكر أيضاً أن البضائع والمأكولات التي حملها مع رفاقه لعبور الصحراء النوبية، وهي رحلة استغرقت أربعة أشهر، احتوت على ٤٠ رطلاً من الطحين، و ٢٠ من البسكويت، و ١٥ من التمر، و ١٠ من العدس، و ١٠ من الزبدة، و ٥ من الملح و ٣ من الأرز، و ٢ من البن، و ٤ من التبغ... كما حمل معه رسائل من محمد علي، باشا مصر لحمايته.

في ٧ تموز (يوليو) ١٨١٤، قطع بيركهارت برفقة العبد الذي كان اشتراه ب ١٦ دولاراً البحر الأحمر، ووصل إلى جدة بعد ١١ يوماً. وهناك مرض بيركهارت، ثم تعرّض لضائقة مالية، إذ إن التاجر الذي قدّم له الرحلة رسالة الاعتماد رفضها، ولم يسلفه الأموال. فأجبر على أن يبيع عبده ب ٤٨ دولاراً؛ أي ثلاثة أضعاف سعر الكلفة. وفي الوقت ذاته كتب إلى محمد علي باشا مستنجداً به، فاستجاب فوراً لطلبه، وأمر أن يُعطى الأموال والثياب (١).

في جدة.. والطائف

مكث بيركهارت في جدة شهراً، وكتب عنها نحو «١٠٠» صفحة واصفاً الحياة فيها والتجارة والعادات (٢)، وفي هذا الإطار، وصف تلك المدينة وسكانها، كما وصفها

١- ٢٤ المرجع نفسه.

٢- ٢٧ من القاهرة كتبت ستانهورب إلى أحد أصدقائها تقول: «لقد كان محمد علي حفيّاً بي، ولم يكن يستقبلني إلّا واقفاً، وقد سمح لي أن أزوره متى أردت، ولم يرفض لي طلباً طيلة اقامتي في ضيافته، حتى انه سمح لي أن أزور أرامل المماليك الذين قتلهم عندما طلبتُ منه ذلك» تُراجع مجلة العربي؛ المرجع السابق: ١٣٢.

ص: ٢٦٤

الآخرون من الرحالة: البنايات الحجرية العالية، الأسوار ووسائل الدفاع التي بدأت بالتهدم، إلى الأراضي القفراء التي كانت تضم وتأوى السكان متعددي الأجناس، الذين أتوا من جميع أجزاء شبه الجزيرة العربية، ومن سوريا وتركيا ومن الهند، ومن جزر الهند الشرقية.

وإضافةً إلى ذلك، فقد استطاع بيركهارت أن ينفذ إلى تفهم اقتصاد تلك المدينة، وأسباب انحطاطها، والتهديدات التي تستهدف مستقبلها، وإلى حدٍّ ما توصل إلى معرفة أسباب فنّ الدراسة الديموغرافية لتلك البلاد (أي دراسة المواليد والوفيات والصحة والزواج). وهو يخبرنا عن الأهمية العظيمة، التي وصلت إليها تلك المدينة الصغيرة على الصعيد التجاري، في أوائل القرن التاسع عشر، بسبب موقعها على مفترق الطرق، التي يسلكها الحجاج والتجار من جميع أنحاء العالم.. لم ينس أن يطلق نبوءاته، حول قرب تراجع أهمية المركز التجاري لجدّه، كما تتبأ بأنه عندما تنتهي السيادة العثمانية على الحجاز، والتي دعمها محمد على بنشاشه، فإنّ العرب عندها سوف ينتقمون لأنفسهم ولخضوعهم للأتراك، مع أنّ ذلك الخضوع كان اسمياً فقط، وسوف ينتهي الحكم التركي، ولكن سوف يصاحب انتهاءه إراقة الدماء (١).

وراح بيركهارت يصف مدينة جدّه بالتفصيل، بشكل لم يحاول أن يفعلهُ أي رحالة من قبل، ماعدا نيبور، إذ ربّما لم يكن أي واحد من هؤلاء الرحالة يشعر براحة تجعله يلتفت إلى مثل هذه التفاصيل. أو ربّما لم يكونوا متمكنين من ناحية اللغة بشكل كافٍ. ومن بيركهارت علمنا أنّ جدّه تحتوى على عدد الحوانيت التي أحصاها بشكل دقيق، وذكر أصناف المبيعات، وكذلك البضائع المبيعة، ومناطق استيرادها (٢).

ومن جدّه سافر بيركهارت إلى

١- ٢٨ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١٠٩.

٢- ٢٩ صحيفة الحياة؛ م. س.

ص: ٢٦٥

الطائف، وهو يصف مارآه للآخرين أيضاً، وهو ذلك السهل الوعر الكثير الحجارة والغبار والتلال، التي تغطيها صخور الغرانيت والكوارتز اللامع الذي يبهج الأنظار، خصوصاً عند رؤية أشجار النخيل المنتشرة هنا وهناك. ثمّ يصف الوديان الخضراء، فيما وراء جبل «القرى» على سفوح تلك السلسلة الجبلية... ورغم اعتدال الطقس، لكن بيركهارت كان يسافر، في معظم الأحيان، ليلاً خوفاً على نفسه من حرارة الشمس (١).

حال وصوله الطائف التقى محمد علي باشا، الذي كان يدير الحملة التي جردتها الدولة العثمانية بقيادته، لاسترداد البلاد المقدسة من الوهابيين. وكان محمد علي باشا قد وصل الحجاز في ربيع ١٨١٣، وأقام في الطائف للاشراف على مهمته، والقضاء على الوهابيين في عقر دارهم كذلك (٢).

سكن بيركهارت عند طبيب محمد علي الأرمني، وأمضى الليلة الأولى مع الباشا، يتحدثان عن «أمور الدنيا»، وأوضح له محمد علي أنه يخشى احتلال البريطانيين لمصر، بعد انتصارهم على نابليون، منتهزين قوتهم ومحوّلين الموقف الدولي لمصلحتهم. وكتب بيركهارت عن محمد علي قائلاً: «حاكم عظيم لا يعرف سوى سيفه وكيس نقوده، يسحب الأوّل لتعبئة الثاني» (٣).

وفي الطائف اجتمع بأعيان البلد، وكان محمد علي باشا قد جعل الطائف مركز القيادة لجيوشه في حملته على بلاد العرب. وقد نال بيركهارت إعجاب قاضي مكة بعلمه وثقافته (٤) حتى انه أعلن لاحقاً أنّ بيركهارت ليس مسلماً فقط بل هو عالم أيضاً (٥) كما أنه نال إعجاب محمد علي باشا، بعد أن روى له تلك القصص عن رحلاته. ولكن يظهر أنّ محمد علي باشا قد راودته الشكوك بالنسبة لهذا (المسلم) الأجنبي، ومع ذلك فقد كان يصغى بشوق لأي معلومات يُدلى بها بيركهارت. وكان محمد علي يلقي عليه

١- ٣٠ المرجع نفسه.

٢- ٣١ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١١٠.

٣- ٣٢ للمزيد يُراجع المرجع نفسه: ١١١.

٤- ٣٣ المرجع نفسه.

٥- ٣٤ مكة في المراجع الغربية؛ م. س ٢: ٢٦٤.

ص: ٢٦٦

بعض الأسئلة مثلاً: «كم يلزم من الجنود لإخضاع بلاد العرب حتى سهل شنغار؟».. وعندما وصلته نسخة من معاهدة باريس طفق الباشا في درسها مع بيركهارت، وكان الحاكم المصري يأمل أن يتجدد القتال في أوروبا، حتى تنشغل الدول العظمى بنفسها ولا تتدخل بشؤونها، ولكي يزيد في سعر الذرة التي يصدرها إلى الخارج (١).

ويُستبان ممّا دونه بيركهارت أنّ محمد علي باشا كان يشك في إسلامه، ومع هذا فقد سمح له بالتوجه إلى الحج في مكّة (٢) وهكذا سنحت له فرصة ثمينة، لإنجاز مهمته الاختراقية.

الحجّ إلى مكّة

بعد مسيرة يومين حافلين بأحوال جويّة غير مناسبة من رياح وأمطار ورعد وبرق، وصل بيركهارت إلى مكّة (٣)، وكان المستر بيركهارت قد أسلم - على ما يزعم - عند قدومه إلى مصر، في عهد الخديوي محمد علي باشا، وسمّى نفسه الشيخ إبراهيم. ويقول ناشر كتبه الإنكليزية، ويليام أوّسلي، في كانون الثاني (يناير) ١٨٢٩؛ إنّ معرفة بيركهارت العربية، وإطلاعه التام على أحوال المسلمين وعاداتهم قد ساعده على تقيّم دور الرجل المسلم بنجاح، حتى استطاع أن يعيش في مكّة، خلال موسم الحجّ كلّها، ويشترك في مناسكه وشعائره، من دون أن يشير أدنى شك بشخصيته المنتحلة... وكان بيركهارت نفسه يقول: إنّ من بقايا المماليك الذين قضى عليهم محمد علي باشا في مصر، حينما كان يُسأل عن هويته (٤).

دخل مكّة في ٨ أيلول (سبتمبر) ١٨١٤، حيث مكث لغاية كانون الثاني (يناير) اللاحق، والملاحظ ممّا كتبه بيركهارت نفسه أن إقامته في مكّة كانت مريحة جدّاً، فهو يقول: إنّ لم يتمتع خلال سفراته في البلاد الشرقية كلّها بمثل ما تمّتع به في مكّة من الراحة، وإنه سيظلّ يتذكر إقامته فيها إلى الأبد، برغم انحراف المزاج

١- ٣٥ صحيفة الحياة؛ م. س.

٢- ٣٦ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١١١.

٣- ٣٧ صحيفة الحياة؛ م. س.

٤- ٣٨ بلاد العرب القاصية؛ م. س: ١١٨

ص: ٢٦٧

الذي أَلَمَ به، فلم يسمح له بالتمتع بجميع ماسمحت له الأحوال التمتع به (١)، وقد كتب: «خلال جميع رحلاتي في الشرق، لم أتمتع براحة كالتى عشتها فى مكّة. وسأحتفظ بذكرىات جميلة عن إقامتى هنا».

ولا- شكّ أن بيركهارت لم يمضِ وقته سيدي، إذ وضع ٣٥٠صفحة من الملاحظات والوصف الدقيق للمدينة وأهلها... وترك وصفاً مفصلاً لبيت الله الحرام الذى تمتع بجماله، خلال لىالى شهر رمضان عندما «تلتمع آلاف الفوانيس فى أعمدته» وعندما «تنعشنا النسمه الباردة فيه، بعد يوم طويل وحار من الصيام» (٢).

ماتجدر الإشارة إليه، أن بيركهارت يشرع بوصف الحج وشعائره قبل وصوله مكّة، ويبدأ بذكر ما يختص بالإحرام بطبيعته الحال. ويستشهد بما رواه المؤرخون عن هارون الرشيد وزوجته زبيدة اللذين قصدا الحج، فى سنة من السنين، مشياً على الأقدام من بغداد إلى مكّة، ولم يكن يستر جسمهما غير لباس الإحرام، على طول الطريق.

ويأتى بعد ذلك على ذكر التوجه إلى المسجد الحرام، والطواف والسعى بين الصفا والمروة، وزيارة العمرة، ثم العودة إلى مكّة، على أن بيركهارت يذكر كذلك أن الكعبة كانت مكاناً مقدساً فى أيام الجاهلية أيضاً، وأن الناس كانوا يطوفون حولها بنفس النمط الذى يطوفون فيه حولها اليوم تقريباً، لكن المبنى المقدس كانت تزينه يومذاك ثلاثمائة وستون صنماً، وأن على الرجال والنساء أن يظهروا أمامها عراة كما خلقهم ربهم؛ ليستطيعوا التجرد عن الخطايا والذنوب، والتخلص منها مع الملابس التى يتجردون منها (٣). وصف مسهب لمكّة

وبعد أن يشير إلى التقديس والتبجيل اللذين يكتنهما العرب جميعاً لمكّة، وإلى الأسماء التى تطلق عليها مثل: «أم القرى» و «المشرفة» و «البلد الأمين»، يأخذ بوصفها من

١- ٣٩ مكّة فى المراجع الغربية؛ م. س.

٢- ٤٠ بلاد العرب القاصية؛ م. س.

٣- ٤١ مكّة فى المراجع الغربية؛ م. س، ٢: ٢٦٣-٦٢٤.

ص: ٢٦٨

جميع النواحي، فيقول: إنّ البلدة تشغل فضاءً يبلغ طوله حوالي ألف وخمسمائة خطوة، أي من محلّة الشبيكة إلى نهاية المعلا. لكن جميع ما يطلق عليه اسم مكّة، بالمعنى الأوسع، يمتدّ من ضاحية جرول (المدخل من طريق جدّة) إلى ضاحية المعيدة على طريق الطائف. ويبلغ هذا حوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة خطوة.

أمّا الجبال التي تحيط بهذا الوادي، الذي كان يسميه العرب وادي مكّة أو بكّة، فيبلغ ارتفاعها مابين مئتين وخمسمائة قدم، وهي جرداء خالية من الزرع والشجر. وينحدر الوادي برفق نحو الجنوب، حيث تقع محلّة المسفلة؛ ولذلك يتبدّد المطر الذي يسقط أحياناً على مكّة في جنوب مسفلة، في الوادي المكشوف الذي يسمّى وادي الطرفين، وتقع معظم البلدة في ضمن الوادي نفسه.

ويقول بيركهارت: إنّ مكّة يمكن أن تعتبر بلدة جميلة؛ لأنّ شوارعها أعرض من شوارع المدن الشرقية الأخرى بوجه عام. وبيوتها عالية مبنية بالحجر، فيها عدد من الشباييك التي تطلّ على الشوارع فتسبغ عليها منظرًا تملأه الحيوية، بخلاف الدور في مصر وسوريا، التي لا تطلّ على الطرق في الغالب. وهي مثل جدّة، تحتوي على عدد من الدور ذات ثلاثة طوابق، ويقول كذلك: إنّ مكّة مفتوحة من جميع الجهات، لكن الجبال المحيطة بها تكون مانعاً حصيناً ضد العدو، إذا مادّ وقع عنها بطريقة اصولية. وقد كان لها في الزمن القديم ثلاثة أسوار تحمي جوانبها المتطرفة (١)..

ويمضي بيركهارت في التطرق إلى العديد من التفاصيل، كالماء الذي يعتمد عليه سكان مكّة، وبئر زمزم، وقناة زبيدة التي يسهب في سرد تاريخها وماشهدته من ترميم وإصلاح، على مرّ التاريخ.

ومن أمتع ما يكتبه بيركهارت عن مكّة وصفه المسهب لمحلّاتها المختلفة، بعد أن شاهدتها بنفسه ودقّق

ص: ٢٦٩

أحوالها. فهو يقول: إنَّ القادم من جدَّة إلى مكَّة المكرمة يجد في مدخلها برجين عالين للحرس، كان قد أنشأهما الشريف غالب للدفاع عن عاصمته المقدسة.

وبعد أن يدخل القادم من بينهما بمسافة غير بعيدة يصادفه موظفو الشرف الذين يجبون الرسوم على البضائع. ثمَّ يدخل إلى «حارة جرول» التي يعيش فيها البدو المشتغلون في تجارة النقل ما بين مكَّة وجدَّة، وتأتي بعد «حارة الباب» التي تتألف من شارع عريض متسع، يقوم في جانبه عدد غير يسير من الدور الكبيرة الحسنة «حارة الشبيكة» التي تمتد إلى اليمن في الغالب، ويقول بيركهارت: إنَّ هذه المحلة كان أصحاب النبي عليه السلام قد ضويقوا فيها جدَّ المضايقة، في حروبهم مع قريش (١).

وعلى هذا المنوال، يمضى بيركهارت في وصف أدق التفاصيل الأخرى عن مكَّة وحراراتها أو مطوَّفيها، وأسواقها، وسفوحها، وأجهزتها الإدارية، ونفوسها وأماكنها التاريخية... الخ.

حرارات مكَّة.. ومواقعها التاريخية

كان بيركهارت يحرص على رصد كلِّ شاردة وواردة في مكَّة، ويتطرق إلى كلِّ شيءٍ تقع عليه عيناه، أو يتناهى إلى سمعه. ومن ذلك اهتمامه بالواقع المعاش كاهتمامه بالتاريخ الغابر، كلُّ ذلك بمنهجية موضوعية ونظرة جامعة مانعة. إنصح التعبير.

وغالباً نراه يشير إلى المواقع التاريخية الموثقة في حرارات مكَّة، دون أن يغفل واحداً منها. فمثلاً يقول بالمناسبة: إنَّ القمة الغربية من وادي الطرفين التي تقابل المسفلة، كانت تقوم فوقها بناية صغيرة وقبة شيدت لتخليد ذكرى الخليفة عمر بن الخطاب، فصارب تسمى «مقام سيدنا عمر»، لكن الوهابيين حينما استولوا على مكَّة، قبل أن يستردَّها منهم محمد على باشا، هدموا هذه البناية والقبة وخربوها (٢).

وفي المحل الذي ينتهي فيه

١- ٤٣ صحيفة الحياة؛ م. س.

٢- ٤٤ مكَّة في المراجع الغربية؛ م. س.

ص: ٢٧٠

السعي، من جهة المروة، لاحظ بيركهارت وجود الدار، التي كان يسكن فيها العباس عم النبي عليه السلام... وتوجد على مقربة من هذا المكان بركة وسبيل للشرب بناءً السلطان سليمان القانوني، واستمد له الماء من قناة مكة المشهورة... (١).

ويذكر بيركهارت كذلك «زقاق الحجر» الذي يقول: إن الزهراء البتول عليها السلام وأبا بكر الصديق قد ولدا فيه. وقد سُمي الزقاق باسم الحجر الذي كان يحيى الرسول الأعظم كلما كان يمر به، عند رجوعه من الكعبة على ما يُقال... (٢).

وعند انتهاء المعلا، وعلى مسافة غير بعيدة من قصر الشريف الكائن في شمال منطقة البرك، يوجد قبر أبي طالب والد الإمام علي عليه السلام، وعم النبي الكريم صلوات الله عليه. وقد عمد الوهابيون إلى تقويض البناء الذي كان قائماً فوق القبر، فأحالوه إلى كومة من الأنقاض، ولم يجد محمد علي باشا بعدهم من المناسب أن يعيد البناء إلى سالف عهده. ويقول بيركهارت: إن الناس في مكة يقدسون أبا طالب ويجلونه غاية الإجلال، ويخشون القسم كذباً به.

ويختم بيركهارت بحثه عن حارات مكة بالإشارة إلى عدد نفوسها، بعد أن يبحث فيصعوبة تقدير النفوس في المدن والبلاد الشرقية عامة. وهو يقدر نفوس مكة في غير مواسم الحج، في تلك الأيام، بخمسة وعشرين إلى ثلاثين ألف نسمة، يُضاف إليها حوالي ثلاثة إلى أربعة آلاف عبد حبشي وغير حبشي، ثم يقول: إن مكة كان بوسعها، في تلك الأيام، أن تسكن ثلاثة أضعاف هذا العدد من الحجاج أيضاً. ويشير كذلك إلى أن إحصاءً للنفوس كان قد جرى في عهد السلطان سليم الأول (٩٢٣ هـ) فوجد أن النساء والرجال والأطفال قد بلغ عددهم حوالي اثني عشر ألف نسمة.

وهو يروي ذلك عن المؤرخ قطب الدين، الذي يذكر أيضاً أن نفوس

١- ٤٥ المرجع نفسه، ٢: ٢٤٥.

٢- ٤٦ المرجع نفسه، ٢: ٢٤٨.

ص: ٢٧١

مكة كانت أكثر من هذا بكثير في القرون الخالية؛ لأن القرامطة، حينما هاجموا مكة في ٣١٤ هـ، بلغ عدد من قُتلَ بأيديهم من سكان مكة حوالي ثلاثين ألف نسمة (١).

الأماكن المقدسة

ويخصص بيركهارت في رحلته فصلاً خاصاً لذكر بعض الأماكن والبقع المقدسة التي يقول عنها: إن الناس، خلال احتلال الوهابيين لمكة، لم يكونوا يجرون على زيارتها أو التقدم منها، وأن جميع الأبنية أو القبب المشادة عليها قد تم تهديمها. وأول ما يذكر من هذه الأماكن «مولد النبي»، أو الموقع الذي ولد فيه سيد الكائنات النبي الأعظم صلوات الله عليه. وهو يقول: إنه وجد العمال يعيدون بناء المبنى الذي كان مشيداً فوقه. وقد وجد حفرة صغيرة في الوسط، قيل له إنها البقعة التي كانت أم النبي جالسة فيها، حينما جاءها المخاض فولدته. والمقول أن المكان كله كان بيت عبد الله بن عبد المطلب والد النبي.

ثم يذكر «مولد ستنا فاطمة» أو المكان الذي وُلدت فيه الزهراء البتول سيّدة نساء العالمين، ويوجد هذا «المولد»، على ما يقول بيركهارت، في بناية حسنة مبنيّة بالحجر، يُقال أنها كانت بيت أمها خديجة الكبرى، في شارع صغير يسمّى «زقاق الحجر». ويؤدى سلمصغير إليه عند الدخول، لأنه تحت مستوى الشارع، وتوجد فيه بقعتان محددتان؛ أحدهما ولدت فيها فاطمة الزهراء عليها السلام، والثانية كانت تجلس فيها لتدير رحاها وتطحن الحب. ويقول: وفي جناح بالقرب من ذلك توجد حجرة صغيرة، كان يجلس فيها النبي عليه السلام، حينما كان جبريل ينزل عليه بالوحي، ولذلك كانت تسمى «قبة الوحي».

ويذكر بعد ذلك «مولد الإمام علي» في الحارة المسماة «شعب علي»، ويقول بيركهارت: إن هذه عبارة عن مسجد صغير توجد حفرة في فئانه

ص: ٢٧٢

لتدلّ على البقعة التي ولد فيها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (٥١) (١)، وهذا اشتباه واضح، إمّا من بير كهارت الذي ربّما اختلط الأمر عليه، أو لعلّه من اشتباهات العوام، إذ من المعروف أنّ الإمام علياً عليه السلام هو وليد الكعبة.

ويشير بير كهارت بعد ذلك إلى «مولد سيدنا أبا بكر»، الذي يقول انه ضمن مسجد صغير يقع في مقابل الحجر الذي كان يحيى النبي صلى الله عليه وآله عند مروره به، ويقول كذلك أنّ هذا المكان ليست فيه بقعة خاصة بالذات، لكن ساحتها مغطاة بسجادة إيرانية، ويعلق بعد ذلك فيقول أنّ جميع هذه «الموالد» كانت قد أعيد بناؤها وترميمها، بعد اخراج الوهابيين من مكّة، في تلك الأيام، عدا «مولد النبي» الذي كان يجري بناؤه مجدداً، وتشارك في سدائه هذه الأماكن المقدسة عدّة أسر شريفة.

وقد ألقى بير كهارت أنّ «مولد أبي طالب»، في محلة المعلا، قد تمّ تهديمه عن آخره، وهو يتوقع ان لا يُعاد بناؤه من بعد ذلك أيضاً. كما وجد الوهابيين قد هدموا القبّة التي كانت مشيدة على قبر «سيدتنا خديجة» ولم يعد بناؤه أيضاً، مع أنّ الحجاج وسائر الناس كان من المعتاد أن يزوروه بانتظام، لا سيما في أيام الجمع صباحاً، ويقع هذا القبر في المقبرة الكبيرة الموجودة في محلة «المعلا»، وهو محاط بجدار مربع ليس فيه ما يلفت النظر، سوى حجر حفرت عليه آية الكرسي بخط كوفي.

وعلى مسافة غير بعيدة من هذا القبر كان هناك قبر آمنه والدة النبي صلى الله عليه وآله.

وكان مغطى بحجر حفرت فيه بعض الآيات القرآنية بخط كوفي قديم. ومما يذكره عن هذه المقبرة انه وجد في نهاية كل قبر من قبورها تقريباً نباتاً من نباتات (الصبر) قد زرع، ليدل على الصبر الذي يجب ان يتحلّى به الموتى، قبل أن يبعثوا في يوم المحشر (٢).

وهناك أماكن كثيرة أخرى،

١- ٤٨ المرجع نفسه، ٢: ٢٧١.

٢- ٤٩ المرجع نفسه، ٢: ٢٧٣.

ص: ٢٧٣

خارج مكة، يأتي بيركهارت على ذكرها، ويشير إلى قداستها، كجبل أبي قبيس، وقمته؛ «مكان الحجر» و «مكان شق القمر»، و «جبل النور»، و «جبل ثور»... الخ.

بيت الله الحرام

ويصف بيركهارت في الجزء الأول من رحلته بيت الله الحرام بالتفصيل، فيأتي على كل شيء فيه، بحيث يستغرق وصفه ما يزيد على خمسينصفحة.. ومن طريف ما يورده بيركهارت، في هذا الفصل، قائمة بأسماء الأبواب الموجودة في المسجد الحرام تحتوي على تسعة وثلاثين اسماً حديثاً، تقابلها الأسماء القديمة لبعض الأبواب. لكنه يقول ان أهم الأبواب كانت: باب السلام الذي يجب ان يدخل منه كل حاج، وباب العباس، وباب النبي، وباب علي، هذه كلها من الجهة الشمالية. أما الشرقية فأهم أبوابها؛ باب الزيت، وباب العشرة، وباب الصفا، وباب الشريف، ثم باب إبراهيم، وباب العمرة في الجنوب، وباب الزيارة في الجهة الغربية. ومعظم هذه الأبواب لها عقود عالية مديبة (١).

ويستطرد في هذا الفصل في وصف محيط المسجد الحرام من الخارج، الذي كانت تزينه سبع منارات، كما ويتحدث عن سدنة البيت الحرام، والطواشين الذين يقومون بواجبات الشرطة، في داخل الحرم الشريف، علاوة على قيامهم بغسل أرضية الكعبة وكنسها يومياً.. ويعتبر أغا الطواشين من شخصيات مكة على ما يلاحظ، بحيث يكون مخولاً بالجلوس مع الشريف والباشا والحاكم... ومعظم هؤلاء من العبيد السود. وبعضهم من الهنود (٢).

وعلى عادته في التقصي، يأتي بيركهارت كذلك على ذكر الكعبة المشرفة، فيقول؛ انها تفتح ثلاث مرات في السنة فقط، في اليوم العشرين من رمضان، واليوم الخامس عشر من ذي القعدة، والعاشر من محرم الحرام (٣).

ويتم ذلك عادة بعد طلوع

١- ٥٠ المرجع نفسه، ٢: ٢٧٤.

٢- ٥١ المرجع نفسه، ٢: ٢٧٧.

٣- ٥٢ المرجع نفسه، ٢: ٢٧٦-٢٧٨.

ص: ٢٧٤

الشمس بساعة واحدة، بنصب سلم فيما يقرب من الباب الكبير، وحالما يتم ذلك تندفق عليه جموع المسلمين المحتشدين في أسفله، وسرعان ماتمتلىء بهم داخلية الكعبة نفسها...

ويقول بيركهارت انه لم يستطع البقاء هناك أكثر من خمس دقائق، لأن حرارة المكان كانت مرتفعة بحيث لم يحتملها، وأوشك أن يخز مغشياً عليه منها.

وبعد أن يصف بيركهارت داخلية الكعبة وأستارها، وقد زارها هو مرتين، في يومى ١٥ ذى القعدة و ١٠ محرم الحرام، فشاهد في المرة الأخيرة أن الستائر الجديدة التى بعث بها محمد على باشا من القاهرة قد علقت، فكان قماشها ثميناً، ونسجها أدق من نسج الكسوة السوداء التى تغطى الكعبة من الخارج. أما الستائر القديمة التى كان قد مرّ عليها أكثر من عشرين سنة، فقد بيعت علناً للمتمكنين بسعر ريال واحد، لكل قطعة مساحتها ست بوصات مربعاً (١).

ملاحظات حول سكان مكة

وفي رحلته التفصيلية، يخصص بيركهارت مايزيد على سبعين صفحة منها، للتحدث عن سكان مكة وطبقاتهم وطباعتهم، مع أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك.

فهو يقول أولاً أن سكان مكة يمكن أن يُقال عنهم كلهم انهم غرباء وأجانب عنها. لأن قبائل قريش الأصلية التى كانت تسكنها قد تفتتت وهاجرت إلى الخارج، بحيث لم يبق لها ذكر يعتد به في مكة. على أن محيط مكة وما جاوره مازال يوجد فيه البعض من تلك القبائل البدوية على الأخص. وقد كانت توجد في مكة على أيام بيركهارت ثلاث اسر قرشية معروفة فقط، وكان يرأس احداها نائب الحرم. أمياً أكثر طبقات السكان فقد كانوا من أهالى اليمن وحضرموت، وكان يليهم فى العدد أبناء الهنود المستوطنين والمصريين والسوريين والمغاربة والأتراك. وكان

ص: ٢٧٥

هناك أيضاً مكيون من أصل إيراني وتاتاري وبخاري وكردى. ومن كل بلد مسلم آخر تقريباً. على أن أقدم السلالات المكيّة، التي بقيت في مكّة كذلك، هي سلالة الشرفاء الأصليين، الذين ينتمون إلى الدوحتين الحسينية والحسينية، من أبناء الإمام على بن أبي طالب عليه السلام، ثم يأتي بيركهارت على وصف أنواع الشرفاء في داخل الحجاز وخارجه، ويقول أن تقاسيم الشرفاء في مكّة هي تقاسيم جميلة مقبولة تقارب تقاسيم البدو في شكلها، ولا سيما في الوجه والعيون والأنف والأقنى (١).

وبعد أن يصف لباس المكيين بالتفصيل، يتطرق إلى اقتناء الجوارى الحبشيات، ثم يصف حالة مكّة الإقتصادية بأسهاب.. ويعرّج إلى ذكر ما يقترفه المكيون، وهو آسف، من أنواع الفساد والفجور... وهو يسهب في ذكر ذلك، على أننا لا نعرف مقدار الصحة في كلامه.

على أنه مع جميع ما يذكره من السيئات يشير إلى الصفات الحسنه عند المكيين كذلك مثل السخاء والكرم، ومحبة الغريب ومساعدته، والإمتناع عن السرقة والغش.

ويتطرق بيركهارت إلى الناحية العلمية في مكّة، فيقول أن العلم وتعلمه لا يمكن أن يؤمل ازدهارهما في مكان يفكر فيه الجميع بالحصول على الربح والمغرم أو الجنة.

وهو يعتقد أن مكّة في يومه ذاك لم تكن في مستوى البلاد الإسلامية الأخرى، من هذه الناحية، وحتى من ناحية العلوم الدينية. ويروى عن الفاسي المؤرخ أن مكّة كان فيها إحدى عشرة مدرسة في أيامه، بجانب عدد من الرباطات وغيرها.

بينما لم تكن توجد ولا مدرسة واحدة تلقى فيها المحاضرات على ما يقول، وليس فيها مكتبة عامة ملحقة بالحرم الشريف أيضاً. ومع عدم اهتمام المكيين بالكتب والتعلم فإن لغة مكّة، على ما يقول بيركهارت ماتزال أكثر نقاء ورقة في اللفظ والتركيب، من لغة

١- ٥٤ للمزيد من الإطلاع على التفصيلات انظر المرجع السابق، ٢: ٢٧٥، وما بعدها.

ص: ٢٧٦

أى مكان آخر يتكلم أهله العربية في العالم (١).

في أعقاب ذلك، تسلط بيركهارت الأضواء على حكومة مكة والشرفاء، إذ كانت مكة والطائف وقنفذة وينبع، على مايقول، تابعة لشريف مكة، قبل أن يحتلها الوهابيون، والمصريون من بعدهم، في أوائل القرن التاسع عشر.. وقد مدد الشريف نفوذه إلى جدة، لكنها بقيت منفصلة عن ممتلكاته اسمياً؛ لأنها كان يحكم فيها «باشا» ينتدب لحكمها من استانبول فيقسم وارداتها مع الشريف. وكان الشريف يترجع على دست الحكم في مكة بالقوة عادة، أو بنفوذه الشخصي، وموافقة أسر الشرفاء القوية.

وبعد أن يأتي بيركهارت على تاريخ الكثير من الشرفاء وأعمالهم، ولا سيما الشريف سرور والشريف غالب، يبدأ بوصف لباسهم ومواكبهم عند الخروج للصلاة وغيرها، ويذكر بالمناسبة أن الوهابيين حينما احتلوا مكة أجبروا الشريف على الخروج ماشياً إلى المسجد الحرام في أوقات الصلاة، لأن الركوب والفخفة لا يناسبان الخشوع والورع، الذي يجب أن يديه الحاج أو المصلى بجوار الكعبة (٢).

وبعد خوض مفصل في عادات الشرفاء واهتماماتهم.. ومايتسمون به من خصال كالاتمام الزائد الذي يولونه للسخاء والضيافة والإيمان بالعقيدة الحققة.. فإن بيركهارت يعلق أن المكيين يشككون كثيراً في نزاهة الشرفاء واستقامتهم، ثم يذكر أن القسم الأعظم من شرفاء مكة نفسها، وخاصة الشرفاء الحاكمين من ذوى زيد، يحتمل جداً أن يكونوا من الزيدية الذين يكثر أتباعهم في اليمن، ولا سيما في جبالالصعدة، لكن الشرفاء يكذبون ذلك، ويتمسكون بالمذهب الشافعي الذي يتمذهب به سكان مكة معظمهم، أما الشرفاء المقيمون في الخارج فلا ينكرون ذلك (٣).

١- ٥٥ يشير الرحالة الهولندي هورغرونيه، الذي زار مكة عام ١٨٨٤، إلى أن الكعبة تفتح في أيام ١٠ محرم الحرام، و ٢٧ رجب، و ١٥ شعبان، وبعض أيام رمضان وفي أشهر الحج، لكنها قد تفتح في أيام غير هذه للأثرياء الغرباء الذين يدفعون مبالغ غير قليلة عن ذلك. يراجع المرجع السابق ٢: ٣٠٩.

٢- ٥٦ المرجع نفسه، ٢: ٢٧٨-٢٧٩.

٣- ٥٧ المرجع نفسه، ٢: ٢٨٠.

ص: ٢٧٧

الحج مناسك.. وقوافل

وفي الجزء الثاني من رحلته، يخصص بيركهارت فصلاً كبيراً للحج ومناسكه وجميع ما يختص به من شؤون. وأوّل ما يبدأ به الإشارة إلى أنّ المسلمين قد قلّت حماستهم لتأديّة الواجبات الدينيّة المفروضة عليهم، في تلك الأيام، ومن جملة ما الحج الذي أصبحت تكاليفه الباهظة على الكثيرين من المسلمين، تحول دون تجشّمهم المصاعب من أجله. وصار قسمٌ كبير منهم ينيب غيره للحج عنه بالأجرة، إذا لم يترك الأمر بالكلية أو يماطل به.

ويشير بعد ذلك إلى أنّ عدداً غير يسير من المسلمين كانوا قد وصلوا إلى مكّة، قبل موعد الحج بثلاثة أو أربعة أشهر، لأنّ تقضية رمضان المبارك في البلد المقدّس فيه كثير من الأجر والثواب. ثم يأخذ بوصف مواكب الحجّاج وقوافلهم التي تأتي من البلاد الإسلاميّة المشهورة، ولا سيما سوريّة ومصر.

فيقول: إنّ موكب الحجّ القادم من سوريّة كان على الدوام من أقوى المواكب، منذ كان الخلفاء يصحبون الحجّاج بأنفسهم من بغداد. ويبدأ الموكب الشامي في العادة بالتحرك من الاستانة، فيجمع في طريقه حجّاج المدن والبلاد الأناضوليّة والسوريّة حتى يصل إلى دمشق الشام، حيث يمكث عدّة أسابيع. وفي خلال الطريق الممتد من الاستانة إلى الشام كلّه تُؤخذ التدابير اللازمة للمحافظة على سلامة القوافل وما فيها من حجّاج، وتصحب الموكب من بلدة إلى أخرى قوات مسلحة يجهزها الحكام المسؤولون.

وفي كل محطّة أو خان كان يجد الحجّاج البرك والأحواض العامّة من الماء، التي كان السلاطين القدماء قد أنشأوها لراحتهم والعناية بهم. ويقابلون بمظاهر البهجة والفرح في كلّ مكان ..

وكان الموكب الشامي على انتظام تام في سيره وسائر شؤونه، فإنّ باشا الشام أو من يُنيب من ضباط كان يرأسه على الدوام، فيعطى الإشارة في

ص: ٢٧٨

الحل والترحال بإطلاق الرصاص.

وتتقدم الموكب في الطريق ثلث من الخيالة، كما تسير خلفه ثلث أخرى لرعاية المتخلفين. ويجتمع في ضمن الموكب الحجاج القادمون من المدن المختلفة في جماعات تسير سوياً على طول الطريق.

ويتعاقد الحجاج عادة مع أحد المقومين، وهو يتعهد بتجهيز الدابة إلى الحاج، مع سائر ما يحتاج إليه، خلال السفر، ولذلك يلاحظ كل عشرين أو ثلاثين حاجاً مع مقومهم الخاص، الذي يهيئ لهم الخيم، ويجهز الخدم، فيوفر على الحجاج أتعاب السفر، ولا سيما بتحضيره شؤون الطعام والقهوة والماء وما أشبه لهم. ولقد كانت اجرة الحاج عند المقوم في ١٨١٤ مع اعاشته تبلغ مئة وخمسين ريالاً من دمشق إلى المدينة، وخمسين ريالاً من المدينة إلى مكة (١).

أما قوافل الحجاج المصريين وموكبهم فتسير على نفس النظام الذي تسير عليه القوافل السورية، لكنها نادراً ما تساويها في العدد، لأنها تتألف من الحجاج المصريين فقط، إلى جنب الحرس العسكري، ويكون طريقها على جانب أكبر من الخطر والمشقة، لأن الطريق الممتد على سواحل البحر الأحمر يمر من ديرات قبائل شرسة قوية الشكيمة، كثيراً ما تحاول قطع الطريق على القوافل بالقوة. وكان الموكب المصري في ١٨١٤ يتألف من الجند المرافق للمحمل (٢) وحاشيته مع بعض الموظفين الرسميين. لأن جميع الحجاج المصريين فضلوا الحج عن طريق السويس.

وفي ١٨١٦ رافق موكب الحج عدد من وجوه مصر وسراتها، وقد جاء أحدهم بمئة وعشرة جمال، لتحمل عفشه وحاشيته، مع ثمانى خيم كبيرة. ولا بد من أن تكون نفقات سفره قد بلغت حوالى عشرة آلاف دينار، وكان مع الموكب أيضاً حوالى خمسمائة فلاح مع نسائهم من مصر السفلى.. والغريب أن بيركهارت

١- ٥٨ المرجع نفسه، ٢: ٢٨٣.

٢- ٥٩ المرجع نفسه، ٢: ٢٨٥.

ص: ٢٧٩

يقول انه شاهد معهم جماعة من البغايا والراقصات، وانّ خيم أولائي النسوة كانت أجمل خيم الموكب وأكثرها زينته وتزويقاً (١). ويقول بيركهارت كذلك أنّ موكب الحج الإيراني الذي كان يخرج من بغداد، في سالف الأيام، فيأتي إلى مكّة عن طريق نجد، قد انقطع مجيئه حينما أوقف الوهابيون مجيء الموكب الشامي من سورية. وبعد ان عقد عبد الله بن سعود صلحاً مع طوسون باشا (بن محمد علي) في ١٨١٤، كان العدد القليل من الحجّاج الإيرانيين القادمين عن طريق البر، قد عبروا من بغداد إلى الشام، وساروا مع الموكب الشامي بصحبة عكامين من بغداد.

ومن الجدير بالذكر، على مايقول بيركهارت، إنّ الإيرانيين لم يكن يسمح لهم على الدوام أن يأتوا إلى مكّة. فبعد أن اعيد بناء الحرم الشريف في ١٦٣٤ م أمر السلطان مراد الرابع بأن لا يُسمح لأي إيراني من «شيعة علي» بتأدية الحج أو الدخول إلى بيت الله الحرام. فبقى التحريم سارياً عدّة سنوات، غير أنّ المال الذي بذله الإيرانيون سرعان مافتح الطريق أمامهم إلى الكعبة وعرفات. وقد توقف مجيء الموكب المغربي للحجّاج مدّة سنين عديدة، وقد أصبح قدومهم على دون هدى أو انتظام. وكان من المعتاد أن يرأس الموكب قريب من أقرباء ملك مراكش، فيسير مسيرات بطيئة نحو تونس وطرابلس، ويجمع الحجّاج في طريقه من كل منطقة. ويسلك هذا الموكب من طرابلس الطريق الممتد على ساحل البحر إلى درنة، ومن هناك يسير مع الساحل المصري إلى القاهرة، عن طريق الاسكندرية. ولا يرافق هذا الموكب إلّا عدد قليل من الجنود، لأنّ الحجّاج يكونون مسلحين تسليحاً حسناً في العادة.. ويقول بيركهارت؛ يوجد مع موكب الحجّاج المغاربة عادةً اناس من أهالي جزيرة جربا، الذين يعتقد أنهم من شيعة

ص: ٢٨٠

الإمام علي، كما يقول بيركهارت.

وكان يأتي من اليمن موكبان للحج عن طريق البر، من قبل، وكان أحدهما يتحرك منصعداً فيسير في المناطق الجبلية إلى الطائف ومنها إلى مكّة. أمّا الموكب الثاني فقد كان يتألف من حجّاج يمانيين، مع حجّاج إيرانيين وهنود يصلون في العادة إلى موانئ اليمن. وقد أبطل هذا الحج في ١٨٠٣، بعد أن كان من المواكب الغنية بالسلع المختلفة والبُن، وبعد أن كان يرأسه أئمة اليمن. وقد كان لهذا الموكب، كما كان لغيره، مكان خاص في مكّة المكرمة ينزل فيه..

أمّا الحجّاج الباقون فيأتون إلى مكّة عن طريق البحر من اليمن وجزر الهند الشرقية، وهؤلاء هم مسلمو الهند، وكشمير، وكجران، والإيرانيون القادمون عن طريق الخليج والعرب من البصرة ومسقط وعمان وحضرموت.. فضلاً عن القادمين من سواحل مليندا ومومباسا الذين يطلق عليهم «السواحليون»، ويأتي مسلمو الحبشة وسائر بلاد العبيد بالطريق نفسها كذلك..

ويأخذ بيركهارت بوصف مناسك الحج بالتفصيل.. ويقدر عدد الحجّاج الذين وقفوا في عرفات (سنة ١٨١٤) بسبعين ألف حاج. وقد كان مخيم الحجّاج هناك يبلغ طوله بين ثلاثة وأربعة أميال، وعرضه حوالي الميلىن. وهو يقول في هذا الشأن أنّه ليس هناك، على وجه الأرض، بقعة في مثل هذا الحجم الصغير يقف عليها مثل هذا العدد من الناس، الذين يتكلمون بهذا العدد الكبير من اللغات واللهجات. ويقول كذلك انه شخصياً لاحظ وجود أربعين لغة بين الحجّاج، وأنه كان هناك عدد آخر من اللغات الاخرى بطبيعة الحال.. (١)

ونجد لزاماً التنويه إلى أنّنا عزفنا عن ذكر الكثير من الملاحظات والمعلومات المهمة، التي ذكرها بيركهارت، خشية الاطالة، مكتفين بالاحالة إلى مضانها للمستريد.

ص: ٢٨١

الهوامش:

معجم ما كتب في الحجّ والزيارة والمعالم المشرفة في الحجاز (٨)

ص: ٢٨٤

معجم ما كتب في الحج والزيارة والمعالم المشرفة في الحجاز (٨)

عبدالجبار الرفاعي

١٣١٨- ساختار شهرى مدينة ومحلات قبائل در دوره نبوى

عبدالعزیز عبد اللہ بن إدريس

رسول جعفریان

مىقات حج: ع ١٦ (تابستان ١٣٧٥ هـ) ص ١٠٢-١٢١.

١٣١٩- السالك المحتاج الى معرفة مناسك الحاج

رضى الدين على بن موسى بن طاووس الحسينى الحلبي ت ٦٧٤ هـ.

١٣٢٠- سؤال وجواب پيرامون مسائل حج مطابق با فتواى سيد محمد رضا گلپايگانى

(بالفارسيه)

قم: دار القرآن الكريم، ط ١، ١٣٦٨ ش، ٩٩ ص.

١٣٢١- سُبُل الحج في مناسك الحج

عبد اللہ بن محمد رضا شبر الحسينى ت ١٢٤٢ هـ.

١٣٢٢- سُبُل الفجاج في مواقف الحاج

باقر واعظ كجورى ت ١٣١٣ هـ.

١٣٢٣- ٥٦ موشحه على طريقه الساده الوقائيه فى تعظيم البيت

ص: ٢٨٥

والتشويق للكعبة، ومدح الرسول، وغير ذلك
ظ: الذريعة ١٢ / ١٢٩.

١٣٢٤- سخنى چند با حجاج محترم
(بالفارسية)

سلمان غفارى

طهران: انتشارات همدى، ط ١، ١٣٦٢ ش.

١٣٢٥- سندنه الكعبة عبر التاريخ

الهداية س ١١: ع ١٢٩ (٧ / ١٩٨٨ م) ص ٢٠-٢١.

١٣٢٦- الأسرار فى ذكر الصلاة على النبى المختار، الصلوات الطيبه.

أحمد الطيب بن البشير

بيروت: المكتبة الثقافية، ١٩٨٥ م، ١٤٣ ص.

١٣٢٧- سر تحويل القبلة

اسامة أحمد محمد، المجاهد (القاهرة) ع ١١٢ (٣ / ١٩٩٠ م) ص ٣٢-٣٣.

١٣٢٨- سرزمين عرفات

(بالفارسية)

على قاضى عسكر

مىقات حج. س ٤: ع ١٢ (تابستان ١٣٧٤ ش) ص ١٤٢-١٤٣.

١٣٢٩- السعى المشكور فى الرد على المذهب المأثور فى زيارة القبور

عبدالحى بن عبدالحليم

(صنفه سنة ١٢٩٤ هـ).

ط: الثقافة الإسلامية فى الهند ٢٤٥.

١٣٣٠- سعى هاجر «گزارش سفر حج»

(بالفارسية)

شكوه ميرزا دگى

طهران: ط ١، ١٣٥٦ ش، ١٣١ ص، ٢١ سم.

١٣٣١- سفر حج

(بالفارسية)

مجموعه تحقيق مسائل الحج

طهران: شركت انتشار، ط ١، ١٣٥٩ ش (نشریه، ٩).

١٣٣٢- سفر حج

(بالفارسية)

محمد صادق نجمى

قم: المؤلف، ط ١، ١٣٥٩ ش.

١٣٣٣- سفر الحرمين

(رحلة الى مكة والمدينة أيام

ص: ٢٨٦

عبدالحميد ١١٨٨-١٢٠٣ هـ، بالفارسية).

مجهول المؤلف

ظ: راجستان ١/٢٦٩، فهرستواره منزوی ١/٨٩.

١٣٣٤- سفر عشق

(مناسك حج)

مرضيه فاميل دردشتي

ميقات حج: ع ٢٣ (بهار ١٣٧٧ ش) ص ١٣٢-١٥٤.

١٣٣٥- سفرنامه‌ای شیرین و پر ماجرا

علی قاضی عسکر

ميقات حج: ع ١٩ (بهار ١٣٧٦ ش) ص ١٦٥-١٨٧.

١٣٣٦- سفرنامه بيت الله

(بالفارسية)

ميرزا عليخان اعتماد السلطنة ت ١٢٨٥ هـ

(شرح فيه رحلته الى الحج سنة ١٢٦٣ هـ)

خ: الإمام الرضا عليه السلام، وقف ١٣٣٤.

ظ: الذريعة ١٢/١٨٦، استوری ١١٥٥، فهرستواره منزوی ١/١٠٥.

١٣٣٧- سفرنامه تشرف مكة

(بالفارسية)

مخبر السلطنة مهدي قلي خان هدايت ت ١٣٣٤ هـ

طهران: ١٣٣٠ ش، ١٢٩ ص، ٢١ سم.

١٣٣٨- سفرنامه حاج ميرزا مشتري بمكة

(منظوم، بالفارسية)

حسام الشعراء محمد ابراهيم مشتري خراساني ت ١٣٠٥ هـ.

طهران: ١٣٠٠ هـ.

ظ: الذريعة ١٢/١٨٩.

١٣٣٩- سفرنامه حج

(رحلة من بادكوبه الى الحجاز والعودة من جدة الى طهران وذلك في سنة ١٣١٦ هـ، بالفارسية)

مجهول المؤلف

ظ: أشكوری ١٦/٣٤٥

فهرستواره منزوی ١/١٠٥.

١٣٤٠- سفرنامه حج

(رحلة رفيع الدين شاه أبو تراب في سنة ٩٨٩-٩٨٧ هـ / ٧٨-

ص: ٢٨٧

١٥٧٩ م الى الحج، بالفارسية)

أبو الفيض فيضى دكنى

(ت ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٥ م)

ظ: استورى ١١٤١ (الرقم ١٥٩٠)، بانكيبور، ذيل ١ / ٧ / ١٩٩٥، فهرستواره منزوى ١ / ١٠٤.

١٣٤١ - سفرنامه حج

(بالفارسية)

پادشاه خواجه بن رحمت الله خواجه المتخلص بنديم

ظ: فهرست مشترك باستان ٦ / ٩٦٦، ١٠ / ٦٦، فهرستواره منزوى ١ / ١٠٥.

١٣٤٢ - سفرنامه حج

(بالفارسية)

جواد مجابى

طهران: انتشارات موج، ١٣٥٢ ش، ٩٠ ص.

١٣٤٣ - سفرنامه حج

(بالفارسية)

عبدالله دهش

طهران ١٣٥٣ ش، ٦٠ ص.

١٣٤٤ - سفرنامه حج

(رحلة الى الحج بالفارسية)

على خانصرد اعظم أمين الدولة ظ: فهرستواره منزوى ١ / ١٠٤.

١٣٤٥ - سفرنامه حج

(بالفارسية)

لطف الله الصافى الكلبايگانى

مطبوع

قم: دفتر انتشارات اسلامى، ط ١، ١٣٦٤ ش.

١٣٤٦ - سفرنامه حج

(رحلة الى الحجاز عن طريق العراق وسورية فى سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م)، بالفارسية)

محمد حسن خان سرهندي مجددى

ظ: مشترك ٢ / ١٤٠٢ و ١٠ / ٦٧.

ترجمهها ٣٦٤.

فهرستواره منزوى ١ / ١٠٤.

١٣٤٧ - سفرنامه حج

(بالفارسية)

محمد حسين بن مهدي عشرت كلبن فراهاني

طهران: ١٣٤٢ ش.

١٣٤٨- سفرنامه حج

(بالفارسية)

حاجي محمد حسين خان بن بايرام

ص: ٢٨٨

علي خان

ظ: استورى ١١٤٨.

فهرستواره منزوى ١/١٠٤.

١٣٤٩- سفرنامه حج

(رحلة الى مكة مع أخيه آقا محمد فى شهر رمضان سنة ١٣٠٧ هـ، بالفارسيه)

محمد حسين همدانى رضوى

ظ: نسخهها ٦/٤٠٣٠، نشره ٥/٣٧٨.

فهرستواره منزوى ١/١٠٥، ١٢٦.

١٣٥٠- سفرنامه حج

(الفارسيه)

محمد على بن محمد رضى بروجردى

ألفه سنة ١٢٧٦ هـ.

١٣٥١- سفرنامه حج

(رحلة الى مكة والمدينه من سنة ١٢٥٤ هـ الى ١٢٥٦ هـ، بالفارسيه)

نواب عظيم الدولة محمد مصطفى حسرتى شيفته دهلوى (ت ١٢٨٦ هـ)

ظ: مشترك ١١/٧٧٠، استورى ٨٩٦، الذريعه ٩/٢٣٩ «ديوان حسرتى»، مشار مؤلفين ٦/٢٢٦ «وهو: ترغيب السالك للمؤلف»،

فهرستواره منزوى ١/١٠٥.

١٣٥٢- سفرنامه حج

(الفارسيه)

محمد طالقانى

مطبوع

١٣٥٣- سفرنامه حج

(الفارسيه)

ناصر خسرو فباديانى

باهتمام: نادر وزين پور

طهران: انتشارات جيبى، ١٣٥٠ ش.

١٣٥٤- سفرنامه حج ١٢٦٠ قمرى

(الفارسيه)

محمد ولى ميرزا قاجار

تحقيق: رسول جعفریان

[د. م]: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧٣ ش (مع: به سوى ام القرى، وغيره).

١٣٥٥- سفرنامه حج البيت / سفرنامه مكة

(رحلة الى مكة، بالفارسية)

ابراهيم بن درويش محمد كازروني

[كان حياً في ١٢٧٤ م (١٣٣٤ هـ)]

ظ: الذريعة ١٢ / ١٨٦،

ص: ٢٨٩

فهرستواره منزوی ١/ ١٠٥، ١٢٦

١٣٥٦- سفرنامه حج بيت الله الحرام
(بالفارسیه)

علی أكبر میرزائی المتخلص بتجار

خرم آباد: ١٣٤٢ ش، ٤٨ ص.

١٣٥٧- سفرنامه حج سال ١٣٣١ قمری
(بالفارسیه)

میرزا علی اصفهانی

تحقیق: رسول جعفریان

[د. م]: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧٣ ش (مع: به سوی ام القرى، وغيره).

١٣٥٨- سفرنامه حج: لحظه های غنیمت
(بالفارسیه)

رضا بنده خدا

طهران: سازمان تبلیغات اسلامی حوزه هنری، ط ١، ١٣٧٥ ش، ٩٦ ص.

١٣٥٩- سفرنامه حج وارهنمای حجاج
(بالفارسیه)

حسین ذو القدر شجاعی

طهران: ١٣٣٤، ٧٦ ص.

طهران: ١٣٣٥ ش.

ظ: الذریعة ١٢/ ١٨٦.

١٣٦٠- سفرنامه حجاج

(رحلة الى الحجاز في أيام أمير حبيب الله خان، بالفارسیه)

شاه بیگ خان رکن دربار کابل

ظ: مشار ٣/ ٣٠٢٠ «سفرنامه حافظ» مطبوع خطأ، فهرستواره منزوی ١/ ١٠٤.

١٣٦١- سفرنامه حجاج

(رحلة الى الحجاز، بالفارسیه)

محمد حسین بن محمد علی شهرستانی

(ت ١٣١٥ ه)

ظ: الذریعة ١٢/ ١٨٦.

فهرستواره منزوی ١/ ١٠٤.

١٣٦٢- سفرنامه حجاج

(رحلة الى الحجاز ومكة والمدينة مع مولانا محمد إسحاق عن طريق البحر وذلك في بداية سنة ١٢٣٠ ه (١٨١٥ م)، بالفارسیه)

هدايت على بن فضل على

ظ: فهرست مشترك ١٠ / ٦٢.

فهرستواره منزوی ١ / ١٠٤.

ص: ٢٩٠

١٣٦٣- سفرنامه حرمين شريفين

(بالفارسيه)

حسين محيي الدين حاجي منشي

ظ: فهرستواره منزوي ١/ ١٠٥.

١٣٦٤- سفرنامه حرمين شريفين

(بالفارسيه)

محمد عرفان الدين ... (قاضي)

ظ: فهرستواره منزوي ١/ ١٠٥.

١٣٦٥- سفرنامه عتبات

(بالفارسيه)

جلال بن محمد حسين جزايري شوشتری

(كان حياً سنة ١٣١٦ هـ)

ظ: الذريعة ١٢/ ١٨٧.

فهرستواره منزوي ١/ ١١٤.

١٣٦٦- سفرنامه عتبات

(رحلة من همدان الى كربلا والنجف في سنة ١٣٢١ هـ، بالفارسيه)

حسين خان جامي مهاجراني

ظ: نسخهها ٦/ ٤٠٢٣.

دانشگاه ١٤/ ٣٨٣١.

فهرستواره منزوي ١/ ١١٣.

١٣٦٧- سفرنامه عتبات

(رحلة الى العتبات في سنة ١٣٢٩ هـ، بالفارسيه)

رضا خان تبيان الملك

ظ: الذريعة ١٢/ ١٨٨.

سنا ٢/ ١٤٤.

فهرستواره منزوي ١/ ١١٣.

١٣٦٨- سفرنامه عتبات

(رحلة ناصر الدين شاه الى العتبات مع محمد حسين رئيس الكتاب في سنة ١٢٨٧ هـ، بالفارسيه)

محمد حسين رئيس الكتاب

ظ: نسخهها ٦/ ٤٠٢٤.

راهنمای كتاب ١٢/ ١٨١.

فهرستواره منزوي ١/ ١١٣.

١٣٦٩- سفرنامه عتبات

(رحلة الى العتبات بعد سنة ١٢٥٩-١٢٦٠ هـ بقليل، بالفارسية)

محمد ولي ميرزا قاجار نجفقلی

ظ: نسخهها ٤٠٢٤/٦

فهرستواره منزوی ١/١١٤.

١٣٧٠- سفرنامه عتبات

(رحلة الى العتبات من هرات وذلك في بداية القرن الرابع عشر الهجري، بالفارسية)

ص: ٢٩١

محمد عظيم خان قندهارى

ظ: نسخه ها ٦ / ٤٠٢٤.

مجلس ٩ / ٧٤.

فهرستواره منزوى ١ / ١١٤.

١٣٧١ - سفرنامه عتبات

(رحلة الى العتبات من اصفهان فى سنة ١٣٤٤ هـ، بالفارسيه)

گلستانه محمد مؤرخ

ظ: اشكورى ١٦ / ٢٥١.

فهرستواره منزوى ١ / ١١٤.

١٣٧٢ - سفرنامه عتبات

(الفارسيه)

ناصر الدين شاه قاجار

ظ: راهنماى كتاب ١٢ / ١٨١ «ملخص سفرنامه عتبات».

افشار ٣ / ٢٢ «الرقم ٤٤١».

فهرستواره منزوى ١ / ١١٤.

١٣٧٣ - سفرنامه عتبات

(قطع شعريه فى وصف رحلة الى العتبات، بالفارسيه)

مشتري خراسانى

(ت ١٣٠٥ هـ)

ظ: نسخه ها ٦ / ٤٠٢٤ «سفرنامه منظوم عتبات».

دانشگاه ١٥ / ٤١٨٦.

مجلس ٨ / ١٨٥

فهرستواره منزوى ١ / ١١٤

١٣٧٤ - سفرنامه عتبات ومكة

(الفارسيه)

سيف الدولة

مطبوع

ط: به سوى ام القرى ١٤

١٣٧٥ - سفرنامه كربلا

(رحلة الى كربلاء فى سنة ١٢٩٩ هـ، بالفارسيه)

مجهول المؤلف

ظ: فيلم ها ٢ / ١٩١.

نشره ١ / ٧ «الرقم ٥».

فهرستواره منزوی ١ / ١١٨.

١٣٧٦- سفرنامه كربلا

(الوقائع اليومية لرحلة ناصر الدين شاه الى كربلا، بالفارسية)

ناصر الدين شاه

ظ: فهرستواره منزوی ١ / ١١٨.

١٣٧٧- سفرنامه مشهد

(رحلة ناصر الدين شاه الى مشهد مع القائد ميرزا ابراهيم سررشته دار في سنة ١٣٠٠ هـ، بالفارسية)

ص: ٢٩٢

ابراهيم سر رشته دار

ظ: نسخه ها ٦/٤٠١٠ «سفرنامه» امين لشكر.

مشهد، فردوس ١٠٥ «سفرنامه ميرزا ابراهيم».

نشریه ٣/٩٣ «سفرنامه ايمن لشكر».

فهرستواره منزوی ١/١٢٣.

١٣٧٨- سفرنامه مشهد

(بالفارسيه)

وكيل الملك ميرزا اسد الله منشى وزير مختار

ظ: فيلم ها ٢/٢٧٥.

فهرستواره ١/١٢٤.

١٣٧٩- سفرنامه مشهد

(رحلة الى مشهد فى سنة ١٣١٥ هـ، بالفارسيه)

رضا تبيان الملك تبريزى

ظ: الذريعه ١٢/١٨٨ «سفرنامه».

فهرستواره منزوی ١/١٢٣.

١٣٨٠- سفرنامه مشهد

(رحلة من طهران الى مشهد «بداية المشروطينه»، منظوم بالفارسيه)

شفيع خان محرم تفرشى

ظ: نسخه ها ٦/٤٠٣٤ «سفرنامه منظوم (مشهد)».

الذريعه ١٩/٢٠٨ «مثنوى سفرنامه».

دانشگاه طهران ١١/٢٠٦٨،

فهرستواره منزوی ١/١٢٣.

١٣٨١- سفرنامه مشهد

(رحلة الى مشهد فى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى، المتن باللغة الأورديه) مترجم الى الفارسيه

صوبيدار بنى أحمد

ترجمه: سيد امتياز حسين

ظ: مشترك ١٠/٦٧.

كنج بخش «الرقم ٨١٢٧».

فهرستواره منزوی ١/١٢٤.

١٣٨٢- سفرنامه مشهد

(رحلة ناصر الدين شاه الى مشهد مع خادمه وطيبه حكيم الممالك فى سنة ١٢٨٣ هـ، بالفارسيه)

على نقى حكيم الممالك

ظ: الذريعة ١٢ / ١٨٩، آستان قدس ٣ / ١٣٤ «سفرنامه حكيم الممالك ٨٣-١٢٨٤ هـ»، تبريز، دانشگاه، تسيحي ٤١ «سفرنامه

ص: ٢٩٣

ناصر الدين شاه به خراسان»، دانشگاه ٣١٤٥ / ١٣ «سفرنامه يا روزنامه»، مشهد، فردوسی ١٠٥ «سفرنامه حکيم الممالک»، نشریه ٩٣ / ٣ «سفرنامه حکيم الممالک» فهرستواره منزوی ١ / ١٢٣.

١٣٨٣- سفرنامه مشهد

(رحلة من اصفهان الى مشهد، منظوم بالفارسیة)

محمد داود عشوح اصفهانی

(ت ١١٣٣ هـ)

ظ: نسخهها ٤٠٣٣ / ٦ «سفرنامه منظوم»، الذریعة ٢٠٧ / ١٩ «مثنوی سفرنامه»، سپهسالار ٢ / ٥٩٥ - ٥٩٨، فهرستواره منزوی ١ / ١٢٣.

١٣٨٤- سفرنامه مشهد

(بالفارسیة)

ناصر الدين شاه قاجار

ظ: مشار ٣ / ٣٠٣ «سفرنامه ناصر الدين شاه به مشهد»، نشریه ٥ / ٣٩٤ «سفرنامه ناصر الدين شاه»، فهرستواره منزوی ١ / ١٢٤.

١٣٨٥- سفرنامه مكة

(رحلة الى مكة في سنة ١٢٨٨ هـ، بالفارسیة)

مجهول المؤلف

ظ: نسخهها ٤٠٣٢ / ٦.

فيلمها ١ / ١٢١.

ملی طهران ٢ / ٣٠١.

فهرستواره منزوی ١ / ١٢٦.

١٣٨٦- سفرنامه مكة

(رحلة الى مكة من طهران وذلك في سنة ١٢٩٦ هـ، بالفارسیة)

مجهول المؤلف

ظ: نسخهها ٤٠٣٢ / ٦.

ملی طهران ٢ / ٣٩٩.

فهرستواره منزوی ١ / ١٢٦.

١٣٨٧- سفرنامه مكة

(رحلة الى مكة في سنة ١٢٦١ هـ، بالفارسیة)

مجهول المؤلف

ظ: ملك ٣ / ٤٦٥.

فهرستواره منزوی ١ / ١٢٦.

١٣٨٨- سفرنامه مكة

(رحلة الى مكة والمدینة مروراً بکربلاء في سنة ١٣٠٩ هـ، بالفارسیة)

مجهول المؤلف

ص: ٢٩٤

ظ: نسخهها ٤٠٣٢ / ٦

ادبيات حكمت طهران ٢٠.

فهرستواره منزوی ١ / ١٢٧.

١٣٨٩ - سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة من طريق مشهد في سنة ١٣١٩ هـ، بالفارسية)

مجهول المؤلف

ظ: چند نسخه خطی ١ / ١٠٥.

فهرستواره منزوی ١ / ١٢٧.

١٣٩٠ - سفرنامه مکه

(بالفارسية)

ظ: آشنایی با چند نسخه خطی ١٠٥.

١٣٩١ - سفرنامه مکه

(بالفارسية)

خ: المرعشی فی قم برقم ٦٣٨٨.

١٣٩٢ - سفرنامه مکه

(بالفارسية)

مُهدی إلى ناصر الدين شاه سنة ١٢٩٧ هـ.

خ: ملی فی طهران برقم ٨٦٥ ف.

ظ: به سوی ام القرى ١٤ - ١٥.

العرب س ٣٢: ج ١، ٢ (٧، ٨ / ١٤١٧ هـ - ١١، ١٢ / ١٩٩٦ م) ص ٣٢.

١٣٩٣ - سفرنامه مکه / سفرنامه منظوم

(رحلة الى مكة والعتبات نظمها باسم محمد شاه قاجار، بالفارسية)

میرزا جلاير

ظ: نسخهها ٤٠٣٣ / ٦

الذريعة ١٩ / ٢٠٧ «مثنوی سفرنامه مکه».

ملی طهران ٢ / ٣٧٤.

فهرستواره منزوی ١ / ١٢٥ و ١٢٧.

١٣٩٤ - سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة في النصف الأول من القرن ١٤ هـ، بالفارسية)

داوود وزير وظيف

ظ: نسخهها ٤٠٣٠ / ٦

آستان قدس ٧ / ١٢٣.

دو كتابخانه مشهد ٨٤٤.

آستان قدس (القبائى) ٣٠٨ (سفرنامه).

فهرستواره منزوى ١ / ١٢٦.

١٣٩٥ - سفرنامه مکه

دليل الأنام فى سبيل زيارة بيت الله الحرام والقدس الشريف ومدينه

ص: ٢٩٥

السلام

(بالفارسية)

سلطان مراد حسام السلطنة بن عباس ميرزا (١٢٣٣-١٣٠٠ هـ)

اعداد: رسول جعفریان

طهران: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧٤ ش، ٣٦٠ ص، ٢٤ سم.

مقات حج. س ٤: ع ١٢ (تابستان ١٣٧٤ ش) ص ١٩٧-١٩٩.

١٣٩٦- سفرنامه مکه / سفرنامه منظوم

(رحلة الى مكة، منظومة بحدود ١٣٠٠ بيت، بالفارسية)

زوجة ميرزا خليل رقم نويس دربارصفوی

خ: جامعة طهران برقم ٢٥٩١، الأوراق ٧٦٤-٧٧٩.

ظ: نسخهها ٤٠٣٤ / ٦.

الذريعة ٢٠٧ / ١٩.

افشار ٢٤ / ٣ «الرقم ٤٩١، مثنوی سفرنامه ومجازیه».

دانشگاه طهران ١٤٠٦ / ٩ «سفرنامه زوجه...».

فهرستواره منزوی ١ / ١٢٥ و ١٢٧.

١٣٩٧- سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة، بالفارسية)

شهزاده خانم دختر فرهاد ميرزا همسر نصير الدولة

مقات حج: ع ١٧ (پاييز ١٣٧٥ ش) ص ٥٧-١١٧ (رسول جعفریان).

ظ: شنا ١٧٢ / ٢.

نشریه ١٧٩ / ٧ (؟).

فهرستواره منزوی ١ / ١٢٥.

١٣٩٨- سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة في سنة ١١٢٩ هـ، بالفارسية)

ضياء الدين آل كيوان قارى

ظ: نسخهها ٤٠٣١ / ٦.

مجلس ١٣٦٥ / ١٠ «سفرنامه حج».

فهرستواره منزوی ١ / ١٢٤.

١٣٩٩- سفرنامه مکه

(بالفارسية)

عبدالحسين خان افشار

ظ: به سوى ام القرى ١٥.

١٤٠٠- سفرنامه مکه

(بالفارسيه)

ص: ٢٩٦

أمين الدولة علي بن مجد الملك محمد، ت ١٣٢٢ هـ.

طهران: ١٣٢٨ ش، ١٩٩ ص، ٢٤ سم.

ظ: الذريعة ١٢ / ١٨٩.

١٤٠١ - سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة في سنة ١٢٦٣ هـ، بالفارسية)

علي خان اعتماد السلطنة

ظ: نسخها ٦ / ٤٠٣١، الذريعة ١٢ / ١٨٦ «سفرنامه بيت الله»، آستان قدس ٣ / ٩٠، تبريز ١ / ١٦١، آستان قدس، الفبايي ٣٠٨ «سفرنامه

علي خان...»، فهرستواره منزوي ١ / ١٢٤.

١٤٠٢ - سفرنامه مکه

(بالفارسية)

علي خان حاجب الدولة

ظ: به سوی ام القرى ١٤.

١٤٠٣ - سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة، بالفارسية)

علي خان والي خوزستان

ظ: فهرستواره منزوي ١ / ١٢٥.

١٤٠٤ - سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة في سنة ١٣٢٥ هـ، بالفارسية)

عليصدر الذاكرين تفرش تهراني

ظ: الذريعة ١٢ / ١٨٩.

فهرستواره منزوي ١ / ١٢٥.

١٤٠٥ - سفرنامه مکه / هدايت السبيل وكفاية الدليل

(رحلة الى مكة في سنة ١٢٧٢ هـ، بالفارسية)

فرهاد ميرزا قاجار (ت ١٣٠٥ هـ)

(مطبوع)

خ: مجلس الشورى الثانى بطهران برقم ١٢٢٥

ظ: نسخها ٦ / ٤٠٥٦، الذريعة ١٢ / ١٨٩ «سفرنامه مکه» و ١٧٧ / ٢٥، استورى ١١٥٧ «الرقم ١٦٢٤»، برگل ٢ / ٨٦٣، ٨٦٤ مشار ٥ /

٥٤٦٠ «طبعة واحدة»، مشار مؤلفين ٤ / ٨٢٠ آستان قدس ٣ / ١٥٥، فيلمها ١ / ١٢١، ملي تبريز ١ / ١٨٤، نشریه ٣ / ١٤١، ٢٥٢، آصفیه

هند ٣ / ٣٥٠ «الرقم: ٩٦»، فهرستواره منزوي ١ / ١٢٥ و ١٥٧.

ص: ٢٩٧

١٤٠٦- سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة في سنة ١٣٤٨ هـ، بالفارسية)

لطفعلی اعلايی

ظ: نسخهها ٦ / ٤٠٣١، آستان قدس ٧ / ١٢٤، آستان قدس «الفبائی» ٣٠٨ «سفرنامه»، فهرستواره منزوی ١ / ١٢٤.

١٤٠٧- سفرنامه مکه

(بالفارسية)

محمد بن اسماعيل الشهير بقيری

خ: مسجد أعظم برقم ٢٩٤٧.

ظ: فهرستواره منزوی ١ / ١٢٥.

١٤٠٨- سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة، وفيها مقطوعات شعرية في وصف العتبات المقدسة، بالفارسية)

محمد إبراهيم مشترى خراسان

(ت ١٣٠٥ هـ)

ظ: نسخهها ٦ / ٤٠٣٤ (سفرنامه منظوم)، الذريعة ١٢ / ١٨٩ (سفرنامه حاج ميرزا مشترى به مكة) و ١٩ / ٢٠٨ (سفرنامه مکه) به نظم،

مشار ٣ / ٣٠٢٧ (سفرنامه حاج ميرزا مشترى به مكة)، آستان قدس ٧ / ٥١١ (ضمن ديوانه)، جامعه طهران ١٢ / ٢٧٨٨ رقم ٣٨٠٦

(سفرنامه) و ١٥ / ٤١٨٦ رقم ٥٢٦٣، ملك ٣ / ٤٦٦ (سفرنامه مکه)، مجلس ٣ / ٤١٥، فهرستواره منزوی ١ / ١٢٦.

١٤٠٩- سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة من طريق رشت وذلك في سنة ١٢٧٩ هـ، بالفارسية)

سيف الدولة سلطان محمد بن فتحعلی شاه قاجار

ظ: نسخهها ٦ / ٤٠٣١، ملی طهران ٢ / ٢٨٢، فهرستواره منزوی ١ / ١٢٥.

١٤١٠- سفرنامه مکه

(بالفارسية)

محمد تاجر طهرانی

خ: المرعشی فی قم برقم ٩٠٠٨.

١٤١١- سفرنامه مکه

(بالفارسية)

محمد رضا بن عبدالجليل حسنی حسینی طباطبائی تبریزی

ص: ۲۹۸

خ: ملک فی طهران برقم ۲۳۵۷.

ظ: فهرست المكتبة ۳/ ۴۶۵، فهرستواره منزوی ۱/ ۱۲۵.

۱۴۱۲- سفرنامه مکه

(بالفارسیه)

محمد علی فراهانی

خ: مجلس الشوری فی طهران برقم ۲۳۱۰.

ظ: فهرست المجلس ۶/ ۲۶۸، فهرستواره منزوی ۱/ ۱۲۵.

۱۴۱۳- سفرنامه مکه/ هدايت السبيل

(رحلة الى مكة، بالفارسیه)

محمد علی منشی

(ابن فتحعلی شاه)

ظ: فیلم ها ۱/ ۱۲۱، نسخه ها ۶/ ۴۰۵۶، الذریعة ۲۵/ ۱۷۷، فهرستواره منزوی ۱/ ۱۲۷ و ۱۵۷.

۱۴۱۴- سفرنامه مکه

(رحلة الى مكة في سنة ۱۳۲۱ هـ، بالفارسیه)

مدیر الدوله

خ: ملک بطهران برقم ۳۸۹۹

ظ: ملک ۳/ ۴۶۶، فهرستواره منزوی ۱/ ۱۲۶.

۱۴۱۵- سفرنامه مکه

نائب الصدر الشیرازی

طبع فی بمبی

ظ: الذریعة ۱۲/ ۱۹۰.

۱۴۱۶- سفرنامه مکه ومدينه وکربلا

(بالفارسیه)

خ: مکتبه إمام الجمعه فی کرمان برقم ۳۹۳.

ظ: العرب. س ۳۲: ج ۱، ۲ (۷، ۸/ ۱۴۱۷ هـ / ۱۱، ۱۲/ ۱۹۹۶ م) ص ۳۲.

۱۴۱۷- سفرنامه ناصر خسرو

حج در آینه سفرنامهها

(بالفارسیه)

حسن اسلامی

میقات حج س ۲: ع ۵ (پائیز ۱۳۷۲ ش) ص ۲۳۵-۲۵۴.

۱۴۱۸- سفرنامههای حج در ادب عربی (سر مقاله)

میقات حج: ع ۱۷ (پاییز ۱۳۷۵ ش) ص ۵-۲۰.

١٤١٩- سفرى به ديار معبود

ثريا قدك پور

ص: ٢٩٩

مقات حج: ع ١٧ (بايز ١٣٧٥ ش) ص ٢٠٤ - ٢١٨.

١٤٢٠ - سفينة الأديعة والزيارات

بعض المعاصرين

ظ: الذريعة ١٢ / ١٩٣، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ٩ / ٥٢٥.

١٤٢١ - سكان المدينة المنورة

محمد شوقي بن إبراهيم مكى

الرياض: دار العلوم، ١٤٠٥ هـ، ٢٤٣ ص، ٢١ سم.

١٤٢٢ - السلاح والعدة في تاريخ جدة

عبدالقادر بن أحمد بن محمد بن فرج الشافعي الخطيب ت ١٠١٠ هـ.

خ: الحرم المكي برقم ٢٨.

١٤٢٣ - السلام عليكم يا سيدى رسول الله

حامد الجوهري

الهداية س ١٢: ع ١٣٣ (١٠ / ١٩٨٨ م) ص ٢٠ - ٢٥.

١٤٢٤ - السلام عليك يا رسول الله

محمد عبده يمانى

الإسلام وطن س ٤: ع ٤٧ (٢ / ١٩٩١ م) ص ١٦ - ١٧.

١٤٢٥ - سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى

(يشتمل المجلد الرابع منه على أشرف مكة المكرمة إلى وفاة المؤلف)

عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامى المكى (١٠٤٩ - ١١١١ هـ)

قدم له: محب الدين الخطيب

القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٠ هـ، ٤ مج (يشتهر هذا الكتاب باسم:

تاريخ العصامى).

١٤٢٦ - السهودى أشهر مؤرخى المدينة

حمد الجاسر

العرب (الرياض). س ٧: ع ٣ (٩ / ١٣٩٢ هـ / ١١ / ١٩٧٢ م) ص ١٦١ - ١٧٨.

١٤٢٧ - سدى از يك حج نيابتى

جمال الدين ترابى طباطبائى

مقات حج: ع ٢٣ (بهار ١٣٧٧ ش) ص ٦٩ - ٧٤.

١٤٢٨ - السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات

ص: ٣٠٠

محمد عبدالسلام خضر الشقيري

بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٠ م، ٤٣٩ ص.

١٤٢٩- السنة والحج المبرور

معوض عوض إبراهيم

الأزهر (القاهرة) س ٦١: ع ١٢ (٧/ ١٩٨٩ م) ص ١٣٢٧ - ١٣٣٠.

١٤٣٠- سهولة الحج في عهد الأمن والإصلاح

المنهل (جدة) مج ٢: ج ٨ (٧/ ١٣٥٧ هـ / ٩/ ١٩٣٨) ص ٢٧.

١٤٣١- سوانح سفر الحجاز

(رحلة الى الحجاز، بالفارسية)

مجهول المؤلف

ظ: استورى ١٦١ برقم ٢٠ / ١٦٣١، فهرستواره منزوى ١ / ١٣٤.

١٤٣٢- سوژه‌هاى سخن در مکه ومدينه

(بالفارسية)

طهران: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧٢ ش، ١١٥ ص، ٢٤ سم.

١٤٣٣- سوغات حج

(بالفارسية)

كاظم أرفع

طهران: تربت، ط ١، ١٣٧٥ ش، ٦٤ ص، ٢١ سم.

١٤٣٤- سياحتى الى الحجاز

غريب بن عجيب الهاشمى

القاهرة: ١٩١٥ م، ٤٥٧ ص.

١٤٣٥- السيدة زبيدة ودورها السياسى والعمرانى فى مكة والمدينة

ملك محمد محمد الخياط

مكة المكرمة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة، ١٩٨٢ م، ٢٥٧ ص (ماجستير).

١٤٣٦- سيرة الرسول فى مكة كما بدت فى شعر بعض معاصريه

معيد خان

الرسالة الإسلامية (بغداد) ع ٤٦

(١٣٩٢ هـ) ص ١٠-١٨.

ع ٤٨ و ٤٩ (١٣٩٢ هـ) ص ١٨-٣٠ م.

١٤٣٧- سيرة عن الحرمين

إبراهيم عبده

طُبِعَ بالقاهرة عام ١٣٨٠ هـ.

ظ: المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥

ص: ٣٠١

(٣- ١٤١٠ هـ / ١٠ - ١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٦.

١٤٣٨- سيرة من الحرمين

محمد السنوسي

المنهل (جدة) مج ٢١: ج ٩ (١١ / ١٣٨٠ هـ / ٤ / ١٩٦١ م) ص ٦٣٤-٦٣٦.

١٤٣٩- سيري در اماكن سرزمين وحى

(بالفارسيه)

على أكبر حسنى

طهران: نشر مشعر، ط ١، ١٣٧١ ش، ١٣٦ ص، ٢١ سم.

١٤٤٠- سيري در مدينه، سفرى به مكه

(بالفارسيه)

أحمد محفوظى

زائر س ١: ع ٢ (ارديبهشت ١٣٧٣ ش) ص ١٥-٢٢.

١٤٤١- سيري در وادى عشق

(تعريف بمكة المكرمة والمدينة المنورة، بالفارسيه)

محمد مهدي شمس الدين

قم: انتشارات شفق، ط ١، ١٣٧٣ هـ، ١٦٨ ص، ٢١ سم.

١٤٤٢- سيري کوتاه در سفرنامه هاى حج

(بالفارسيه)

محمد شهرى برآبادى

مشكوه ع ٢٥ (زمستان ١٣٦٨ ش)، ص ١٨٢-٢٠٢.

١٤٤٣- سيمای حج در سال ١٣٧٠ ش

(تقرير عن نشاط بعثة الولى الفقيه فى الحج لسنة ١٣٧٠ ش، بالفارسيه)

مرتضى سرهنكى، وعبدالله گويان، وهدايت الله بهبودى

طهران: حوزه نمايندگى ولى فقيه در امور حج وزيارت، ط ١، ١٣٧١ ش، ٣٩٦ ص، تصاوير.

١٤٤٤- السيول فى منطقة مكة المكرمة

أحمد سعيد حديد

المجلة التاريخية المصرية ع ٣ (١٩٧٤ م) ص ٣٤٢-٣٦٢.

١٤٤٥- الشؤون الاقتصادية والمالية فى حياة الدولة العربية الاسلامية الأولى

ص: ٣٠٢

الحبيب الجنحاني

قضايا عربية س ١٠: ع ٢ (٢/١٩٨٣ م)، ص ١٠٩ - ١٣٩.

١٤٤٦- شؤون الحرمين الشريفين في العهد العثماني: في ضوء الوثائق التركية العثمانية

محمد عبد اللطيف هريدي

القاهرة: دار الزهراء للنشر، ط ١، ١٩٨٩، ١٦٣ ص.

١٤٤٧- شارع النجاة في حجة الوداع

أحمد بن علي المقریزی ت ٨٤٥ ه ط هدية العارفين ١/١٢٧، معجم ما ألف عن رسول الله (ص) ٢٤٥.

١٤٤٨- شاهد المشاهد

(يعني مرآة الأئمة (ع) في ذكر شرفها وتفصيل زياراتها الصحيحة وتواريخها المعتمدة).

هبة الدين الشهرستاني

ظ: الذريعة ١٣/١٥، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ٩/٥٣٥.

١٤٤٩- شهای مکة: سرگذشت سفر من

(بالفارسية)

حسن أبطحي

مشهد: انتشارات كانون بحث وانتقاد ديني، ط ١، ١٤٠٤ ه، ٤٦٩ ص، ٢ ج، ٢٤ سم.

١٤٥٠- شبه جزيرة العرب: الحجاز

محمود شاکر

دمشق: المكتب الاسلامي، ط ١، ١٩٧٧ م، ٢٠١ ص ٢١ سم.

١٤٥١- الشجرة النبوية في بطون قريش وقبائلها

الدجاني

طبع في مصر.

ظ معجم المطبوعات لسركيس ٨٦٦.

١٤٥٢- شخصيات من الحرمين الشريفين (٧)

ام المؤمنین خديجة الكبرى

محمد سليمان

مقات الحج: ع ٩ (١٤١٩ ه) ص ١٢٣ - ١٤١.

١٤٥٣- شخصيات من الحرمين الشريفين (٨)

عمار بن ياسر

محسن الأسدي

ص: ٣٠٣

ميقات الحج: ع ١٠ (١٤١٩ هـ) ص ٢٠٩ - ٢٣٣.

١٤٥٤ - شد الأبواب في سد الأبواب في المسجد النبوي

جلال الدين السيوطي ت ٩١١ هـ

خ: المكتبة المحمدية برقم ٩٧ مجاميع.

برلين ١٩٧٥٦ / ٢١.

جامعة الرياض فيلم ٩٥.

طبع في القاهرة: بضمن الحاوي للفتاوى ١٠٢ / ٢ ظ كشف الظنون ١٠٢٨، حسن المحاضرة ١ / ٣٤٢، هدية العارفين ١ / ٥٤٠.

١٤٥٥ - شد الرحال إلى مسجد الرسول: القبر الشريف أم المسجد الشريف أيهما له النية الأولى؟ عند القبر وفي المسجد مشاهد

مترابطة وذكريات متآلفة:

كمال أحمد عون

منبر الاسلام (القاهرة) س ٤٨:

ع ١٢ (١٩٩٠ / ٧) (١٩٩٠ / ١٢) (١٤١٠ هـ)

١٤٥٦ - شرافت كعبه وبرتري آن بر بيت المقدس (بالفارسية)

هادي اميني، و محسن آخوندي

ميقات حج س ٢: ع ٤ (تابستان ١٣٧٢ ش) ص ١٥٣ - ١٦٤.

١٤٥٧ - شرح حديث ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضي.

من المحتمل انه: لصدر الدين الشيرازي

ظ الذريعة ١٣ / ٢٠٦.

١٤٥٨ - شرح دعاء عرفه

محمد علي فاضل

خ: المكتبة الرضوية برقم ٦٧٤٦.

١٤٥٩ - شرح زيارت جامعه كبيره (بالفارسيه)

محمد الحسيني الشبستري

المشهور بوحيدي

طهران: مصطفوي، ١٣٣٣ ش، ٢٢٢ ص، ٢١ سم.

١٤٦٠ - شرح زيارت جامعه كبيره (بالفارسيه)

محمد هادي شيخ الإسلامى (فخر المحققين الشيرازي) تحقيق: محمد جواد الطبسى الحائري

مشهد: مكتبة الطبسى الحائري

ص: ٣٠٤

١٤٦١- شرح الزيارة

محمد الشهير بلايد بن ناصر بن حسين الصيقل آل عيسى (١٢٤٥-١٣٢٦ هـ)

ظ: ماضي النجف وحاضرها ٣/٥٢٣، معارف الرجال ٢/٣٨١، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ٥/٥٤٣.

١٤٦٢- شرح الزيارة الجامعة

(شرح مختصر لهذه الزيارة المروية عن الإمام الهادي عليه السلام)

معين الدين أشرف بن محمد صادق الحسيني

ظ: معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ٩/٥٤٤.

١٤٦٣- شرح الزيارة الجامعة

علي نقى بن حسين المعروف بالحاج آغا بن السيد المجاهد الطباطبائي الحائري ت ١٢٨٩ هـ.

ظ: الذريعة ١٣/٣٠٦، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام ٩/٥٤٤.

١٤٦٤- شرح الزيارة الجامعة

محمد بن عبد الكريم الطباطبائي البروجردى

ظ: الذريعة ١٣/٣٠٦، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ٩/٥٤٤.

١٤٦٥- شرح الزيارة الجامعة

بهاء الدين محمد بن محمد باقر الحسيني النائيني المختارى، ت ١١٣٥ هـ.

ظ: الذريعة ١٣/٣٠٦، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام ٩/٥٤٤.

١٤٦٦- شرح الزيارة الجامعة

محمد تقى بن مقصود على الاصفهاني المجلسي ت ١٠٧٠ هـ

ظ: الذريعة ١٣/٣٠٥، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ٩/٥٤٤-٥٤٥.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرًا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بناذر البحار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجلَ الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطه من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: ديتيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسايل الدينيه، تخليف المطالب النافعه - مكان البلايتي المتبدله أو الرديئه - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءه و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلاميه، إناله المنابع اللازمه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في جامعه، و...

- منها العدالة الاجتماعيه: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافه الاسلاميه و الإيرانيه - في أنحاء العالم - من جهه أخرى.

- من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءه

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدّه مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدّعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديّه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسه

(ي) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربيه المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" ومفتق "وفائي" / "بنايه" القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الإلكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩